



مارتن فالزر

# رجل عاشق

ترجمة  
سمير جريس

أوليت



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم  
MOHAMMED BIN RASHID  
AL MAKTOUM FOUNDATION



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني :

**Ein liebender Mann**

Martin Walser

حقوق الترجمة العربية مرخص بها من الناشر :

Rowohlt Verlag

© Rowohlt Verlag GmbH, 2008

All rights reserved

Arabic Copyright © East West - Diwan Almasar Publishing House FZLLC, 2008

مارتن فالزر

# رجل عاشق

ترجمة: سمير جريس

تحرير: شوقي بزيق

مراجعة وتدقيق:

مركز ديوان للترجمة



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم  
MOHAMMED BIN RASHID  
AL MAKTOUM FOUNDATION



الطبعة الأولى، 2008م

ISBN: 978-9953-87-532-3



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم  
MOHAMMED BIN RASHID  
AL MAKTOUM FOUNDATION  
tarjem@mbrfoundation.ae  
www.mbrfoundation.ae

جميع الحقوق محفوظة للناسر



**International Media Production Zone**  
**IMPZ Publishing**  
East West - Diwan Almasar Publishing House FZLLC  
UAE, Dubai  
www.diwanalmasar.com  
E-mail: eastwest@diwanalmasar.com

مؤسسة شرق غرب - ديوان المسار للنشر  
مدينة الإعلام العالمية - قسم النشر  
دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي

توزيع:  الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.

بيروت - لبنان

هاتف: 009611785107 - فاكس: 009611786230

ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان

E-mail: asp@asp.com.lb WebSite: http://www.asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الانترنت: نيل وفرات. كوم:

www.neelwafurat.com

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ومؤسسة شرق غرب - ديوان المسار  
للنشر غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة في هذا  
الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسستين.

تصميم الغلاف: محترف الزاوية - بيروت - لبنان

## رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجهنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية وللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام

الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني: [www.mbrfoundation.ae](http://www.mbrfoundation.ae)

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

## عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

## عجز اللغة وإعجاز الحياة

من أشقّ الأمور على النفس أن يضطر شخص مثلي مفتون بقراءة الروايات إلى تقديم رواية فريدة ومؤثرة مثل رواية «رجل عاشق» لمارتن فالزر بقليل من السطور. ذلك أن أي توطئة مهما بلغت درجة كثافتها ودقّتها لا يمكن أن تقبض على جوهر هذه الرواية الذي لا يتحقق إلا عبر القراءة نفسها. كما أن استعراض الأحداث والوقائع لن يفيد القارئ في شيء لأن هذا العمل لا يكتسب أهميّة من الحدث الروائي وحده بل من قوة المعنى وسطوة الفكرة وقدرة المؤلف الفائقة على النفاذ إلى جوهر السؤال الإنساني حول العلاقة بين الكتابة والزمن من جهة وبين الحب والألم من جهة أخرى.

يستعيد مارتن فالزر في «رجل عاشق» التجربة العاطفية المشبوبة والمثخنة بالعواصف التي عاشها غوته، شاعر ألمانيا الأكبر، وهو في الثالثة والسبعين من عمره مع الصبية الحسنة أولريكه فون ليفتسو، ذات التسعة عشر ربيعاً، صيف العالم 1823. ومن خلال ذلك الحب اللامتكافئ بين الشاعر العجوز والفتاة المراهقة، يقودنا فالزر عبر حبكة متقنة السرد إلى قلب



تلك التجربة الإنسانية الخطرة التي انساق وراءها صاحب «فاوست» و «آلام فرتر» محاولاً من خلال حبه للفتاة الصغيرة أن يتحاشى لسعة الموت التي تحدد جسده بالمرض وروحه بالتلف والذبول. ولم تكن الرواية لتنجح، رغم فريدة بطلها وحساسية موضوعها، لو لم يتمكن المؤلف من محو ذاته أو التماهي مع بطله إلى حد المطابقة بين ضمير الغائب وضمير المتكلم بحيث يشعر المرء وكأنه يقرأ سيرة غوته الذاتية بقلمه الشخصي وبجبر معاناته وشغاف قلبه. وقد يكون لتقارب العمر بين المؤلف وبطله، لحظة وقوع الأحداث، أبلغ الأثر في تظهير تلك التجربة القاسية والممتعة في آن، وفي التمكن من معالجتها بعمق وتبصّر بالغين.

السؤال الأبرز الذي يطرحه المؤلف على قارئه هو سؤال العلاقة بين الكتابة والحياة. ذلك أن غوته المتربع على قمة شهرته، والذي وهب نفسه للكتابة والإبداع، كان يشعر في قرارته أنه لا تجوز مقايضة عصفورة الحياة الوحيدة المتاحة له بالعصافير العشر التي تطير بأجنحة من وهم في فضاء خلوده الملتبس. لذلك رأى في جسد أولريكه المتألق وفي روحها المتقدة بالنيران ما يمكن أن يستعوض به عن صقيع شيخوخته المتصل بأبدية أكثر صقيعاً. وإذ أتيح له أن يعيش على امتداد صيف قصير الأمد في الفردوس المفعم بالتهويّات الذي منحته إياه الصبية اليافعة والمولعة بأعماله الروائية والشعرية ما لبث أن وقع محبطاً ومهيضاً إزاء ظهور الشاب الوسيم دورور في حياة معبودته الأثيرة. ولم يكن لجسده المترنح تحت ضربات

المرض والشيخوخة أن يواجه بأي حال فتوة ذلك الشاب الذي فتن أجمل نساء أوروبا بوسامته وثروته واستطاع خلال مراقبته لأولريكه أن يظهر الفروق الكبيرة بين عجز اللغة وإعجاز الحياة. وإذا كان غوته يبحث عن عزاء لمأساته عبر التجارب، شبه المماثلة، التي عاشها صديقه كينبل ود. ريباين مع امرأتين تصغرانهما بسنوات كثيرة فقد كان قدره العاثر يدفعه يوماً بعد يوم إلى خسارة أولريكه التي لم تستطع في النهاية مقاومة أمها الباحثة عن مصير أكثر ثراء لابنتها الجميلة، أو مقاومة رنين الحلي ولمعان الذهب المكنوز في خزائن دورور.

«الفردوس هو لقاء عاشقين، والجحيم إذا غاب أحدهما»، يقول فالزر بلسان غوته الذي يقف غير مرة على شفير الانتحار متعقباً بشكل كبير مأساة بطله فرتر في علاقته بحبيبته لوته، حيث يبدو لمرة جديدة أن الحياة تقلد الفن وتتعب خطاه كما يفعل هو بدوره. وإذا لا يملك القارئ «رجل عاشق» سوى أن يتذكر رائعته «الموت في البندقية» ونا بوكوف في رائعته الأخرى «لوليتا»، يتذكر في الوقت ذاته، ومن زاوية مختلفة، تجربة لويس أراغون في «مجنون إلسا» فالسا تخرج من أحشاء الفقدان المتمثل بسوط الأندلس، وأولريكه تخرج من أحشاء الفقدان المماثل المتمثل بسقوط ألمانيا، وأوروبا برمتها، في قبضة نابوليون. ولا غرابة بهذا المعنى أن يجد غوته في منافسه دورور الوجه الآخر لنابوليون الذي أكمل الاجتياح الشامل لروح الجماعة باجتياح آخر استطاع على المستوى الفردي أن يزلزل كيان الشاعر العجوز ويضعه في مهبط الريح.

سيتمكن غوته أخيراً من إحراق كل ما اتصل بعلاقته مع أولريكه متوهماً نسياناً لا وجود له ، لكن المفاجئ أن أولريكه الذاهبة إلى سواه ستحتفظ لنفسها برماد رسائله وهداياها وستوصي بأن يدفن ذلك الرماد إلى جوار جثمانها بعد الموت . كأنها وهي التي ألهمت غوته وحرّضته على كتابة «مرثية مارينباد» لم تكتف بمجاورة الخلود المتمثل في المرثية بل أرادت مساكنته باللموس في ضريحها الذي اتسع ، على ضيقه ، لها ولشاعرها الأثير في حين عجزت الحياة الفانية عن تحقيق ذلك .

**شوقي بزيع**

إلى أولريكة فون إيغلوف-كولومبير

## الجزء الأول

قبل أن يراها كانت قد رأته . عندما امتد بصره إليها كانت نظرتها مصوبة إليه . حدث ذلك عند نبع «كرويتس بروين» في منتجع «مارينباد» ، حوالى الخامسة بعد ظهر الحادي عشر من يوليو 1823 . مئات من علية القوم يتنزهون في المنتجع كي يراهم الآخرون ، وفي اليد كأس مملوءة بالماء الذي يزداد شهرةً عاماً بعد عام . لم يكن لدى غوته أي مانع في أن يراه الناس ، لكنه كان يريد أن يروه مستغرقاً في الحديث لا في التنزه . في تلك الأيام من شهر يوليو كان في حديث دائم مع النبيل شترنبرغ ، الباحث في العلوم الطبيعية الذي يصغر غوته بأكثر من عشر سنوات . اعتاد غوته - رغم أنه لم يكن يستطيع أن يألف ذلك - أن يقابل معظم علماء الطبيعة دراسته حول الألوان بحسرة متهكمة في أفضل الأحيان . فإذا قابل أحداً يعترف بدراسته ، لم يكن يستطيع في الغالب كبت مشاعر الود والعرفان وكل أنواع التأثير تجاه هذا الشخص . العُراف كاسبر شترنبرغ هو واحد من علماء الطبيعة هؤلاء . كان قد أَلَّفَ كتاباً عن نباتات عصور ما قبل التاريخ ، أو بكلمات أخرى : كان يستطيع قراءة

ما حفظته الأحجار . والأحجار كانت قد أمست مجال البحث المفضل لدى غوته . ولكن الآن، في تلك الأيام من شهر يوليو، كان هناك سبب آخر جعل الغراف شخصية جذابة بالنسبة لغوته، وبغض النظر تماماً عن كل العلوم الطبيعية . في العام السابق سكن الاثنان في قصر الغراف كليلسبرغ المُحول إلى فندق للاستشفاء . وهناك كان آل ليفتسو يسكنون أيضاً . تعرف غوته إليه في صالون أماليا فون ليفتسو . نحن نعرف بعضنا، صاح غوته، نحن نعرف بعضنا من عصور ما قبل التاريخ . هكذا ألمح إلى عنوان كتاب شترنبرغ، وسار في اتجاه الغراف بخطى تكاد تكون متعجلة، ثم عانقه . لفت ذلك الأنظار، لأن غوته كان يظل في المعتاد واقفاً إذا أراد أن يسمح بلقاء شخص، ليعطيه أو يعطيها الفرصة للاقتراب منه . ثم قال غوته موجهاً كلامه للبارونة: كلانا ارتقى جبل دونرسبرغ، هناك بالقرب من تبليتس، كل منا صعد من ناحية مختلفة، غير أن كلانا - هذا ما كتبه كلٌ منا للآخر - وصل إلى القمة . إنهما، قال الغراف، مسافران جاءا من مناطق تاريخية وجغرافية مختلفة، ثم تقابلا . وعندما قارنا خبراتهما، توصلا إلى أن من المفيد الوصول إلى الهدف نفسه عبر طرق متعددة .

الآن، أثناء النزهة، ترك غوته الغراف شترنبرغ يحكي له عن الكيميائي السويدي برتسليوس الذي اكتشف أن الصخور البركانية في «أوفرن» تتقارب على نحو مدهش مع الصخور هنا في كامربول .

حديث كهذا يمنح المتحدثين نوعاً من الحماية، أياً كان

المكان الذي يجري فيه . كان غوته هو الذي تجول ببصره اليوم أكثر من مرة أثناء الحديث . غوته قصير النظر، غير أنه يعتبر النظارات بشعة، كل لابس نظارة من محيطه كان يعلم ذلك، ويرفع النظارة عند استقبال غوته . النظارات تجعلني سيئ المزاج، كان يقول، وما يقوله الشاعر المشهور يردده الناس . لم يكن له أن يرى التي يبحث عنها، ولكن أماليا فون لِفْتسو مع بناتها أولريكة وأماليا وبرت، اللواتي بلغن في هذا العام التاسعة عشرة والسادسة عشرة والخامسة عشرة، هذه المجموعة سيتعرف عليها عن أي بعد، ووسط كل طريق وإن غصَّ بكافة أشكال المتنزهين . هذا ما حدث . مع أن علاقة أشخاص المجموعة فيما بينهم كانت قد تغيرت . أولريكة هي الأطول الآن، أطول بوضوح من أمها .

بدون أن يقطع محاضرة الغراف عن التقارب بين أحجار «أوفرن» و«كامربول»، قاد خطواته وخطوات الغراف ناحية آل لِفْتسو، فتقابلت نظرتهم مع نظرة أولريكة . كانت قد اكتشفته قبل أن يكتشف وجودها .

غمرته حركة أو موجة . شعور من الأعماق . الرأس أصبح محمومًا . أحس أنه قد يُصاب بالدوار . حاول عبر الزفير أن يلين من تصلب منطقة الجبهة والعينين التي بدت متشنجة أو أن يزيله . لا يمكن أن يحتفل باللقاء بعد عام كامل بملامح وجه شوهته الدهشة والألم والفرع .

إذاً . التحية . اتسمت الأم بحيوية واضحة فاقت كل بنت من بناتها . نظرة أولريكة المثبتة عليه - هل كان يعرفها من العام



الماضي؟ بقيت نظرتة تحتضن نظرتها. وعندما غدا ذلك لا يُطاق، عندما تحتم قول شيء، قال للواقفين حوله: من فضلكم، لاحظوا أنني لا أدرس الأحجار فقط، بل العيون أيضاً. ماذا يؤثر على العين أكثر: اختلاف الضوء من الخارج، أم اختلاف الحالة النفسية من الداخل؟ لقد أزاح الطقس غيمة ثقيلة ووضعتها أمام الشمس، ولذلك فإن عيني أولريكة موشكتان في هذه اللحظة - أليس هذا تعبيراً رائعاً؟ أن تُشتق اللحظة من لحظ العين؟ - أقول: موشكتان على التحول من الأزرق إلى الأخضر. إذا بقيت الغيمة سنتحدث مع أولريكة ذات العينين الخضراوين. عزيزي الغراف شترنبرغ، هذه الظاهرة المزدوجة - عما إذا كانت الغلبة للسبب الداخلي أم الخارجي - لا بد من أن تثير اهتمامنا. مرحباً بك، سيدتي المبجلة، ومرحباً بكن أنتن، يا ألطف ثلاثي في العالم.

قالت أماليا ذات الستة عشر عاماً التي تشبه أمها كل الشبه في ما يخص سرعة الكلام: لسنا ثلاثياً بالمرة، إذا سمحتم لي، سيدي المستشار.

بالطبع أسمح، قال غوته مرسلأً البصر مرة أخرى إلى أولريكة. لم تزل أولريكة تسدد نظرة هادئة وثابتة كالتّي تلتقتها. ظل في مجال نظرها. كان يمثل دور الباحث في العيون. لكنه لم يكن كذلك. ربما كان هذا ما ظنه الآخرون. أولريكة لم تكن تظن ذلك، وهو أيضاً لم يكن يظن ذلك. رنت إليه لا لشيء إلا لإظهار أنها ترنو إليه. قبل أن ينتقل من موضوع «النظرة» قال: بعض الرجال سيقولون في المستقبل إن عينك

زرقاوان يا أولريكه، وآخرون سيقولون إن عينيك خضراوان .  
أما أنا فأقول: لا تتقيدي بلون، من فضلك .

أخذها معه إلى الغرفة، تلك النظرة. في ما بعد تناولوا  
الطعام معاً، وتجادبوا أطراف الحديث، وأيقظوا ذكريات العام  
السابق وقبل السابق. في العام قبل الماضي. تحدثوا عن ذلك  
الطقس البائس، عندما ظلت السماء تمطر شهراً بأكمله. ما  
كانوا يستطيعون تحمله لولا آلاف الأفكار النيرة التي خطرت  
على بال السيد المستشار. غير أن الأحجار التي كان يعرضها  
لم تنل إعجاب أحد إلا أماليا. كانت لديه غرفة خاصة، ليس  
فيها سوى موائد عليها أحجار كان الخادم شتادلمان يقطعها من  
صخور المنطقة كلها. حتى اليوم ما زالت أماليا مجروحة  
الإحساس بعض الشيء لأن السيد المستشار وضع لأولريكه بين  
الأحجار رطلاً من الشيكولاته حتى يجعل الأحجار جذابة في  
عينها.

وأي شيكولاته! كان قد أحضرها لتوه من فيينا، قالت  
البارونة، من محل الحلويات الشهير «بانيل»!  
ومعها قصيدة أيضاً، قالت برتا، التي كان عليها هي  
الأخرى أن تدلي بدلوها.  
آه، قال، قصيدة.

ما زالت تحفظها، قالت السيدة لِفِتسو.  
وقبل أن يقول غوته: تفضلي، اقريئها علي، راحت برتا  
تتلو بطريقة فنية ما سمته قصيدة:

استمتع بها على طريقتك،  
إن لم تكن شراباً، فلتكن طعاماً محبباً.

ما زلت أود أن أعرف لماذا توجد هنا أحجار غرانيت  
تخترقها عروق صفراء مختلطة بحمرة، قالت أماليا حتى تُنبه  
الجميع إلى اهتمامها بالأحجار.  
برافو، قال غوته، برافو.

تدخلُ الغراف في الحديث. إنه يريد أن يرتب بعض  
الشيء ما تحدث عنه من قبل مع غوته عن البركانية والنبوتية.  
لوح للجميع وأحنى قامته، ثم انصرف.  
ظل غوته يلاحقه ببصره. ثلاثة باحثين مثله وسأبدأ في  
امتداح الرب الحبيب.

ما معنى «البركانية»؟ صاحت أماليا بسرعة، موجهة نظرها  
لا إلى الذي وجهت إليه السؤال، بل إلى أختها برتا التي سبقتها  
أماليا في الكلام.

إذاً، أسأل أنا ما هي «النبوتية»، صاحت برتا التي كانت  
تريد التفوق في كل شيء على أختها الأكبر منها بستين.

وأنا، أجاب غوته، أقول لكم جميعاً، إن العلماء يختلفون  
فيما إذا كان سطح الأرض، كما نعرفه اليوم، تكون عبر النيران  
التي تراجعت إلى الأعماق، والتي لا تزال تلفت الأنظار إلى  
وجودها عبر البراكين، أم أنه تكون عبر المياه التي تراجعت  
شيئاً فشيئاً مما أدى إلى نشأة البحار.

وأنتم، سألت أولريكه، ماذا تعتقدون؟

أنا أعتقد أن علينا ألا نحسم في أمر لا نستطيع اليوم حسمه إلا من خلال الظن. ولكن لأن الإنسان ينجذب رغماً عنه إلى طرف دون الآخر، فإنني أعتزف أنني أتردد في تبني النظرية النبتونية.

الإجابة لا ترضيني، قالت أولريكه بحدة كبيرة موجهة كلامها إلى غوته. مرة أخرى مع هذه النظرة.

تساءل غوته، هل عليه أن يقول أكثر مما يعرف؟

لأننا نتحدث عن العلوم الطبيعية وليس عن الشعر، قالت أولريكه، فمن حق المرء أن يتوقع إجابة قاطعة حاسمة.

أوه، قال غوته، أولريكه لا تطلب أقل من نقد العقل الخالص!

الأم: لكم أن تعرفوا أنها تُدعى الآن في ستراسبورغ كونتريس أولريكه، أي المُعارضة.

كانت هذه فرصة لأماليا كي تبرهن على أنها تفهم الآن كل ما يقال: «كونتريس» و«كونتر» - كل شيء باللغة الفرنسية في هذه المدرسة.

قال غوته إنه لا بد من أن يهنتها لأنها تذهب إلى مدرسة قادرة على مثل هذه الاكتشافات، ثم اعترف بأن وجوده في محيط العائلة وتبادل الحديث معهم يجعله سعيداً للغاية. هذا شيء مستبعد في فايمر حيث يتوقع الجميع منه قول أشياء مهمة.

سيادة المستشار يتحمل بعض المسؤولية في ذلك، قالت أولريكه .

أعترف بذلك، كونتريس، قال غوته . حياتي هناك مسرح أكثر منها حياة .

وهنا؟ تساءلت أولريكه .

هنا، قال، ثم توقف عن الكلام وتطلع إلى أولريكه التي تطلعت إليه، ثم قالت :

نعم، هنا؟!!

هنا، قال، ألاحظ مرة أخرى أنني عانيت طيلة شتاءين في فايمر من أنني لا أعرف إلا القليل عن آل ليفتسو .

وهم قبل عامين، قالت أماليا المستعدة دوماً للكلام، كانوا يعرفون عنكم أقل من ذلك بكثير . لا نريد أن ننسى أن أختنا الكبيرة، التي بلغت السبعة عشر ربيعاً على كل حال، اعترفت في السنة الأولى أنها لم تقرأ سطرًا لغوته . ولكنها قرأت - يا للهول - أعمالاً عديدة لشيلر .

في المدرسة الداخلية في ستراسبورغ، قالت أولريكه، فرضوا عليّ في اللغة الألمانية شيلر، المواطن الفخري للثورة الفرنسية .

غوته : إنني أسمح لنفسني بأن أذكرن بأنني لا أصلح نموذجاً للشباب مثل شيلر أو غيلبرت أو هاغدون أو غسنر .

أولريكه : والفرنسيون، هكذا قلت، ينجذبون إلى ما هو جميل ومختصر أكثر مما ينجذبون إلى ما هو طبيعي وحقيقي .

نعم، قال غوته، ولذلك فإن سليمان غسنر يتمتع هناك بشهرة أكبر من شهرته هنا، إنه يتناسب معهم هناك. وفولتير أيضاً، قالت أولريكة.

فولتير لم يترجمه شيلر، بل أنا، قال غوته.

نعم، أنتم ترجمتم عمليين له، «زائير» و«محمد».

ليست بالمسرحيات الرائعة، قال غوته.

منذ أن بدأت أقرأ كتباً لكم، قالت أولريكة، يعذبني أنني لا أعرف أبداً من أنتم. دائماً هذا التليفيق السامي. الأحاديث والأفكار والمشاعر هناك رائعة، ولكن من هو؟ تريد أن تعرف ذلك أخيراً. هذا هو، بالمناسبة، التأثير الذي يشعر به قارئ أعماله. القارئ يشعر بفضول مضائق وذنبيء ينمو داخله، فضول التعرف إليه، على حقيقته. إن القارئ يصل إلى مدى معين يستشعر معه الرغبة في الإمساك به. نعم القارئ يريد ملامسته. ولكن من هو؟

والتر سكوت ممتاز في هذه الحالات، انفجرت برتا متحذثة.

صحيح، قالت أولريكة. القارئ لا يؤلمه ألا يتعرف إلى سكوت.

قالت برتا التي لم تعد على ما يبدو تعرف حول أي شيء يدور الحديث: عندما تمطر ثمانية في هذا الصيف، ستبدأ أمسيات القراءة. من أعمال سكوت. إنها تحمل معها «القرمز الأسود».

قالت الأم مضيئةً: برتا ما زالت تتمرن على ما قاله غوته العام الماضي بخصوص الإلقاء.

الآن تقول برتا لأختيها: لقد سماني مراهقة لطيفة، وقال إن عليّ أن أبدأ التلاوة بعمق بالغ، ثم أصعد بطبقة الصوت شيئاً فشيئاً.

كان هذا واضحاً اليوم، قال غوته.

على الفور رفعت برتا صوتها بالتلاوة وكررت: إن لم تكن شراباً، فلتكن طعاماً محبباً.

نعم، قال غوته، لا ينبغي أن ينحدر صوتك مع كلمة «محبباً»، لأنها تختتم الجملة، بل ينبغي أن يرتفع الصوت ويخرج مع هذه الكلمة. أما «طعاماً محبباً»، فيجب أن تخرج الكلمتان بالقوة نفسها، أعلى من كل كلمة أخرى.

سعادة المستشار لم يوجه لي سوى النقد، قالت أولريكه هادئة تماماً. لم تكن أبداً تتدخل فجأة في الكلام، غير أنها كانت تتحدث دوماً عندما تريد.

نعم، صاحت برتا، عليك أن تكتسبي قدراً أكبر من الحماسة والحيوية في التصوير.

لكنني لا أريد أن أصبح *Tieck*، قالت أولريكه.

أماليا: وما معنى هذه الكلمة؟

فردت أولريكه: فنانة إلقاء.

أمسكت أماليا بدفة الكلام مرة أخرى: فهمنا أن السيد المستشار ليس نموذجاً للشيبية.

غوته : الآن، أنا كلي ترقب لما ستقولين .

نعم، هذه لعبتكم، قالت أماليا، أن يقترح أحد موضوعاً، ويقوم آخر بصنع حكاية عنه، ولكن من حق كل الحاضرين أن يتدخلوا بكلمة لا بد من استخدامها في الحكاية . وما الكلمة التي ألقيتم بها لأولريكه كي تُدخلها في حكايتها؟ رباط الجورب، يا سعادة المستشار . احمرّ وجه أولريكه الصغيرة . . .

غير صحيح، لم يصل الأمر إلى هذا الحد، صاحت أولريكه، فبعد أن انزلت هذه الكلمة من فم السيد المستشار، أضاف على الفور: وسام رباط الجورب .  
هكذا، وكأنه لم يكن أبداً يعني شيئاً آخر، قالت أماليا، نحن الآن نعرف .

لم يوافق أنه يظهر في دائرة البنات الواعدات في مظهر بعيد كل البعد عن أن يكون قدوة ومثالاً، ولذلك قال غوته وكأنه يتحدث مع نفسه وليس مع الحاضرين، إنه لم يدخن أبداً، ولم يلعب الشطرنج البتة، وإنه يتجنب كل ما يسلب الإنسان وقته .

أولريكه : بدا هذا الكلام وكأنكم نادمون على الحياة المثالية التي عشتموها .

إذا كان المطاف قد انتهى به في حضن عائلة لِفْتسو الفردوسية، قال غوته، فلا يمكن أن يكون كل ما فعله في حياته خطأ .

هكذا سار الحديث .



في الحقيقة كان يبحث عن فرصة كي يقابل نظراتها، هذا هو كل شيء. كان يعرف ذلك. عندما قطع الشارع ليذهب إلى غرفته المتواضعة التي يحبها، ويقف عند النافذة مرسلًا النظر إلى الناحية الأخرى، إلى الفندق الاستشفائي كليلسبرغ الضخم بحق. راح يرسل النظر إلى نوافذ الطابق الثاني. خلفها كانت أولريكة الآن تقف وترقد وتقرأ وتفكر... كيف يمكن له أن يحيا مع هذه النظرة؟ ربما يكون السهم قد نفذ، ربما في العام الماضي. كان مريضاً في الشتاء المنصرم، مريضاً للغاية. كتب لها، وأجابت هي. كان هناك شيء ما. ولكن، ما هو هذا الشيء؟ هذا ما أدركه اليوم. لم يكن بمقدوره أن يُطلع أحداً على رسائلها. أما رسائله فقد أملاها على كاتبه يون، ولكن حتى منتصفها فحسب. في كل مرة تحتم عليه أن يضيف شيئاً لا يفصح عن أي محتوى، ولكنه يشي بما يخفيه عبر اللامحتوى. لم يكن مسموحاً للرسائل أبداً أن تكون موجهة إلى أولريكة وحدها، لا بد من أن تكون دوماً مكتوبة إلى الأم أيضاً. ومع ذلك، ومع ذلك كان هذا محتملاً. تلوح في الأفق مناوشة صيفية أخرى. ثم تلك النظرة التي غيرت كل شيء. كان لا بد من أن يتذكر زيزنهايم وفريدريكا ذات الحركات العذرية الخالصة. عينان تنمان عن حدة وقوة، ولكن كل شيء يتغير بسرعة دائمة، وكأن كل شعور يجب أن يخرج على الفور من العينين بمجرد ظهوره. فم فريدريكا لم يكن يعرف عما يفعله إلا القليل، حتى أنك من تلقاء نفسك تستكمل جهلها وفضولها بجهلك أنت وفضولك. وشارلوتة بوف، العاطفية الكبيرة، التي

تلخص الكون كله في تنهيدة، ومعها يفرق الكون. راح يصعد ما أيقظته في نفسه حتى وصل إلى الذروة. لوته حبيبة فرتتر. كانت محقة في شكواها بخصوص تصويره لها في روايته. لوته حبيبة فرتتر، إنه تماماً مثل فرتتر. ثم كريستيانه، المشاعر الكبيرة التي لم تكن أكبر من أي تأقلم. لم يكن هناك موقف لم تستطع التحكم فيه عبر الخضوع. ثم ماريانا التي أرادت أن تكون متقاربة مع كل التقارب، وهو ما نجحت فيه أيضاً ببذلها جهداً نفسياً هائلاً، أن تتحول وتتلون إلى درجة فقدان الذات. ولكنها فعلت ذلك كأنها في حفلة راقصة، للإبهار الثقافي فحسب؛ كي تكون نادرة رائعة يتندر بها تاريخ الأدب. والآن أولريكه. طيلة عامين وهذه الفتاة تسحره بطريقتها المؤثرة، ولسان حالها يقول: لم يكن هذا ما أقصد. حتى العام الماضي لم تكن سوى فتاة خاملة ناعمة، تتمتع برغبة حيوية في المشاركة، تسعى دوماً إلى عدم ارتكاب خطأ. أرض بكر لم تشرق عليها الشمس بعد. والآن، أشرقت الشمس، والحياة تدب في الأرض. نظرتها الآن. لا تقاوم. أنت لا تعرف ماذا ينبغي عليك مقاومته؟ أنت سجين. سجين هذه النظرة.

ما زال عليه الذهاب إلى المكتب. أولريكه، «الكونتريس». أولريكه شخصية روائية، يجب أن تكون إحدى شخصيات طبعة جديدة من رواية «سنوات التجول»، طبعة كان لا بد من أن تصدر من وقت طويل. هرسيلي، هذه هي الشخصية التي سيثريها بملامح من «الكونتريس». ولكن حذار من النطق بكلمة عن ذلك أمام أولريكه. حتى وإن كنت ترغب

في الثرثرة أمامها بأنك ستدخلها في روايتك، تحكم في نفسك!  
على المرء ألا يقول للنبع إنه نبع. سيفقد عندئذ صفاءه.

لم يستطع الذهاب إلى الفراش. إياك أن تدخل الآن في  
تلك الحالة من فقدان الذات التي تُدعى النوم. إذا كان لديه أمل  
في أن تزوره في الحلم، فمرحّباً بالنوم. ولكن هكذا! يقظة لا  
ينقطع خلالها عن التفكير فيها وعن تخيلها أمامه. الغوص في  
حالة من النوم لن تظهر هي أثناءها؟ ليس بعد.

قطع الغرفة جيئة وذهاباً. الوقوف أمام كل نافذة. إرسال  
النظر. خلف أي نافذة تنام؟ في العام المنصرم سكن هو أيضاً  
في بيت كليبلبرغ الذي يطلق عليه اسم قصر وفندق في الآن  
نفسه. بغض النظر عن كون الأرملة الشابة لِفِتسو رفيقة الغراف  
كليبلبرغ، فإن جد أولريكه، بروسيكه، لديه الحق في السكنى  
في القصر هو وسلالته مدى الحياة. في هذا العام أراد الدوق  
الأكبر كارل أوغست أن يأتي إلى مارينباد للاستشفاء، ولأن  
الصداقة كانت تربطه منذ وقت طويل مع آل بروسيكه  
وكليبلبرغ ولِفِتسو، كان لا بد من أن يسكن في منزلهم.  
وتحديداً في الطابق الأول، في جناح الأمراء الذي سكنه غوته  
في العام السابق. منذ خمسين عاماً وغوته يعمل لدى الأمير  
كارل أوغست، رئيس غوته وصديقه. كان بمقدور غوته أن  
يسكن مرة أخرى في قصر كليبلبرغ، غير أنه فضل السكنى في  
مبنى «العنقود الذهبي» مقابل القصر. وبعد أن حدث ما حدث،  
لا بد من أن يشعر بالتعجب من غريزته الحكيمة التي قادتته إلى  
المنزل المقابل. إنه الآن معها تحت سقف واحد، وإن كان

مفصلاً عنها عبر الطوابق والجدران. كان عليه أن يخترع صوتاً ما يصل إلى أسماعها حتى يخبرها أنه هنا وأنه لا يستطيع التنفس إذا لم تكن تعرف وتشعر وتسمع بوجوده. وأنه موجود لها فحسب. وجهها صغير. غير أن لها أنفاً لا يستطيع الإنسان وصفه بالصغر. وعينان مثل نواة برقوق، يتغير لونهما. ولكنهما يلمعان دوماً. هذا ما يتذكره منذ العام الماضي: هذان العينان اللتان لا تتعبان ولا تكلان أبداً، البراقتان باللون الأزرق والأخضر. لكن لونهما ليس في معظم الأحيان أزرق أو أخضر، بل أخضر مختلط بالزرقة. عليه الالتفات إلى فمها. شفتان غير مكتنزتين، الشفة العليا الممتلئة تناسب في انسجام تام، وتستند إلى الشفة السفلى المتواضعة. يكاد يكون وحيداً بعض الشيء، هذا الفم في النصف الأسفل من الوجه. الأنف مستقل بنفسه أيضاً. إنه مكسور على نحو يحده المرء أكثر مما يراه. ببساطة، لا يريد أن يسير مستقيماً، بملل ودون إثارة. مَنْ لا يدقق النظر، يعتقد بأنه ينتهي حاداً. لكنه في الحقيقة ينتهي بأرنية مستديرة. الأنف ينتهي كما يجب على أنف أن ينتهي فوق فم فريد الجمال: يقود إليه، دون الاقتراب منه أكثر من اللازم. يتسم هذا الوجه بتواضع عظيم. التواضع يشمل أولريكة كلها. الآن يشعر بالندم لأنه لم يرسم سوى مناظر طبيعية، ولم يرسم أبداً أشخاصاً. غير أن وجه أولريكة هو أول وجه يود رسمه من بين كل الوجوه التي قابلها في حياته. منظر طبيعي يغمره الضوء. لو لم يكن رساماً، لو كان فناً تشكيمياً، لقال: منظر طبيعي مغمور بالضوء اللأرضي

الساطع . هذا الضوء لا يمكن رسمه ، لكن الفنان التشكيلي قد  
يمسك به في لوحة .

عليه الذهاب إلى المرأة الكبيرة في غرفة تبديل الملابس .  
على جانبي المرأة مصابيح . كان صاحب «العنقود الذهبي»  
معروفاً في المنطقة بأنه مجنون بالضوء . لم يكن يفوته معرض  
إذا راوده الأمل بالعثور على نوع جديد من المصابيح . هذا  
الخبر جعل المستشار يختار هذا الفندق بارتياح . شبك ذراعيه  
خلف ظهره ، فبدأ مظهره ضخماً كالمعتاد . ذهب إلى غرفة  
المكتب حتى يحضر من أحد الأدراج مجلة فييناوية ، أرسلها له  
السيد براون فون براونتال ، لأنه - الشاعر البالغ من العمر  
واحداً وعشرين عاماً - يصف زيارة قام بها لغوته في فايمر .  
كان غوته يضحك في كل مرة يقرأ فيها المقطع ، وهو لم يكن  
يقرأ في المقالة إلا هذا المقطع الذي يصف فيه الكاتب ظهور  
غوته :

لم يكن في تلك اللحظة مجرد قشرة مبتذلة لإنسان  
متحضر . ظهر غوته أمامي . وقف ثانية كاملة عند الباب مثبتاً  
عينيه عليّ ، وكأنه بالفعل تمثال للإله زيوس مصنوع من رخام  
جزيرة باروس اليونانية . يا له من رأس ! يا لها من قامة ! يا لها  
من وقفة ! جمال ، نبل ، سمو ! شيخ أتمّ الثالثة والسبعين ، الشعر  
المتموج المنساب على القفا القوي أبيض كتلج ندْف حديثاً ،  
الملامح النبيلة ما زالت متماسكة ، العضلات مشدودة ، الجبهة  
العالية المقوسة ملساء ونقية وكأنها من حجر الألبستر . ما زالت

الشفقتان تعبران عن ثقة بالنفس ومهابة ووداعة في الوقت نفسه .  
الصدغ القوي لم يتهدل بعد . وأخيراً هاتان العينان ، هاتان  
البحيرتان الجبليتان المننمتان بزرقتهما الصافية التي تعكس  
السماء في روعة! من بين كل الصور التي شاهدتها له حتى  
الآن ، لم أجد واحدة تتطابق مع هذا الشخص المثير للإعجاب  
والذي يجمع بين العظمة والجمال والقوة . قد يستطيع الفنان ،  
بعد بذل قصارى الجهد ، أن يبدع تمثالاً يجمع بين هذه  
الملامح ، ولكنه لن يقدر أبداً على منح هذا اللون تماماً ، كما  
أن الفنان سيعجز عن رسم صورة لجبل «مونت روزا» أو جبل  
«مون بلان» وهو يسطع بجلال تحت أشعة الشمس الغاربة .  
هكذا ظهر غوته ، فبايَعته روعي . كم اعتبرت نفسي سعيداً  
لأنني لم أصبح مهماً ، ولأنني ما زلت في البداية ، لأنني كنت  
أعرف أنه يمنع الرجال الذين يتكلمون كثيراً من الدخول إليه ،  
الرجال الذين تبلورت شخصيتهم على نحو نهائي . معطفه  
الصباحي جعلني أعتقد بأنه قد استثناني من ذلك ، أو أنه رفع  
التكليف بيننا . ثبت نظره علي كما ثبت الكوبرا نظرها على  
غزال . لكنه لم يلتهمني ، بل سار ببطء إلى الديوان ، ديوان  
الشرق والغرب ، داعياً إياي بإشارة لطيفة من يده أن أتبعه ، ثم  
- يا لغبطتي - استراح إلى جانبي . شرع يتحدث معي بجدية  
رقيقة ، عندها سَرَت في كل أوصالي صدمة كهربائية منعشة  
ومزلزلة لأن شيخ الشعراء الرائع أمسك برقة يدي التي كانت  
ترتعث من التبجيل والإعجاب ، ثم احتضنها بكفيه . وفي تلك  
الأناء راح يتحدث مثبتاً نظره علي وقال . . .

أعاد المجلة إلى الدرج بمشاعر متناقضة، ثم سار إلى المرأة ثانيةً وابتسم قليلاً، فرأى الثغرة التي تركتها إحدى أسنانه الأمامية. منذ ثلاث عشرة سنة. لم يعتد ذلك حتى اليوم. غير أنه عوّد منطقة الفم على نظام قاس حتى لا تظهر الثغرة في حضور أحد. هذا ما كان يأمله. كلف أوتيليا، زوجة ابنه، أن تراقب ذلك وأن تخبره بمجرد ظهور الثغرة بسبب انفعال ما. كان يرى أن أوتيليا تقوم بإخباره مستمتعةً بذلك استمتاعاً صارخاً. لم يخف الثغرة عن نفسه. عندما يكون بمفرده. الآن مثلاً. أولريكه جعلته يظهر الثغرة. وكأنه كان يعرف أو يتخوف مسبقاً مما حدث الآن، إذ إنه كتب في مطلع حياته، قبل خمسين عاماً، إن من المهين أشد الإهانة أن يغازل رجل عشيقته الشابة بمثل هذه الثغرة.

سار إلى غرفة النوم، استلقى بملابسه فوق الفراش، وراح يبحث عن جملة قالتها شخصية من شخصيات كتبه، جملة تعبر عن المشاعر التي تجتاحه الآن. ووجد هذه الجملة. استدعاها بسرعة نسبية من ذاكرته. كان فيلهلم لا يزال شاباً عندما قال لنفسه: كل شيء إذاً عَدَم.

إذا تزوجها، هو في الرابعة والسبعين، وهي في التاسعة عشرة، فستكون بسنواتها التسع عشرة زوجة الأب بالنسبة لابنه أوغست، 34، أما بالنسبة إلى زوجة ابنه أوتيليا، 27، فستكون أولريكه زوجة حميها. وجد نفسه مشغولاً بتلك الحسابات عندما جلس أمام مائدة الإفطار التي كان شتادلمان يضع عليها كل صباح كل ما تشتهي النفس مما أحضره من منزل تراتور، موزد الطعام.

كان قد درّب شتادلمان في العام الماضي والعام قبل الماضي ليصبح خبيراً بالأحجار. اليوم أرسله إلى جبل «فولفسبرغ»، حتى يقطع له صخرة من الأوغيت. سيسعد أيضاً إذا أحضر له قطعة من الكريستال الشبيهة بالمعدن، أضاف غوته قبل أن ينصرف. قال للكاتب يون إنه لن يملي عليه اليوم شيئاً قبل الحادية عشرة، إذ إن الدكتور ريباين أبلغه بقدمه. الدكتور ريباين طبيب البلاط الأميري في فايمر وطبيب غوته أيضاً. قضى ساعات طويلة على فراش كريستيانه قبل موتها! لم تكن قد مضت سنة على وفاة الزوجة الثالثة للدكتور ريباين. ربما



كان د. ريباين هو الرجل الذي يتمتع بأكبر قدر من حب الناس في فايَمر.

عندما ظهر غوته في الغرفة التي كان يستقبل فيها الضيوف، اندفع ناحيته الدكتور ريباين - الذي كان يجلس هناك بانتظاره - اندفاعاً عاصفاً. لم يكد غوته يعلن مفتخراً أنه يشعر بأنه يتمتع هنا بصحة جيدة وأنه تحرر تماماً من الصعوبات في التنفس التي عذبتة طيلة الشتاء الماضي، حتى كان ريباين قد فاض في الكلام كبئر فوار. يريد أن يخطب. لا بد. إذا لم يخطب كاتارينا فوراً، فسيفقدتها، نعم كاتي فون غرافنيغ، الأصغر منه بثلاثين عاماً. لقد تحتم عليه أن يسافر قبل الدوق، ولذلك ليس أمامه الآن إلا أن يحتفل بالخطوبة هنا في مارينباد. ولكنه لا يستطيع التفكير في ذلك دون مشاركة السيد المستشار. إنه يعتذر عن هذا التعجل السمج. ولكنها كاتي وأنتم لا ريب تفهمون ذلك. لا يستطيع أن يُمثل أمام سمو الأمير دور طبيب المنتجع، هذا شيء غير لائق، إذاً، إنه الآن مجرد ضيف من ضيوف المنتجع وأحد أفراد حاشية سمو الأمير... إلى آخره - ولكن التنزه هنا طيلة أسابيع، في حين تقطع كاتي ميونيخ طويلاً وعرضاً، هذا شيء غير صحي، لا بد إذاً من أن تأتي، ولا بد إذاً من أن تتم الخطوبة. ولكن ما زال عليه الاعتراف بالألم الذي اعتصره عندما قرأ - وهو البالغ خمسين عاماً - أن الجراح هو أكثر الرجال وقاراً على سطح البسيطة.

أكمل غوته قائلاً: إن ذلك يحرك من شر حقيقي. ثم غانق الدكتور ريباين برقة، وأسر له تقريباً في أذنه أن شهرة

الجراح ضرورية في أحداث رواية «سنوات التجول»، ومن شخصياتها الأساسية الرجل ذو الخمسين عاماً. هذه الرواية، رغم أنها نُشرت قبل عامين، فإنها لم تكتمل على الإطلاق. كل يوم تلح عليه عبارات وشخصيات تريد الانضمام إلى الرواية. وفيلهم، بطل سنوات التجول، سيصبح، بعد أن يكون قد درس كل ما يُعرض عليه وبعد أن يكون قد جرب كل شيء في هذا العالم، طبيباً مداوياً للجروح، أي جراحاً. ولماذا؟ لأن المؤلف أراد أن يختار لهذا الرجل الذي وصف حياته بكل دقائقها، أن يختار لفيلهم مهنةً تناسب جسده وروحه، مهنة يستطيع عبرها أن يساعد الناس بكل طاقته. الفائدة، سيدي الدكتور. من المفيد إلى الحق وصولاً إلى الجمال. هذا ما نريد جميعاً الوصول إليه، سيدي الدكتور. كان يستطيع أن يضيف على نحو مقنع: وهو - الدكتور ريباين - نموذج لذلك. إن رجلاً مثله، وفي الخمسين أيضاً، يتميز بهذا الجمال، لم يفقد شيئاً، ولم يرتكب خطأ. أعقبت ذلك مصافحة طويلة.

انصرف الدكتور ومعه موافقة المستشار الأكيدة بالمشاركة في حفل الخطوبة. جلس غوته، وراح يفكر: أصغر بثلاثين عاماً. لم يكن ما يشعر به هو الحسد. لقد أحس بأن هذه الزيارة تؤكد أفكاره. آه، بالحسد شعر أيضاً. ما الحسد، إن لم يكن شكلاً من أشكال الإعجاب، غير أن مصيره المحتوم هو التعاسة. فليخطب الآن كل الرجال الخمسينيين فتيات في العشرين! وليتفشّ في الأرض وباء الخطوبة! لا شيء إلا لكي

لا يجد نفسه وحيداً في موقف عبثي مع هذا الرقم الهائل: 74  
ناقص 19 يساوي 55.

أنعشته زيارة الدكتور ريباين، وهو ما لاحظته عندما وقف  
عند الباب، بنبرة حرص على أن تكون عرضية تماماً، وطلب  
من الطبيب الذي سيعبر بعد لحظات الشارع ويتوجه إلى قصر  
كليلسبرغ أن يوجه تحياته إلى كل أفراد آل ليفتسو، وخاصة إلى  
أولريكه، وأن يخبرها أن رغبتها التي عبرت عنها بالأمس يُمكن  
أن تُلبى قبل ظهر اليوم. في كل وقت. لاحظ أن الدكتور  
ريبان لم يفهم قصده، أي أنه لم يعرف ماذا يتوجب عليه  
كرسول أن يقول هناك، لذلك أضاف بنبرة بالغ في أن تبرز  
تفاهة ما يقول: على المرء أن يثقف الأطفال إذا طلبوا ذلك.  
ثم راح يراقب، وهو ممسك بالستارة، الدكتور ريبان وهو يعبر  
الشارع ويختفي في قصر كليلسبرغ.

تم إخبار الكاتب يون أن عليه ألا يحضر البريد إلى غرفة  
المكتب إلا بعد حضور الأنسة ليفتسو وبعد أن تجلس هناك.  
ربما تكون أولريكه نسيت أنها قالت بالأمس: ولكن، من هو؟  
إذا كانت قد نسيت ذلك، فكل شيء ليس إلا كلاماً لا طائل من  
ورائه، وهو ليس إلا واهماً. ليس بركانياً ولا نبتونياً، بل  
واهماً. ربما ليس لنظرتها وجود، ربما تكون بسنواتها التسع  
عشرة أكثر أفراد هذه العائلة هدوءاً وحسماً وثباتاً.

تحتم عليه أن يصرخ صرخة قصيرة. أن ينحني أمام ما قاله  
أثناء مناجاته لذاته. ثم مرة أخرى هذه الصرخة القصيرة. ولأن  
من عاداته ألا يجعل ما يمر به، يمر هكذا ببساطة، بل أن يُدخله

إلى وعيه، واصل مناجاته لنفسه: عندما أصرخ، صرخات قصيرة غير عالية، فإن هذه الصرخات لا يسمعا سواي. إنني بالفعل لا أريد أن يسمع أحد سواي أنني أصرخ. وعموماً: لم يتحتم عليه الصراخ بعد. الجلوس فحسب، والانتظار. إذا لم تأت، سيظل جالساً هنا ولن يتحرك أبداً. إنسان تجمد أثناء الانتظار. تعجب من أن الألم الذي يسببه الانتظار لم يدفعه للقيام بأي حركة أو التخفيف عن نفسه بالمشي ذهاباً وإياباً. أراد أن يستعرض ذلك في وعيه. هذا هو حاله: إما أولريكه وإلا فلا. إنه هنا الآن، هو الذي لا يعرف كيف سيأخذ شهيقاً بدون أن تسمح له أولريكه، إنه هو الذي قال العام الماضي في تلك الدائرة العائلية إنه لو كان لديه ابن آخر، لزوجه أولريكه. هو شخصياً يريد تثقيف أولريكه على النحو الذي يجعلها ملائمة لابنه تماماً. لم يعد يعرف ذلك الذي قال هذه الكلمات الأبوية الكاذبة. كاذبة كانت هذه الكلمات آنذاك أيضاً. ليست كاذبة أخلاقياً. إنها تنم عن حالة ضعف. جبن يمنع الإنسان عن الحياة. لن يمكنه بعد اليوم أن ينطق بكلمات كهذه. غير أن أولريكه لم تكن آنذاك قد أصبحت أولريكه بعد. كانت جمالاً عذرياً نائماً، أما الآن... ولكنها ما زالت لا تتزين. الرقبة عارية. شحمتا الأذنين. هل كانت ترتدي حُلِيّاً في الصيف الماضي أو قبل الماضي؟ ربما لأن الطقس كان سيئاً جداً. ولكن الآن، في هذا الصيف البهي! هل تريد أن تتمايز عن كل النساء المثقلات بالحلي؟

ها هي قد أتت. فستان ذو خضرة تكاد تكون باهتة، يرسم

عودها بدقة تامة عبر أزواره الكثيرة الصغيرة. حواف فتحة الصدر المستديرة مدبية. شعرها ينساب دوماً بحرية أكبر قليلاً من شعر النساء الأخريات. استطاع النهوض بلا مشقة. توجهت إليه بالتحية. بروح تغلب عليها المرح. حالته النفسية تختلف. لا يستطيع على أية حال أن يساير هذه النبوة. عندما جلست فوق الأريكة، في الزاوية، وفردت ذراعها على الوسادة الكبيرة الصفراء، استطاع أن يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً، ويتحدث كأنه في حضور عدة أشخاص. وفي الحال جاء الكاتب يون، وقدم له الصينية التي تكدّس البريد فوقها.

آه، البريد، قال غوته. لا، يا عزيزي يون، المرء لا يقرأ رسائل مملة في حضرة ضيفة كهذه. ولكن، فلتبق، أريد أن أعرض على ضيفتي كيف تسير الأمور هنا. آه، لحظة واحدة، هنا رسالة مستعجلة. أترين، قال لأولريكه، هكذا يسير التعاون بيننا، يون الطيب يضع الرسالة التي لا تحتل تأجيلاً فوق بقية البريد. هذا أمر عاجل، لأن سمو الأمير سوف يغادر فايمر في غضون سبعة أيام، إذًا، لا بد من خروج هذا المکتوب اليوم. من فضلك يا يون. ثم توجه بالسؤال إلى أولريكه: هل تسمحين؟

فردت: لا بد.

ومشى أمام أولريكه جيئةً وذهاباً مُملياً التالي: أخبر سمو الأمير الموقع أدناه أنه ينوي إدخال البهجة والسرور إلى نفس السيد لينتس، مستشار شؤون الجبال، خلال حفل اليوبيل المرتقب، والإنعام عليه ببعض الهدايا الأميرية، وأن علينا

تحديد العطايا بصورة مؤقتة. وسوف يقام الاحتفال خلال مآدبة تُقام على شرفه. والآن فإنني أقترح التالي دون استباق: في الجزء الرئيس من الحفل سنصور بركان الفيزوف وهو يقذف حممه، وتحت البركان تُوضع الميدالية الممنوحة للمُحتفى به.

ثم قطع إملاءه وسأل أولريكه: هل تفهمين؟

أرادت أولريكه أن تعرف معنى الاقتراح دون استباق.

هذه صياغة مهذبة تعني عدم تحديد شيء مسبقاً.

وما معنى ذلك؟ تساءلت أولريكه.

ينبغي على اقتراحي أن يكون اقتراحاً فحسب، القرار يرجع إلى الدوق الكبير. أتفهمين؟ السيد لينتس، مستشار شؤون الجبال، من أكثر أتباع النبتونية تحمساً، وفي احتفال اليوبيل المقام من أجله ستُقدم له كعكة بركانية في ختام الوليمة، وفي قاعها سيجد الميدالية الممنوحة له. ولكن على الدوق الكبير أن يأخذ اقتراحي في الاعتبار عند اتخاذ القرار.

أولريكه: ولكن دون استباق.

غوته: بالضبط.

أولريكه: كلمة رائعة. سأطلب من الوالدة اليوم ألا ترتدي فستانها الأزرق الفاقع مرة أخرى، اقتراحي، دون استباق، هو: البيج الفاتح.

غوته: وستطبعك.

أولريكه: أي أن «دون استباق» نوع من الأمر.

غوته: أكثر الطرق تهديباً لتمي شيء بصورة ملحة.

أولريكه: والأهم من ذلك أنه مجاملة، الشخص الآخر يشعر أنه مشارك في القرار، وأني أثق في قدرته على فهمي كل الفهم. هذا شيء يداعب غروره. إن سعادة المستشار بارع وحاذق.

يون، يكفي اليوم.

انصرف يون. جلس غوته على الأريكة بجوارها، ثم قال إنه يود أن يطلق على كل ما يقوله لها صفة عدم الاستباق. هذا سيشجعه على أن يبوح بأكثر مما هو مسموح له. هل تسمحين لي بأن أرفعك لحظة - دون استباق - إلى مصاف سمو الأمير؟ لقد نشأت في مدرسة داخلية بعد الثورة، قالت أولريكه، سمو الأمير متشوق لسماحك.

هَبَّ غوته ناهضاً، ثم قطع الغرفة جيئةً وذهاباً ملقياً كلامه بنبرة المحاضر: ما زال هناك طلب يفرضه عليّ الوفاء لكم. هل تسعدونني يا سمو الأمير برحمتكم الدائمة وتتعطفون عليّ وتمنحونني فرصة في أقرب وقت لكي أطلعكم على جميع الأخبار المختلفة.

وقف أمامها. كان يود لو ركع، غير أنه كان يعلم أنه قد يعجز عن الوقوف. مدت له يدها كي يطبع قبلة. أمسك بيدها وقتاً أطول من اللائق، غير أنه لم يمس ظهر يدها بشفتيه إلا مساً عابراً. كاد ألا يكون لمسها.

نهضت أولريكه. سعادة المستشار، قالت، كم من الأشياء تلتفها الثورة.

فرد عليها بالنبرة المعتادة: دون استباق على الإطلاق أود  
أن أقول إنني لا أريد أن أقضي وقتي إلا معك .  
وأنا، قالت أولريكه، لا أعرف سبباً يدعوني إلى  
الاعتراض .

طريقتك في الكلام معي، قال غوته، توقظ شيئاً في  
أعماقي . لا أستطيع، ولا أريد أن أطلق على هذا الشيء اسماً  
فور شعوري به . ولكنه منعش .

عليها أن تعود، قالت، كي تقترح على الأم اقتراحاً دون  
استباق .

اذهبي! كل ثانية بحضورك . . . هي . . . ثورة . إنني  
خائف .

تطلعت إليه، ولم تنطق بكلمة .

لون عينيك الآن أخضر، قال غوته . أخضر صاف .

لا أعتقد بأن الخوف سيئ، قالت بنبرة عالية، عادية،  
تافهة .

هو: من الجميل أن يكون لديك إنسان يشعر بالخوف  
نفسه الذي تشعرين به . سيكون ذلك قريباً، بل القرب نفسه .

أوه، صاحت، هذه جملة أخرى من جمل سعادتك . أن  
يكون لديك إنسان يشعر بالخوف نفسه الذي تشعر به . سعادة  
المستشار، هل تسمحون لي بأن أبوح بما أفكر فيه؟

رد غوته: من لا يقول لي بم يفكر، فإنه يهينني .

جملة أخرى من جمل سعادتك! أشعر دوماً بأن هذه



الجمال نهائية. لا يمكن إطلاق التأمّلات بشأنها، أو من غير الضروري فعل ذلك. إنني أعتبر حصّة الفيزياء وحصّة الكيمياء أكثر الحصص إثارة، لأن أشياء تحدث فيهما. أشياء تتولد. تتبلور. عبر نظام تجريبي. إذا قمنا، أنتم وأنا فحسب، بإجراء التجارب باستخدام جُمل سعادتكم، أو عموماً عبر الجمال التي تبدو صالحة للاستخدام في كل موقف، فهل سيكون ذلك ممنوعاً أم مثيراً؟

وهو: كلما زاد المنع، زادت الإثارة.

جملة سيادية أخرى، قالت أولريكة، ثم ضحكت بهجة كبيرة، وأضافت: قبل أن تُصدروا مراسيم أخرى - ربما أثر عليكم العمل فترة طويلة وزيراً للدولة - فإني الآن أقول: إن كل هذه الجمال تظل صحيحة أيضاً إذا قلبناها.

لم يكن غوته أقل بهجة لأن جملة أولريكة تفوق تماماً عباراته بالنظر إلى حتميتها.

ولكن، قالت أولريكة، سأتي فوراً بالدليل على أن العكس يبدو صحيحاً أيضاً. أنا لا أقول: صحيح، بل يبدو صحيحاً.

قال: تفضلي!

هي: من الجميل أن يكون لديك إنسان لا يشعر بالخوف نفسه الذي تعانیه.

هو: أكملني!

هي: مَنْ يقل لي بم يفكر، فإنه يهينني. من فضلك، سعادة المستشار، لا تفحصوا الآن ما إذا كان هذا يتطابق مع

خبراتكم أم لا . المهم هو : هل تبدو الجملة صحيحة كعكسها؟  
أولريكة، ردّ غوته، إنك تمثلين خطراً عليّ كما لم أكن  
أتمنى أبداً . من فضلك، لا تقلبي هذه الجملة . كفى اليوم .

أتشعرون الآن بالحنق، سعادة المستشار؟

أولريكة، في هذه اللحظة من الممكن أن أعتبر حياتي  
ضائعة لأنك لم تكوني معي .

قالت أولريكة : كلمات سعادتكم - بدون أن تكون  
صحيحة بالضرورة - تُدفع القلب .

تذكر غوته أنه أحضر قبل عامين رواية «سنوات التجول»  
الصادرة حديثاً إلى مارينباد، وكتب لها، تذكراً لطيفاً لأغسطس  
1821 . كانا يتقابلان هنا في العام الماضي، وهذا العام مجدداً .  
لم تذكر الكتاب ولو مرة . إنه يعرف ما يعني ذلك، ولكنه لا  
يريد أن ينطق به . إلا أن أعماقه تنطق بكل حرف مما حدث .  
لا تستطيع أولريكة قراءة «سنوات التجول» . وإذا لم تكن  
أولريكة تستطيع قراءته، فلا يمكن قراءته على الإطلاق . ينبغي  
أن يفكر في ذلك .

تقول أولريكة : عليها شيء لا يمكن تأجيله . هي إحدى  
قاراته، وهي تعلم أنه لا يدع بعض المواقف تمر دون أن  
يستغلها تربوياً . لذلك تريد الآن أن تقلده وتعرض عليه على  
سبيل الفكاهة شيئاً تعليمياً .

أعطاها بيده إشارة داعية .

بالأمس، قالت، ارتكبت أختها المرححة دوماً، أماليا، خطأ

عندما سألته عما إذا كان فستانها يعجبه .

نعم، قال غوته، وأجبتُ قائلاً: جميل جداً.

أولريكه: ولكن سعادتكم أضاف أن فستان أولريكه

أجمل .

غوته: عندئذ قالت الأخت، لم يكن عليّ أن أطرح

السؤال من أساسه، كل شيء على أولريكه يكون دائماً أجمل .

لم يكن هذا ضرورياً، قالت أولريكه .

لكنه حقيقي، قال غوته .

الحقيقي ليس عذراً لإحراج الآخرين .

جملة سيادية أخرى! صاح غوته .

قلت في البداية إنني أقلدكم . إذا انتقدتموني الآن، فإنكم

تنتقدون أنفسكم .

أعلنُ استسلامي، قال غوته .

قالت: من فضلكم، لا تنسوا أن أماليا في السادسة عشرة .

تقصدين أنها ما زالت صغيرة أم أصبحت بالغاً؟ سألها

غوته .

الاثنان معاً، ردت أولريكه .

هو: أولريكه، لا بد من أن أعرب عن إعجابي بك .

لا بد للمرء من أشياء عديدة، ردت، ولكن ذلك

يسعدني . بالطبع . جداً . مع السلامة . وانصرفت .

ملتصقاً بالستارة راح يتبعها ببصره وهي تعبر الطريق .

مشيتها، وكأنها تريد عند كل خطوة أن تسمو فوق الأرض .  
سارت وكأنها تسير إلى الأمام . ولكن دون أي عناء . كانت  
خفيفة خفة مدهشة . ولأنه لن يستطيع أن يبوح لها الآن ، بعد  
انصرافها ، بما يعتلج في صدره ، أخرج القصيدة التي كتبها لها  
قبل عدة أيام ، بعد أن فاتتهما فرصة اللقاء خلال التنزه . عندما  
أراد أن يعطيها لها ، قالت آنذاك إنها تريد أن تسمعها أولاً  
بإلقائه . هذا ما فعله .

تقضينَ أيامك عند النبع الساخن ،  
فتهيج مشاعري وتتخاصم أعماقي ،  
إني أحملك في قلبي ، ولا أفهم  
كيف تكونين ، مع ذلك ، في مكان آخر .

جميل ، قالت له .

هو : حقاً؟

هي : جميل أن يقول لك أحد هذا الكلام .

خاطبها في القصيدة بحميمية ، كما يخاطب الإنسان  
صديقه .

ثم قالت : لا بد من أن تفوتنا فرصة اللقاء كثيراً .

جلس الآن إلى المكتب وسجل : هي الأعذب بين أعذب  
الكائنات . أثلج صدره الشعور بأنه تفوق على نفسه مرة أخرى .

بدونها لم يعد يراه أحد. ولم يعد يراها أحد بدونه. هذا ما رآه الجميع، وكان غوته يرى أن الجميع يرونه. أولريكه في ذراعه. استمتع بالنظرات وبالرؤوس المحنية أثناء النميمة الهامسة. تعمد أن يكون في حديث دائم مع أولريكه. كان يقدم نفسه وأولريكه كشئائي في نقاش دائم، ثنائي في حماسة دائمة لشيء ما، ثنائي لديه كلام كثير يريد كل منهما أن يبوح به للآخر، أكثر من أي اثنين في العالم. كان لا بد من أن يكون واضحاً أن اثنين مثلهما، متعمقين في الحديث إلى هذا الحد، لا يمكن أن يسمحا لأحد بأن يتجرأ ويزعجهما. لا بد من أن يكون هذا واضحاً لمن يحمل في يده كأساً ويبحث أثناء التنزه عن شخص يثرثر معه. لم يكن على غوته أن يستعرض انغماسهما ورغبتهما في ألا يزعجهما أحد فحسب، بل كان عليه أن ينتبه إذا ظهر أحد المتنزهين المشهورين كيما يقدمه لأولريكه. يقدمه لها لا لشيء إلا لأنه ببساطة مشهور، مشهور شهرة بالغة، مشهور إلى درجة أن حديثه مع غوته سيرفع من قدره أمام أولريكه. في الصيف الماضي فعل ذلك مع الدوقة شتراخفيتس، كأنه يمارس لعبة، قال لها إنهما سيستغرقان في

حديث أخذ أسر، ولن يجروا أي متنزه على مضايقتهما. كان يلعب. الأمر الآن جد لا هزل فيه.

ولأنها - هي الطالبة في المدرسة الداخلية في ستراسبورغ - كانت مهتمة بكل ما هو فرنسي، وجد غوته الفرصة سانحة عندما لمح الغراف سان لوي. لويس بونابرت شقيق نابوليون، حكم في البداية ملكاً على هولندا، ثم دب الشقاق بينه وبين أخيه. كان الغراف سان لوي يكنّ لغوته المودة لأنه كان ينظم الأشعار وينتظر في كل صيف رأيه في قصائده الجديدة. استحسّن غوته القصائد، ولهذا سمح للغراف الآن بالاقتراب منه، وقال له كلمات لطيفة عن أشعاره، وطلب منه أن يأذن له بإطلاع الأنسة فون لفتسو عليها قريباً، فهي - الطالبة في المدرسة الداخلية في ستراسبورغ - تحب الأدب الفرنسي أكثر من الألماني. غير أن غوته كان حريصاً على ألا يبقى هؤلاء المقتحمون، الذين يسمح لهم بالاقتراب، وقتاً طويلاً. عندما سلمت على الغراف سان لوي مودعةً، قال لأولريكه إن كاتبه يون مشغول حالياً بإعداد قائمة للغراف بكل أعمال غوته منذ عام 1769، وسوف يكلف أحداً بترجمتها، وهو يرحب جداً برأيها في هذا الأمر. بالطبع كانت أولريكه تهتم بنابوليون أكثر من اهتمامها بالملك السابق لهولندا الناظم للقصائد. كان غوته يستطيع أن يسدي إليها هذه الخدمة. في يوم معركة الشعوب في لايبزغ<sup>(1)</sup> انفكت صورة نابوليون الجبسية من المسمار

---

(1) معركة الأمم في لايبزغ (من السادس عشر حتى التاسع عشر من أكتوبر/ تشرين الأول 1813) كانت المعركة التحريرية الحاسمة التي خاضتها قوات =

المعلقة عليه في غرفة مكتبه في فايمر، هكذا ببساطة. عينا نابوليون، أراد أن يذكر لها ذلك، نظرة نابوليون كان يخشاها كل شخص. يقولون إنها نظرة مقتحمة، حادة، ثاقبة. لكن غوته لم يلحظ ذلك إطلاقاً في اللقاءات الثلاثة مع ذلك القادم من كورسيكا. إن لديه نظرة ثابتة، قال غوته وتطلع إلى أولريكه. لا يطرف له جفن، أبداً. وكأن جفونه قُدت من حجر. بالتأكيد لا ينطبق هذا عليك يا أولريكه، ولكن نظرتك أنت أيضاً ثابتة. لا يطرف لك جفن أبداً. يُقال إنهم في العصور القديمة كانوا يفرقون على هذا النحو بين الآلهة والبشر. البشر تطرف جفونهم، أما الآلهة فلا. ثم نظر إليها، ونظرت إليه. أثناء التنزه، حوالي مئة خطوة من نبع كروتيس.

غيرت دفة الحديث وقالت: لكن نابوليون كان دوماً لطيفاً معكم.

نعم، قال غوته. يقولون إنه قرأ «آلام فرتر»<sup>(1)</sup> سبع

---

= التحالف المكون من جيوش النمسا وبروسيا والمملكة الروسية والسويد ضد قوات الاحتلال الفرنسية بقيادة نابوليون. حتى نشوب الحرب العالمية الأولى كانت هذه المعركة هي الأضخم عالمياً. (م)

(1) «آلام الشاب فرتر» هو عنوان الرواية التي كتبها غوته على شكل رسائل عام 1774، وقد شاعت في العالم العربي بعنوان «آلام فرتر». أحب فرتر فتاة تدعى لوته، غير أنها كانت مخطوبة، ثم تزوجت من خطيبها. رغم ذلك ظل فرتر يكن لها عواطف مشبوبة، وفي نهاية الرواية لم يجد خلاصاً من آلامه وعذاباته إلا عبر الانتحار بالمسدس الذي أخذه من لوته بحجة السفر، وكانت هي قد نظفته بيديها. حققت هذه الرواية نجاحاً فائقاً فور صدورها، لم يحققه أي عمل آخر لغوته. وقد تُرجمت الرواية إلى العربية غير مرة، أشهرها الترجمة التي أنجزها الأستاذ أحمد حسن الزيات (عن

مرات . بالطبع وجد مقطعاً انتقده .

لقد أترتم اهتمامي الآن، قالت أولريكه .

يقول إنني خلطت بين شيئين حتى يحدث تصاعد في الأحداث، قال غوته . لم يكن فِرتَر تَعِيساً في الحب فحسب، بل أيضاً في طموحه المهني . مصيبة تفوق الأخرى . هذا، في رأي نابوليون، خطأ . لا يتفق مع طبيعة الأمور في رأيه، وهو ما يُضعف شخصية فِرتَر الذي ينبغي أن تكون تعاسته في العشق . كان لا بد من أن يكون الحب، الحب التَعِيس، هو السبب الوحيد لسقوطه .

صحيح، قالت أولريكه .

ولهذا لم يعارض، ولكن تحتم عليه أن يقول إن ما يهم الفنان هو التأثير؛ ولذلك لا بد من التصعيد والمبالغة .

ولكن نابوليون على حق، قالت أولريكه . أن يصبح فِرتَر تَعِيساً في المهنة أيضاً معناه أن تعاسته في الحب لم تبلغ الدرجة التي تُحتم عليه أن ينتجر . هذا شيء يجعله أصغر، أكثر عادية وإثارة للملل .

ولكن أكثر مدعاة للتصديق، قال غوته . القارئ يتوحد معه على نحو أكبر .

وهذا شيء يدعو للأسف، قالت أولريكه . كان عليه أن يكون آية في التعاسة بسبب الحب، والحب وحده .

---

= الفرنسية) وقدم لها عميد الأدب العربي طه حسين، وصدرت طبعتها الأولى عام 1924 . (م)



هذا شيء، قال غوته، لم يره أحد في كل أوروبا خلال  
خمسین عاماً سوى أولريکه فون لفیتسو ونابوليون الأول.

كان نابوليون ذا طبيعة حتمية، قالت أولريکه. لذا كان  
يفضل ألا يتولد تأثير، من أن يكون التأثير متوقعاً.

حتى يزيد من أهميته لدى نابوليون قال غوته إن القائد  
طلب منه شخصياً على كل حال أن يكتب له مسرحية تراجيدية  
عن بروتوس. ربما كان يأمل تصوير قاتل الملك تصويراً بالغ  
البشاعة.

ولكنه، قالت أولريکه، وصل إلى جزيرة سانت هيلين من  
دون بروتوس.

تحتم على غوته أن يذكر أن نابوليون منحه وسام الشرف  
العسكري، وهو ما أخذه عليه الألمان المحافظون.

أرادت أولريکه أن تعرف لماذا لا يعلّق أوسمته أبداً.

فرد بالسؤال: وهل عليّ القيام بذلك؟

كلا.

كان الاتفاق في الرأي في مثل هذه الحالات يتأكد عبر  
تبادل النظرات الصامتة. كان يشعر بأنه لن يتوصل إلى توافق  
كهذا مع أي إنسان آخر على وجه الأرض. ولأن رجلاً ذا لحية  
اعتلاها الشيب مرّ في تلك اللحظة مُلقياً التحية، قال غوته إنه  
كان رئيساً لأحد معسكرات منطقة شمبانيا. ثم أضاف، لأن  
نظرة أولريکه مع جبهتها بدت متسائلة: حملة 1792. عندما  
لاحظ أنها لم تفهم شيئاً أضاف أن المطر ظل يهطل طيلة

الحملة على فرنسا. ولكنها لم تفهم شيئاً أيضاً. إذاً: كان منشغلاً عن نفسه بتدوين يومياته فحسب. في بعض الأحيان لا يوفق المرء في شيء. اعتبر نفسه في جملتين أخريين من أصحاب الحظوة لدى القدر، غير أنه وجد هذه الجملة مبالغاً فيها، لذا سمع نفسه يقول بلا مقدمات إنه لم يصادف أعداءً طيلة حياته، أما الخصوم فكانوا كثيراً. كافة علماء الطبيعة المعاصرين رفضوا ما ذهب إليه في دراسته عن الألوان، لأنهم يعبدون نيوتن عبادة عمياء. ثم تحتم عليه أن يلقي عليها محاضرة عن أن خصومه يفصلون بين الضوء والعين، مع أنهما في الحقيقة لا ينفصلان. أما هو فقد جعل الضوء والعين أساساً لدراسته عن الألوان. ولأنه احتفى في اليوم الأول على طريق التنزه بعيني أولريكه، فقد اعتقد بأنه من الممكن اكتسابها نصيراً لأرائه. من ناحية أخرى كان يعرف أنه عندما يتباكى على ما آلت إليه دراسته عن الألوان، فلن يضره شيء مثل تلك العبارات التي تشكو ظلم العالم.

لحسن الحظ هطل المطر مصحوباً ببرق ورعد. ولهذا سمعت منه أن سينيكا يقول إن مَنْ يُصبه البرق، يرقد على الأرض ووجهه دوماً إلى أعلى. عندما تعجبت أولريكه لغزارة معلوماته قال غوته إن ما قاله عن صرعى البرق سمعه من المستشار الجنائي غرونر الذي يزوره كل عام في إيغر خلال رحلته من فايمر إلى بوهيميا، ثم أثناء رحلة الإياب. ارتقى رفقة كل القمم والجبال والتلال في المنطقة، وفحص الأحجار الغريبة بالدق عليها. مِمَّن، إذا لم يكن من المستشار الجنائي،

كان سيعرف أن الناي ظلّ ممنوعاً في عهد لويس الرابع عشر، لأن السويسريين كادوا يموتون حيناً إلى الوطن وهم يعزفون عليه. عندما كان يدخل إلى غرفة غرونر كانت الجملة الأولى دوماً هي: والآن، يا عزيزي، ما أحدث ما جمعته؟ فيرد غرونر: كل شيء تحت أمر صاحب السعادة، أنا مدين لكم بكل شيء. آه يا أولريكه، لو يُحاط الإنسان فقط بالأشخاص الذين يدينون له بكل شيء.

أولريكه: ماذا سيستفيد الإنسان من ذلك؟

من الممكن أن نقول، رد غوته، إنني أشعر بالامتنان تجاه مَنْ يعترف لي بالجميل، أكثر مما يستطيع أن يعترف لي بالجميل.

تريدون دوماً أن تتفوّقوا على الآخرين جميعاً، عقّبت أولريكه.

فقال: لأنني لا أريد أن يتفوق أحد عليّ، هذا هو كل شيء.

لأنكم تعرفون أنكم ستفوقون دوماً على الآخرين جميعاً، هذا هو كل شيء.

أولريكه، قال غوته، حديثي معك هنا وحديثك معي - أما زلت تتذكرين العام الماضي والعام قبل الماضي في منتجع كارلسباد، ذلك الوادي الضيق المائل؟ هل كان بإمكاننا أن نتبادل حديثاً كهذا؟

مارينباد منتجع أمريكي الصبغة، ردت أولريكه.  
لم يفهم على الفور ما تعني.

انظروا حولكم يا صاحب السعادة، هذه المروج الشاسعة التي تشبه حوضاً ضخماً، في أعلى حافة المرج، هناك، حيث تبدأ الغابة العتيقة، فندق إلى جوار الآخر. ثلاثة أو أربعة فنادق ضخمة، أقحمت في قلب الطبيعة البرية الخضراء إقحاماً. قبل أربعة أعوام كانت هذه المنطقة لا تزال برية خضراء. هذا ما يبدو لي أمريكياً.

قصر كليلسبرغ، رد غوته، هو بالفعل استفزاز. مئة غرفة في ثلاثة طوابق. واجهة مبهرة يبلغ عرضها خمسين متراً. هل يمكن أن يكون ذلك جيداً؟

سعادة المستشار، إذا تحتم أن يسير أمر على نحو جيد، فسيسير على نحو جيد، قالت أولريكة بنبرة صارمة تعليمية. نبرته هو في حقيقة الأمر.

تعجب غوته، وتساءل: عندما يسمعها تتحدث هكذا، فمَن يسمع في الحقيقة؟

صوتي أنا، قالت أولريكة. ولكن، كما عرف غوته كل شيء عن صرعى البرق وسينكا من المستشار الجنائي في إيغر، هكذا استقت هي كل معلوماتها عن مارينباد من زوج أمها المقبل، الغراف كليلسبرغ، ومن جدها البارون بروسيكه. لا بد من أن يستمع السيد المستشار إليهما ذات مساء. مارينباد، أكثر المناطق البرية في أوروبا خضرة، التي يعبرها دوماً أغنى أغنياء أوروبا - في طريقهم إلى كارلسباد. سيتوقفون الآن في مارينباد. كليلسبرغ - وهو يعمل على كل حال وزيراً للمالية في النمسا - وجدّها بروسيكه هما محاسبان. لقد اشترك الجد

في أعمال البناء هنا. والد أمها كان بالمناسبة طفلاً تحت الرعاية الروحية لملك بروسيا فريدريش الأكبر، وهي لا تذكر ذلك إلا لكي يعرف غوته أن السامي في عائلتها هو أيضاً متقدم في العمر.

يا له من جسر جميل، قال غوته، من فريدريش الأكبر إلى مارينباد الأمريكي.

الجد، قالت، سيسعد إذا أبدى غوته رغبته في الاطلاع على رسالة البنية الروحية. إنها متأكدة من ذلك.

غوته: وأنا أريد بالفعل الاطلاع عليها. بالمناسبة، في نهاية إحدى رواياتي كان على البطل أن يختار بين السفر إلى روسيا أو إلى أمريكا كي يستثمر ماله؛ وقد جعلت البطل يختار أمريكا.

صاحب السعادة، فلنغير الموضوع!

هو: لماذا إذاً؟

لقد كانت تريد أن تتباهى قليلاً بأمريكا، لكنها ليست بالشيء الجديد بالنسبة له، لقد تجاوزها منذ مدة طويلة!

ولكن للأسف في الرواية فقط، قال غوته بلهجة حزينة.

لاحظت أولريكة بالطبع أن غوته فخور بالتنزه معها. وأدركت أيضاً أن المهم هو أن تستعرض حيوية الحديث أمام جمهور مارينباد، وأن تفهمه بكل الإيماءات والإشارات الممكنة أنهما لن يسمحا لأحد بأن يزعجهما. استمتع غوته بظهور أولريكة كل يوم في فستان مختلف، وكأنه هو الذي اخترع لها

هذه الثياب . ربما حصلت على كل ملابسها من فيينا مباشرة ، من صديق الأم ، الغراف كليلسبرغ . كل نساء آل لفتسو كن يتميزن بالحيوية ، بل وبالذكاء والخيال ، أكثر من النساء الأخريات . لم تكن هناك قطعة ملابس واحدة من التي ترتديها نساء آل لفتسو تجعلهن مجرد عارضات لها ، أبداً . أوتيليا ، زوجة ابنه ، يمكنها أن تتعلم منهن في هذه النقطة . ولكنه كان يعلم الآن : إذا راح يصور في فايمر ما ترتديه نساء آل لفتسو من قطيفة وحرير ، من صوف وجلد ، فسترد أوتيليا بعصبية بالغة . أي بالمرض أو بالغضب ، أو بكليهما . ها هي شقيقة أوتيليا ، أولريكة فون بوغوفيتش ، قد أرسلت لتوها رسالة تخبره فيها بالأحوال في فايمر . لقد سمعت ، هكذا كتبت ، أن غوته يكن تقديراً خاصاً لامرأة تحمل اسمها . لا يعجبها إطلاقاً أن اسم الأخرى أولريكة . عندما يسمع هذا الاسم ، بعد أن يعود إلى فايمر ، سيفكر دوماً في تلك المرأة البعيدة الجميلة المحبة . في رسالته إلى الابن ذكر عائلة لفتسو بطريقة لطيفة . كان يعلم أن عليه أن يعامل أوتيليا باعتبارها زوجته وليست زوجة ابنه أوغست ، كما كان يعلم أن الناس بين هامبورغ وزيورخ ينظرون إليه وإلى أولريكة هنا باعتبارهما حبيين . سرى هذا الخبر كشائعة ، كثرثرة في الرسائل ، وفيما دونه الناس في دفتر اليوميات . كان يعرف هذا المجتمع عن حق . إن منتجاً كهذا يشبه وعاء تغلي فيه الشائعة قبل أن تُرسل إلى جميع أنحاء العالم . كان بإمكانه أن يتخيل أيّ السيدات المتزهات ، من هنا أو هناك ، كتبن عنه هو وأولريكة . وبعيداً عن هنا ، في العالم

الواسع، تقوم مُستقبِلات الشائعة بإضافة التوابل والبهارات إليها. ستتولى بيتينا فون أرنييم مهمة نشرها في كل البيوت المهمة في برلين. غوته، 74 عاماً، وواحدة من آل لفتسو، 19 عاماً. أمها ترملت مرتين، والآن تجري وراء سياسي فييناوي يريد الصعود المهني بأي شكل، بل ويصاحب المرأة أيضاً على البيانو. ثم على نحو أرقى قليلاً، فقط قليلاً، كارولينا فون فولتسوغن، شقيقة أرملة شيلر فون لينغيفلد، مؤلفة روايات شيقة لا شك؛ ستخبر صديقتها التي تدعى كارولينا أيضاً، زوجة فيلهلم هومبولت العالم المهم، ستخبرها بأسلوبها الملتبس الذي يحتمل دوماً أكثر من تأويل أن غوته، من ناحية، لم يعد سليماً تماماً في قواه العقلية. لكنه، من ناحية أخرى، يبهز الآخرين لأنه ما زال قادراً على العشق. لم يتوقف الأمر يوماً على النساء، فهو قادر دوماً على العثور على من يستطيع أن يملأها زهواً بخياله الخصب.

سيكتبون في رسائل النميمة هذه أن نساء آل لفتسو يعرفن كيف يحتلن ويجعلن أنفسهن في مركز الضوء، على نحو يجلب لهم المنفعة. ثم ستصل هذه أو تلك إلى النتيجة الأخلاقية التالية: الآن، في خضم هذه النميمة العالمية، حيث يهاجم الجميع غوته، فإن الدفاع عنه هو الشيء المبتكر بحق. ثم يغدو الأمر عادة: الدفاع عن غوته. وفي فرانكفورت ستنظر إليه إحدى النساء ربما باعتباره ظاهرة طبيعية ليست لها ملامح شخصية. وكارولينا هذه أو تلك سترد في رسالته بشيء أكثر رقة، ولكنه ليس مختلفاً كثيراً عن ذلك.

لم يكن بمقدوره أن يبوح لأي إنسان بمدى شعوره بالراحة عندما يتمعن في ردود فعل الدوائر المحيطة به؛ سواء كانت من التجمعات الثقافية في ألمانيا، أو من الوعاء السحري الساخن في بوهميا. لتفلت ألسنتهن كما شاء لهن الانفلات. ليصرخوا بأعلى صوت: فضيحة! قلة ذوق! شيخ متصابٍ ملعون يلهث وراء اللذات! نهاية حزينه لشخصية عظيمة. كل ما له علاقة بأولريكه يملأ جوانحه بالسرور. كان يشعر بها زاداً لحياته. أكثر من شاهد أمين قال له إنه يبدو حالياً في مظهر طيب، مشرق، قوي، جميل حقاً. ألا يتحتم عليه إزاء هذا التأثير أن يقصد منبع التأثيرات! نعم يقصد! ولكنهما كانا يُقَابِلان أيضاً بتشجيع بسيط، استقبله غوته وأولريكه ببساطة أيضاً. هذا هو الأثر الذي تناقشا حوله. هل رأيتم، سعادة المستشار، تلك المرأة السمينة، كيف لفتت انتباه أطفالها الثلاثة إلينا، وكيف راحت تلوّح لنا إلى أن شرع أطفالها أيضاً في التلويح. كان ثمة تصفيق كذلك. على نحو شبه مسرحي. غير أنه كان هناك آخرون يرون أن ما يحدث قد جاوز الحد، فابتعدوا بوضوح عن المصنفين. لم يشهد طريق التنزه في مارينباد مثل هذه الحيوية من قبل.

عندما كان يصحب أولريكه إلى المنزل كان يحدث كثيراً أن يجلس كلاهما على شرفة القصر العالية المحاطة بالزهور. أولريكه التي لم تستطع أن تهتم بالأحجار كانت تشعر بالانجذاب إلى الزهور مثلما ينجذب الإنسان إلى وطنه الضائع. كان يتحتم عليها مرة تلو الأخرى أن تسير بمحاذاة الزهور التي



تزين الشرفة، وتستنشق العبير، وبعينين مغلقتين تقول شذا أي  
زهرة هذا. الزهور أيضاً ذات سمو ملكي، كانت تقول عندما  
تعود وتجلس بجواره.

أحبُّ أصحاب الجلالة الملكية إلى قلبي هي زهور  
الترمس، قال.

ردت: أما أنا فزهور الأرنیکا.

ولأنه كان يجلس في مقابلها تماماً، قال إنه بحاجة الآن  
إلى أن يلعب دوراً آخر من لعبة طقوس البلاط الملكي، وذلك  
كترياق مضاد لمارينباد المتأمركة. أوامات منشحة الصدر كما  
بدا له.

هو: بادئ ذي بدء، أود أن أعبر لكم عما أنا مدين به من  
شكر وامتنان، لأن عظمتكم قد أنعم عليّ، ومنحني الاهتمام  
والعطف اللذين أدخلنا البهجة إلى فؤادي. وبذلك أيقظا على  
الفور آمالاً في أن يشمل شخصكم العظيم تلك الزهرة بالرعاية  
الواجبة، وهي الزهرة التي أنبتُّها بعناية من بذرة سرية والتي ما  
زالت بعد في مرحلة الطفولة، فرعايتكم وحدها هي التي تعد  
بالنمو البهيج.

أولريكه: النمو البهيج تتمناه عاشقاً كل الزهور التي تقدر  
كل ما نبت ورأى نور الحياة حقَّ قدره، وهي ترجو أن يشاركها  
شخصكم الغالي في الابتهاج كل الابتهاج لمراى هذا النمو.

شرعت الكنيسة الآن تدق نواقيس الساعة السادسة. تقع  
الكنيسة في منتصف المسافة بين طريق «كرويتس بروين» للتنزه

في الأسفل والقصور الفندقية التي تأخذ شكل إكليل والمبينة أعلى الربوة.

كاد أن يغلبه شعور جارف. على كل حال كانت سيطرته على مشاعره أقل مما ينصح به زمان ومكان الحديث. معك إلى إيغر يا أولريكه - هذا هو!! دون جمهور. معك من إيغر إلى الغرب، إلى هاسلاو، ثم بعد هاسلاو، على طول الجبال. عندئذ تستقبلنا الغابة التي تدعى ملكوت السموات. وهناك، عند بحيرة «شاو زيه»، صخرة الكوارتزيت العملاقة التي أجلس دوماً فوقها ولا أفعل شيئاً سوى التأمل. معك يا أولريكه! اعذريني إذا كانت آمنياتني قد جنحت هذه المرة إلى الحد الأقصى. ثم نهض فجأة ومشى. لكنه استدار ثانية وقال: إلى المساء يا معبودتي. ثم تلك الانحناءة الرقيقة التي هي بالأحرى مشروع انحناءة. ثم عبر الشارع إلى «العنقود الذهبي». سار على أفضل نحو يستطيعه. لم يعرف صعوبات السير إلا عبر كلام الناس. ولكن سيره الآن كان مشوباً بالقلق، فربما ترسل أولريكه النظر إليه من الخلف. راح يؤكد على ثقته بنفسه في كل خطوة. لكن ذلك قد يبدو مضحكاً. عندما سار عبر الباب في الناحية الأخرى اختلس نظرة إلى الورا. كانت الشرفة خالية. لم ترسل أولريكه نظرة خلفه. خاب أمله.

لا بد، لا بد من أن يكتب الآن. ولأنه شعر بقوة كافية جعلته قادراً على التباهي في هذه اللحظة بأولريكه، حتى أمام أكثر العوالم رفضاً لها، كتب رسالة إلى أوتيليا. ليس ممكناً أن تُذكر أولريكه في هذا السياق. ولكن كل الجمل التي تنبعث

منها قوته، كانت مفعمة بأولريكه. رغم كل ما أحس به من قوة وعنفوان غمره شعور بالسلام. السلام مع أوتيليا. رسالة لإزالة مناخ الحرب الذي تولد بينهما بعد كل الأخبار والشائعات.

وصلتُ إلى كل ما وُفقتُ فيه عبر العلم والإرادة هذا يرضي القلب والروح والنفس . . . إلى آخر ما اعتاد المرء أن يقوله.

لم يكن هذا أسلوبه، ولكن أوتيليا - كما يعرفها - لن تقرأ ما هو مكتوب، بل ما يخفيه عنها. لقد حدثت أنه يكن مشاعر تجاه أولريكه فون لفتسو قبل أن يعايشها بحق. عندما عاد قبل عامين من بوهيميا الصيفية إلى فايمر الخريفية كانت أوتيليا قد استعدت بالشائعات التي لم تكن آنذاك إلا مجرد شائعات. لم تتحل بالشجاعة لتواجهه بما تقوله كارولينا فون س أو كارولينا فون ص. ولكن على الأوراق التي كانت تخبره عبرها بأمور العمل كانت تضيف - بنبرة تظل نبرة عمل - أن عليه، لطفاً، ألا يشرع في علاقات يمنعه عمره المتقدم من أن يفني وفاءً مُرضياً بما تفرضه من التزامات. ضحك على أوتيليا. آنذاك.

وقف د. ريباين في منتصف قاعة دار المشرف على إعداد الطعام التي سُيدت حديثاً، وافتتح حفل خطوبته على الأنسة كاتي فون غرافن إيغ مُرحباً بالحاضرين. كان أول من رحب بهم هو الدوق الأكبر كارل أوغست، والثاني غوته. حضرة سعادة المستشار والوزير النبيل: فون غوته. أعقب ذلك تصفيق أعلى من التصفيق الذي ناله الدوق الأكبر. كان غوته يجلس بالطبع مع آل لفتسو حول مائدة واحدة، في مواجهة أولريكه مباشرة التي راح يسترق النظر إليها أثناء الترحيب به. لم تصفق إلا بعد أن لاحظت أن الحاضرين صفقوا لغوته أكثر من تصفيقهم للدوق الأكبر. صفقت للتصفيق. ثم أَلقت نظرة إلى الناحية الأخرى. لم تكن القاعة ذات إضاءة باهرة، لذا كانت عيناها خضراوين.

كاد د. ريباين يذوب دفتاً وعرفاناً وسعادةً لأن الفرصة أُتيحت له كي يرحب بابن زوجة نابوليون، أوجين دو بوآرنيه، النائب السابق لملك إيطاليا، ودوق لويشتنبرغ، وأمير أيش شتيت الحالي، ملك هولندا سابقاً ودوق سان لوي حالياً. وكم

أنا سعيد أن تكون بيننا يوليا فون هوهنتسولرن. في العالم  
الرحب يتقابل الناس ويتفرقون دون أن يسود التفاهم بينهم، أما  
هنا، في مارينباد، فإن التاريخ يتوقف ليلتقط أنفاسه ويجد ذاته.  
أعظم تصفيق. ثم طلب د. ريباين من كاتي فون غرافن إيغ أن  
تأتي إليه. جاءت. رآها غوته للمرة الأولى. فتاة عامرة البنية.  
شعر أشقر فاتح يصل حتى الأكتاف العارية. شعر لم يعان يوماً  
من اللف أو الكي. فتحة فستانها الأسود المزينة بشريط مدبب  
الحواف كانت تدعو إلى تخيل نهديها الممثلتين بكاملهما. فعل  
غوته ذلك، ولاحظ على الفور أن هذا التخيل بقي من دون أي  
تأثير. ما شعر به هو أنه أصبح كله لها، لأولريكه. لو كان  
بمقدوره أن يبين مشاعره لها على نحو أوضح!

انطلق د. ريباين يتحدث كما يمكن لشخص سعيد فقط أن  
يتحدث. كيف نجح في الفوز بقلب هذه الفتاة! انظروا إليها،  
وانظروا إليّ. يحق له أن يكون إحدى شخصيات قصة غوته  
«الرجل ذو الخمسين عاماً». ولكن كاتي تختلف عن هيلاري  
التي ارتمت في البداية في أحضان الرجل ذي الخمسين عاماً.  
غير أنها سرعان ما وقعت في غرام الشاب فلافيو ذي المشاعر  
الجامحة. بسرعة قالت كاتي أثناء حديثه: أنا لا أقع إلا مرة  
واحدة في حياتي. قالتها كاتي بلكنة بافاروية. تصفيق عظيم. لم  
تثن ساقها كما تفعل البنات، بل انحنت أمام الحاضرين وكأنها  
ممثلة. وقفاً يداً في يد. زوج بهي. هو: شعر أسود مجعد،  
وهي: موجة شقراء.

راح غوته يراقب أولريكه. وقع نظره على وجهها لأنها

استدارت ناحية منتصف القاعة . مستقيمة دوماً في جلستها، وكأن نظرتها موجهة إلى أعلى لا إلى الأمام . ماذا يدور في رأسها؟ لم يخطر على باله أن الفارق بين عمر الخطيبين سيصبح موضوع الحفل . ألقى نظرة ثانية في اتجاه الخطيبين ، مشدوداً متأثراً بهذا الاستعراض للسعادة الخالصة . لم يكن يخشى أن يراقبه الآخرون . سيكون مفهوماً بالطبع لو استدارت القاعة كلها في اتجاهه هو وأولريكه . ليفعلوا! يمكنه أن يطلق على الشعور الذي ملأ جوانحه الآن خلو البال السامي . هل تجلس أولريكه مستقيمة أكثر من اللازم قليلاً؟ لو تستدير بسرعة ناحيته استدارة كاملة حتى يكون بمقدوره أن يريها خلو باله من كافة الهموم! لو استطاع أن يحثها على أن تكون خالية البال مثله تماماً . طالما تجلس في تناول يده، أو على الأقل في مجال بصره، فهو في حصن حصين يقيه هجمات الآخرين . نعم، العالم على استعداد دائم للهجوم علينا وإلحاق الأذى بنا . ولكن ليس هنا . مارينباد ليست العالم . المرتفعات التي تحرسها أشجار التنوب المحيطة بالمنتجع تحميه من فايمر، أي من العالم . استديري ناحيتي مرة يا أولريكه حتى أرى أنك تشاركينني، وحتى أرى ماذا تعني هذه الخطبة السماوية لك . هل يمثلون أديارنا؟ كان يأمل أن تتابع ما يحدث في قلب القاعة بتلك الابتسامة الجينية التي تعبر بها دوماً عن عدم اعتراضها على ما يحدث . سنتحدث في ما بعد - أليس كذلك يا أولريكه؟ - عندما ينتقل الحفل إلى الناحية الأخرى، إلى دار كليلسبرغ، ويتواصل حتى مطلع الفجر، عندئذ سنتحدث بالتفصيل عن كل ثانية عايشناها

هنا معاً. وسيسأل كل منا الآخر: ما رأيك في ذلك؟ وأنت، ما رأيك؟ غمرته السعادة حتى النخاع لأنه عايش هنا حدثاً عاماً مع أولريكه، حدثاً يؤكد أهمية مركزه. رائعة هي اللقاءات مع العائلة. شيقة للغاية تلك الأحاديث المتبادلة أمام الرأي العام المتفرج على طريق التنزه. ولكن، كان لا بد أخيراً من أن يقع حدث يعايشانه معاً! حدث يبدو وكأنه تُلَب خصيصاً لها، أو طلباه معاً. توقف الآن من فضلك عن الحسابات والمقارنات. إذا كانت أولريكه قادرة على الاستمتاع بهذا الحدث، فهي قادرة... قادرة على... آه، أولريكه، استديري ناحيتي، ثانية واحدة فقط!

عندما أنهى د. ريباين كلمته المرححة، الصادقة لكونها منبثقة من مشاعره في تلك اللحظة، تصاعد مرة أخرى تصفيق عاصف. وقبل أن يعود إلى مكانه وهو يضغط كاتي إليه دخل خادمان متنكران في زي نجارين حاملين مهداً حافلاً بالهدايا الملونة، المليئة ربما بالإحياءات والإشارات. ثم جاء الدوق الأكبر وهنا الخطيبين وأشار إلى هديته، المهد الحافل بالهدايا الملونة، ووضع يد كل منهما في يد الآخر، ثم رفع الأيدي الأربعة عالياً، وكأنه يرفع رمزاً للنصر - تحتم على غوته في تلك اللحظة أن يتذكر أن البط أكثر ما يحب الدوق الأكبر اصطياًده - ثم هتف في القاعة أنه مهتم اهتماماً فائقاً بأن يكون طبيبه الخاص في أيد أمينة. تصفيق. صفق غوته بقوة، واجتهد في أن يُظهر على وجهه ابتسامة عليمة ببواطن الأمور. استدارت أولريكه ناحية المائدة، فأوماً لها غوته حتى يُظهر لها أن كل ما

يحدث هنا مبعث لرضاه الكامل . بعد ذلك قُدم الطعام . طلب  
د . ريباين من الحاضرين الانتباه مرة أخرى . لأن خطيبته نباتية  
فإن الطعام يخلو من اللحوم . ولكنه يؤكد للجميع أن المسيو  
شاركو قد قام بإعداد مجموعة من أشهى الأطعمة الأوروبية ،  
وهو ما لا يستطيعه أحد غيره ، حتى أن المرء يتذوق طعم  
اللحم ، ولكن بدون لحم بالطبع . تعالت صيحات «برافو»  
جسورة . كانت أولريكة من بين الصائحين .

نالت كاتي فون غرافن إيغ الآن وسامين من غوته . أو  
لنقل : كانت جذابة في نظره من ناحيتين : عبر اللهجة البافارية  
والاستغناء عن اللحوم . كان يعتبر نفسه خبيراً بتأثير الألفاظ  
على الناس . هذه الفتاة التي تحتفي بجسدها في كل لفتة ،  
ونباتية أيضاً ! قال لأولريكة إنه لم يكن يعلم أنها تميل للطعام  
النباتي . حركت حاجبيها عالياً ، ورفعت يديها في الهواء  
وقالت : إنني عموماً لا أشعر بميل محدد يا صاحب السعادة .  
منذ تلك اللحظة لم تعد تخاطبه إلا بـ «صاحب السعادة» . أمسوا  
بالفعل شهوداً على تنوع وثراء في الأطعمة لن تصل إليه أبداً أي  
قائمة طعام تُستخدم في إعدادها اللحوم . ملأ السرور نفس  
السيدة فون لفتسو لأن د . ريباين قد ذكر في كلمته بتلقائية قصة  
«الرجل ذو الخمسين عاماً» ، ثم طلبت شرب كأس من النبيذ  
الأبيض من لوار في صحة الرجل ذي الخمسين عاماً . كل مَنْ  
جلس قربها وسمع ما قالته ، شرب نخب الشاعر . لكن أولريكة  
لم تفعل . رآها غوته تهز رأسها ، وتقول بشفتيها دون صوت :  
لا نبيذ ، ولا خمر عموماً . عندئذ وضع كأسه قائلاً إنه يشكر



كل مَنْ شرب نخبه، أو بالأحرى نخب الرجل ذي الخمسين عاماً. شخصياً، كان يود للغاية أن يشرب معهم، ولكنه لا يستطيع حالياً أن يفعل ما لا تفعله أولريكه فون لفتسو. ولأنها لا تريد بعد أن تتذوق النبيذ، فإنه يمتنع هو أيضاً عن شرب النبيذ اليوم. وماذا عن الغد؟ تساءل شاب يبدو من مظهره أنه قادم من بعيد. تطلع غوته إليه. ثم تطلع إلى أولريكه، وقال: النبيلة فون لفتسو هي وحدها مَنْ يقرر ما سيحدث غداً يا سيدي. أود أن أشرب نخب ذلك، إذا سمحت لي يا أولريكه. رفعت يديها عالياً في اتجاهه وصاحت: نعم، نعم، نعم يا صاحب السعادة. ارتشف غوته رشفة كبيرة.

انتقل الحفل بعد ذلك إلى قصر كليلسبرغ. وهناك، في البهو الخارجي المستدير والذي يميل لونه إلى الحمرة، استقبلهم رب الدار الذي كان قد أتى من فيينا في الظهرية. رجل أكثر وسامة من د. ريبان. رحب فرانتس غراف فون كليلسبرغ بغوته بذراعين مفتوحتين على اتساعهما وبصوت لا يمكن أن يكون إلا لمطرب: رغم أن السيد المستشار لم يعد بالتأكيد يطيق سماع ذلك، فلا بد من أن يقول إنه الآن في التاسعة والأربعين، وفي يناير سيتم الخمسين. ما ينتظره عرفه خير معرفة من ذلك الكتاب الحافل بتفاصيل دقيقة رائعة. من دون أماليا فون لفتسو كان يود أن يهرب من هذا التاريخ إلى القطب الشمالي، آملاً في أن تتجمد هناك كل التواريخ. بمجرد اقتراب غوته ووقوفه بجانبه أنزل الغراف يديه وانحنى انحناء عميقة، وقال: أقدم لكم أسمى احتراماتي يا صاحب السعادة. فرانتس!

هتفت والدة أولريكه التي كانت تراقب كل ما حدث، لا تبالغ!

كانوا قد وصلوا إلى القاعة الكبيرة الموازية للبهو. لم تنته أعمال البناء في هذه القاعة إلا قبل عام. وهي بناء رومانتيكي إلى حد التطرف، بكل ما تعنيه الكلمة من ديكورات منفرة. نوافذ ضخمة نقش على زجاجها فنانون من منطقة بوهيميا زهوراً ذات درجات مختلفة من الشفافية. عمودان من الرخام الأحمر في كل ركن، ودائماً بين نافذتين، لا يحملان في نهايتهما سوى تاج كورنشي. قاعة تموج بالتلاعب والأجواء الحاملة. مَنْ حلّ ضيفاً للمرة الأولى كان يقدم تهانيه للنبيل.

عندما شرعت فرقة المنتجع في العزف شعر الحاضرون على الفور بأنهم في فيينا. منذ عقد المؤتمر في فيينا كان كل مَنْ يريد أن يكون عصرياً وشاباً وجميلاً وسعيداً في أوروبا يرقص رقصة الفالس. لاحظت السيدة فون لفتسو كيف أثرت هذه الموسيقى في غوته. السيد المستشار، قالت، ليست تلك مشكلة بالنسبة لرجل في الخمسين. كانت تعرف من كتاباته أن غوته لم ينجح أبداً في إخضاع جسده لسيطرة روحه. ولكن الآن، في «الرجل ذو الخمسين عاماً»، التتويج، الذروة، البطل يحصل على خادم يعيده إلى الشباب، مستشار تجميل، مكتوب هكذا بالحرف الواحد في الكتاب. تبدو هذه الكلمة موضوعية، مفعمة بالأمل. مستشار تجميل وخادم يعيد الشباب إلى المرء. سعادة المستشار، أود أن أقبلكم على هذه الابتكارات اللغوية. ثم طبعت قبلة على وجنته. لاحظ أن أولريكه تراقب أمها بصرامة. على جبهتها العالية المستديرة ظهرت تجاعيد، غير أن

الأم كانت لا تزال تفيض حيوية. أما أجمل كلمة ابتكرها فهي «معلم الحفاظ على الجمال». باقة من الكلمات الجميلة المتعاقبة! عندما يقرأ أحدنا هذه الكلمات، يود أن يسأل على الفور عن نصيب السيرة الذاتية فيها. . .

ماما! لفظتها أولريكة الآن بحدة. كان هذا كافياً. هيا يا صاحب السعادة، قالت أولريكة ونهضت. كان واضحاً أنها تريد الرقص معه. أشار إلى أولريكة واعتذر للأم بسبب قيامه المفاجئ الذي رحب به أيما ترحيب. في الطريق إلى حلبة الرقص كانت تسير إلى جواره ملتصقةً به متعلقةً بذراعه مثلما كانت تفعل في كل مرة تظهر معه في مارينباد. جذبها إليه على نحو يكاد يكون عنيفاً. تطلعت إليه، كانت عيناها خضراوين. قالت: معذرةً، السيدة أماليا فون لفتسو، parfois elle est un peu volubile<sup>(1)</sup>.

في السنوات الأخيرة كان غوته يتجنب حفلات الرقص. منذ عقد مؤتمر فيينا أصبحت رقصة الفالس قانوناً. كان يهمله بالطبع أن يتعلم هذه الرقصة، أن يعرف عن أي شيء تعبر، وكيف. قبل أعوام تعلمها في داره على يد معلمه للرقص، تحسباً لأي موقف. وهذا الموقف يواجهه الآن. أنقذته حيطته.

التصفيق. كان مسموحاً للرجال والنساء أن يفرقوا بين ثنائيات الراقصين عبر التصفيق. كان غوته يجيد الرقص دوماً. في السنوات الخوالي كان يقضي الليالي راقصاً. وكثيراً ما كان

---

(1) أي: في بعض الأحيان تكون متهورة قليلاً. (المترجم)

يأتي رجل ويفرق بينه وبين فتاته، فكان عندئذ يواصل كالمجنون الرقص بمفرده - وقد كان بالفعل مجنوناً. والآن مع أولريكه. على الفور كانت جزءاً منه. كانت خفيفة للغاية، في يديه وفي أحضانه. كانت تنثني خلال الدوران. كانا جسداً واحداً. لم يشعر بأذى خوف من حدوث شيء. كانت نظرتهمما متشابكتين على نحو ثابت فلم يشعر أي منهما بالدوار. غير أنه أُجبر على مغادرة الحلبة. جاء شاب وصفق، وهو تحديداً ذلك الشاب الذي سأله من قبل: وماذا عن الغد؟ كان على غوته الآن أن يصفق أمام ثنائي آخر ليرقص مع فتاة. لكنه لم يكن يستطيع الرقص إلا مع أولريكه. على العالم كله أن يدرك هذا. عندما عاد إلى المائدة أبدى الجالسون إعجابهم بفته ولياقته في الرقص. اعتبر ذلك مُهيناً. وهو ما قاله أيضاً.

سأل السيدة فون لفتسو عن السيد الذي حلّ محله في الرقص.

إنه السيد دو رور. ربما يكون يونانياً. بالتأكيد ليس تركياً. أثرى من التجارة مع الشرق ثراءً أسطورياً. لا يتاجر إلا بأفخم الأشياء. لا يتاجر بالتوابل، بل بالمجوهرات. ليست هناك ملكة أو أميرة أو كونتيسة في أوروبا لم يعلق حول عنقها أو يشبك على صدرها شيئاً. السيدات في باريس يعرفنه مثلما تعرفه السيدات في لندن وفيينا. كما أنه يترجم قصائد من لغات عدة، لا سيما لغات الشرق. يقولون إنه يتحدث سبع عشرة لغة.

من أين عرفت كل ذلك؟ تساءل غوته.

من فرانتس . إنه هو الذي دعاه الليلة . سيبيت في هذا المنزل . في ثاني أكبر جناح . تعني أن الدوق يسكن في الجناح الأكبر . الغريب أنهم لا يعرفون اسمه الأول . يعرفون اسم عائلته فقط . وهو أمر يثير التكهّنات .

على مكان أولريكه الشاغر جلس غراف لويشتنبرغ وهو يقول : اسمحو لي بالجلوس لحظة . لقد تواعدنا على اللقاء .  
أعرف ، رد غوته .

إذاً ، فكل شيء على ما يرام ، قال الرجل . وأنا إذاً ، لم أحضر هباءً من روما إلى مارينباد . إن تذكركم ، يا سعادة المستشار ، يملأ جوانحي أملاً . أثناء حديثنا ، قبل عام بالتمام والكمال ، في هذه الدار ، كنا نشكو من ضربات مطارق الحرفيين ، والآن ، انتهى كل شيء . إنه مقر أسطوري . كليلسبرغ رجل بحق . سيدتي المبجلة ، تهانيّ . . . ما زلت تذكرون إذاً يا سعادة المستشار ، معنى هذا أننا سنواصل مشروعنا . قناة الراين والدانوب ستُحفر ! أنا نمساوي ، متزوج من بافاريا . أنتم وأنا ، أيها السيد فون غوته ، سنستولد الفكرة - أما التنفيذ فسيؤوله آخرون . . .

قاطع غوته الرجل الثرثار . ليس من الأدب أن يفعل ذلك ، ولكن ليس أمامه طريق آخر . لا بد من أن يتفرج الآن على الرقص وفق القواعد الفييناوية . ما زال الناس في فايمر يرقصون على النمط القديم . كوزير سابق في فايمر يشعر بأن من واجبه أن ينقل لهم كيف يرقصون هنا . أثناء حديثه لم يدع أولريكه والسيد دو رور ثانية واحدة من مجال بصره . لم يتبق أمام

الغراف لويشتنبرغ سوى توجيه اهتمامه إلى الراقصين أيضاً. واصل غوته تمثيل المعلم التربوي. من الحماسة، قال الشاعر، ألا يستغل الإنسان الفرصة لتعلم شيء جديد، لا سيما إذا كان السبب تافهاً لا يُذكر. هناك، انظر.

الآن تطلع الجميع إلى الراقصين. دو رور كان يطوّح بأولريكه تطويحاً. في بعض الأحيان لم يكن يمسك بها سوى بيد واحدة. عندئذ كانت ذراعها الحرة تطير بحرية في الهواء. في تلك اللحظات كان يتضح من جديد مدى ما تتمتع به كل مفاصلها من استقلالية رائعة. حتى رأسها بدا على عنقها الطويل النحيل وكأنه يستطيع أن يطير معها. والسيد دو رور كان السيد الذي يجعلها تطير، في حين بقي هو هادئاً بالمقارنة معها. في تلك الأثناء تزايد عدد المتفرجين على هذا الشئ، ومن بينهم ثنائيات لا تزال ترقص. توقفوا، وظلوا واقفين يتفرجون. عندئذ اعترض شاب يميل عوده إلى الامتلاء طريق الشئ وصفق. ولكن لم يصدر أي رد فعل من السيد دو رور. مد ممتلئ العود ساقه أمام السيد دو رور. غير أن الأخير قفز فوقها آخذاً أولريكه معه على نحو رائع، متجنباً بذلك أن يسقط الاثنان. كان لا يزال ممسكاً براحة أولريكه اليسرى، حين وجه بقبضته اليمنى ضربة أسفل ذقن الرجل المزعج، فتقهقر الآخر وسقط إلى الورا، وظل راقداً على الأرض. شرعت الفرقة تعزف مارشاً قيصرياً خفيفاً، فسار الشئ بخطوات راقصة لعب عاندين إلى أماكنهما. حمل أربعة من الخدم فاقد الوعي إلى خارج القاعة، فركض الدكتور ريباين وراءه.

المسكين، قالت والدة أولريكه .

هل يعرفه أحد؟ تساءل غوته .

لقد اصطحبه الدوق معه اليوم في عربته من فيينا . شاعري

شاب يشمله النبيل برعايته .

شاعر، قال غوته .

قالت : براون فون براونتال .

قفز غوته من مكانه ونظر ناحية الباب الذي حُمل منه

الشاب إلى خارج القاعة . براون فون براونتال، المعجب الذي

قرأ غوته قبل قليل وصفه المفتون بشخصه . لقد أراد أن يستعيد

أولريكه . لنا . جلس غوته، ولام نفسه لأنه لم يفعل شيئاً من

أجل المطروح أرضاً .

رجع السيد دو رور مع أولريكه . ولأن ابن زوجة نابوليون

لم يلاحظ في أي مكان جلس، استراحت أولريكه على كرسي

بجانب السيد دو رور .

قالت أولريكه : يؤسفني ما حدث بشدة .

دو رور : ما زالت القاعدة السارية أن يدع المصنفُ الراقصَ

ينهي رقصته أولاً قبل أن يحل محله . أم أن القاعدة لم تعد

تسري؟

أكد الجميع له أن القاعدة ما زالت تسري .

كررت أولريكه شعورها بالأسف .

لحسن الحظ جلس الدوق كليلسبرغ أمام البيانو ويضربات

ماهرة لفت انتباه الجميع إليه وإلى البيانو، ثم أعلن بصوته

الجميل أنه يريد أن يعزف أحدث الألحان التي وضعت لأجمل القصائد التي خطها شاعرنا العظيم على الإطلاق. إنه يعتقد، بل هو متأكد من أن لحن شوبرت لقصيدة غوته عن الشوق لم يسمعها أحد هنا من قبل. نعم، بل لعل شاعرنا العظيم نفسه لم يسمع بعد بهذا اللحن الذي ألهم به في فيينا الموسيقار العبقرى عندما سمع شعر غوته. ثم انطلق يشدو:

لن يشعر بما أعانيه  
إلا مَنْ كابدَ الشوق!  
وحيداً ومهجوراً  
من كل بهجة،  
أرنو إلى السماء  
من كل وجهة.  
آه، كم أنت بعيد،  
يا مَنْ خَبِرني وأحْبِني!  
الدوار تملكني،  
والنيران شبت في جوفي.  
لن يشعر بما أعانيه  
إلا مَنْ كابدَ الشوق!

ران في البداية صمت تام، ثم انفجر الجميع فجأة في تصفيق هائل وكأن قائد أوركسترا أعطى الإشارة بذلك. توجهوا



بالتصفيق إلى الغراف كليلسبرغ أولاً. ثم إلى غوته الذي نهض وانحنى، ثم رفع يديه المشبوكتين متوجهاً بالشكر إلى المغني. لا يمكن أن يمنع نفسه من التأثر بهذا الصوت. لمح الدموع في عيني أولريكه، وفي عيني أمها أيضاً. تذكر لحن تسلتر لهذه القصيدة. شوبرت، هذا الاسم يردده كثيراً الزوار الذين يأتون من فيينا أو أولئك الذين عاشوا هناك. كان راضياً بلحن تسلتر. لو كان الأمر بيده لما رغب في أن تُلحن قصائده. غير أنه شعر الآن بالحيرة. لقد تجاوزوا الحد بما يفعلونه في أشعاره.

أعلن الغراف كليلسبرغ أنه سيغني الآن قصيدة «ملك الجن». إن مَنْ لا يتأثر بهذه الأغنية فعليه أن يذهب بكل طمأنينة إلى المتحف، ويلقي بنفسه في قسم «ركام الأهرامات».

ضحكات عالية. بدأ العزف والشدو. لاحظ غوته أنه لا يستطيع أن يمنع نفسه من التأثر. لم يعجبه أن تتحكم الموسيقى في النص على هذه الصورة. أن يكون النص محض مناسبة لهذه الإحياءات الهائلة، بل الشيطانية. إحياءات لحنية. الألم يتصاعد بسرعة رهيبية. مرة أخرى فكر في لحن تسلتر البسيط الخادم للنص. كان هدف تسلتر هو تقديم النص. أما شوبرت هذا فيريد نزع الروح من البدن. ليس النص سوى سبب. النص جاء على هواه، ليس إلا.

مرة أخرى، صاح كليلسبرغ مستجيباً لرغبة دفينة لدى بعض المستمعات اللواتي لم يستمعن أبداً إلى شيء كهذا: الشوق.

شعر غوته ببراعته. كان التأثير أقوى عشرة أضعاف من المرة الأولى. بعض النسوة ارتمين في حوض أخريات وبكين عالياً. مرة أخرى رفع غوته يديه المشبوكتين وحركهما بحرارة في اتجاه الغراف كليلسبرغ. لم يكن للتصفيق نهاية.

والآن، يا صاحب السعادة؟ تساءلت أماليا فون لفتسو.

أوماً غوته. ثم أشار إلى أولريكه في الناحية الأخرى التي كانت تجلس الآن بعيداً عنه، أبعد من ذي قبل. ومع ذلك كان واضحاً أن عينيها مغرورقتان بالدموع. إن له صوتاً مثل سبعة أسراب من النحل الفردوسي، قال غوته بعد برهة حتى يبدد الجوّ النفسي الثقيل الذي خيم على المكان.

كلامكم يسعدني، قالت. سوف تخبر الغراف بذلك، ربما يقضي ذلك عليه من الفخر والسرور.

عندئذ وقفت أميرة هوهنتسولرن عند المائدة وقالت عبر مروحتها الذهبية البراقة التي كانت مشهورة بها إنها ترجو - إذا كانت المقطوعة التالية راقصة - أن يُسمح لها بأن ترقص الفالس معه.

وافق وأوماً كيفما استطاع. كانت إيماءات من القرن الماضي.

انصرف ابن زوجة نابوليون قائلاً إنه سيظل يلاحق خطى السيد المستشار. لم يستطع غوته أن يرد كما يليق. كان يود أن يعرف عم يتحدثون على الطرف الآخر من المائدة. لم تجلس أولريكه على المقعد الذي أصبح شاغراً لتكون في مواجهة

غوته . بقيت ملتفتة إلى السيد دو رور ومحاوريه . حتى أماليا فون لفتسو التي كانت تجلس بجانب غوته مباشرة وجهت نظرها ناحية دو رور والمتحدثين معه . وأولريكه! كزهرة عباد الشمس كانت تستدير ناحية أحدث الشموس ، ليس فقط برأسها، وإنما بجذعها أيضاً، بل بكل كيائها . يرى الآن نصفها من الخلف . كانوا يتحدثون عن الأدب، هذا ما سمعه . سواء في فيينا أو في مارينباد لم يعد أحد يذكر سوى اسمين : بايرون وسكوت . اتفق الجميع على ذلك . كان بايرون وسكوت الكاتبين الوحيدين اللذين يقبل القراء عليهما .

شاركت السيدة فون لفتسو في النقاش : وماذا قال بايرون، يا سادتي، عن شاعرنا غوته؟ إنه *undisputed sovereign of European literature* (1).

كان من رأي السيد دو رور أن هذا مديح ملتبس . Sovereigns، السادة والملوك ينامون فوق عروشهم، في حين رحل بايرون إلى اليونان وشارك في حرب التحرير ضد الأتراك رغم أن حكومته الضعيفة، كلا، بل لأن حكومته هي التي منعت عبر الفيتو في مؤتمر فيرونا أن تساند الأمم الأوروبية الإغريق في حربهم التحريرية ضد الحكم العثماني .

(1) أي: «سيد الأدب الأوروبي بلا منازع» والمقصود هنا هو الشاعر الإنكليزي جورج غوردون بايرون (1788 - 1824) المعروف باسم اللورد بايرون Lord Byron . أما الكاتب الاسكتلندي والتر سكوت Walter Scott (1771 - 1832) فكان في تلك الفترة من أشهر كتّاب الروايات التاريخية في أوروبا . (م)

لقد أهدى بايرون حديثاً مسرحيته الشعرية «آشور بانيبال» إلى غوته، قالت السيدة فون لفتسو بشجاعة.

لا شك في ذلك، يا صاحب السعادة، إنك نصب تذكاري حي، بل أكثر النصب التذكارية الحية تأثيراً في عصره.

حصلت هذه الجملة التي قالها دو رور تصفيق الجميع.

وجد غوته أن لزاماً عليه أن يقول كلمتين عن الإعجاب بسكوت. إن سحره ينبع، يا سادتي، من روعة الممالك البريطانية الثلاث، ومن ثراء تاريخها. ونحن، بم تفيدنا المنطقة الممتدة من غابة تورينغن حتى صحراء مكلنبورغ الرملية؟ بلا شيء. الرواية الجيدة ستظل استثناء في ألمانيا. عندما كتبتُ «فيلهلم مايستر»<sup>(1)</sup> لم أجد أمامي سوى أكثر الحكايات بؤساً، مجموعة من الصعاليك تنتقل في الأرياف من نبيل إلى آخر.

لم يلق كلامه معارضة، ولكن لم يُرد أحد أن يواصل الحديث الذي بدأه. اغتاض غوته على الفور لأنه أرجع شهرة روايات سكوت وجمالها إلى ظروف ليس لسكوت أي فضل فيها. ثم هذه المحاولة السخيفة التي أضفى بها العظمة على روايته هو: انظروا، هذا ما صنعتها يداي بالتراث الألماني

---

(1) كتب غوته روايتين بعنوان «فيلهلم مايستر»، الأولى بعنوان فرعي هو «سنوات التعلم» (نشرت عام 1795)، والأخرى بعنوان «سنوات التجول» ونشرت لأول مرة عام 1807. وتعتبر الروايتان أنموذجاً للرواية التعليمية. فيلهلم في الرواية مواطن عادي يعيش في مجتمع الأمراء والأرستقراطيين، ولكي يشق طريقه في ذلك المجتمع يبدأ في التعلم والتجول، وفي النهاية يصبح طبيباً. (م)

الفقير. إنه عموماً لم يوفق إلى النبذة الملائمة التي تتيح  
للآخرين تلقفها كما يتلقف الإنسان كرة.

دون أي تمهيد انطلق السيد دو رور يروي أنه ذهب قبل  
الأمس إلى المسرح في فيينا، ثم ظهر البطل على خشبة  
المسرح، وببطء نزع خوذته البهية ووضعها فوق المائدة.  
الممثل الذي يؤدي دور البطل أكثر من طاعن في السن،  
المتفرج يرى يديه اللتين تضعان الخوذة وهما ترتعشان. ثم رفع  
يديه عالياً، اللتين ما زالتا ترتعشان بالطبع، وإلى يمينه ويساره  
العشيقان، وكلاهما رفع يديه إلى أعلى. وماذا عن أيديهما؟  
إنها ترتعش، انتظروا لحظة، لم أصل إلى الجزء المضحك  
بعد، نديمُ البطل يتسلل من الخلف إلى الأمام ويقف بجوار  
الثلاثة، ويرفع يديه إلى أعلى وبالطبع ترتعشان، أي أن المتفرج  
يرى ثماني أيدٍ ممدودة إلى الأعلى وهي ترتعش.

استغرق كل الجالسين حول المائدة في الضحك. تصرف  
السيد دو رور وكأنه ليس مسؤولاً عن الضحكات التي فجرها.  
يوحى رأس هذا الرجل بالشرق دون أن يعتبره الإنسان شرقياً.  
وجبه ما زال شاباً، وذكورياً خصوصاً. أنف ضخمة. فم صغير  
إلى درجة الاختفاء. شعر قصير ملتصق بالرأس ونظرة متحفظة.  
رجل بسيط عموماً، وإن كان يتفجر عنفواناً وطاقة. هذا الرجل  
الذي لا يزال في طور الشباب لن يفقد نفسه أبداً بسبب  
الآخرين. سيظل لنفسه. هكذا راح غوته يفكر مهاجماً إياه. لم  
يستطع الدفاع عن نفسه، ففقد التحكم في ذاته بسبب هذا  
الشعور. عليه الانصراف. النظرة تبوح بأشياء كثيرة، عليه أن

يسبر غورها. ولكن، ليس هنا. والآن، فلتنصرف أخيراً!!!

همس غوته في إذن والدة أولريكه: إلى الغد. كانت أمسية جميلة. أشكرك. ثم ضغط على كتفها برفق حتى تظل على مقعدها. كان قد خرج من القاعة قبل أن يفرغوا من الضحك على الأيدي الثماني المرتعشة المرفوعة في الهواء. ضحكت أولريكه أيضاً، شاركتهم الضحك، بكل براءة. هل يريد أن يفرض عليها أن تضحك وفق تعليماته؟ نعم، قال صوته الداخلي بتلقائية. حاول أن يتراجع عن رأيه، لكنه اعتبر ذلك نفاقاً. كان آخر ما رآه هو السيد دو رور واضعاً ذراعيه على مسند مقعد أولريكه. على المسند فقط؟ أم على ظهرها، أم حول خصرها؟ هذا ما لم يقدر على لمحّه أثناء تعجله الذي اعتبره ملائماً. غير أنه سمعه يقول لها، بصوت عال ودون خجل، وكأنهما وحدهما:

Il y a quelque chose dans l'air entre nous. (1)

ثم مد وجهه ناحيتها، وكأنها طيبة يجب أن تقرر ما إذا كان الالتهاب المصاب به خطيراً. وقد نظرت إليه بالفعل كأنها طيبته. إلى هذا الحد كانت إيماءاته الصامتة ملزمة. آخر ما سمعه كان من السيد دو رور أيضاً الذي دافع عن المسرح قائلاً إن أسوأ مسرحية هي دوماً خير من أفضل أنواع الملل. عادوا للتحدث عن فيينا. عندئذ كان غوته بالخارج، ثم على الناحية الأخرى، وفي الطابق العلوي في غرفته.

---

(1) أي: في الجو شيء بيننا. (م)

والآن؟ كيف؟ إلى أين؟ لن يبقى هنا على كل حال .

شتادلمان نائم، يون نائم . هل عليه أن يحزم حقائبه بنفسه؟

أَنْ تعرف تماماً ما يتوجب عليك فعله، ثم تحجم عن

الفعل : هذه هي الكارثة .

في كل ثانية كان يعرف، ولكنه لم يعترف في ثانية واحدة

بإمكانية عدم وجود شيء بينهما . لا شيء . لا شيء .

لقد ضاع منذ مرور العام الأول . هذا الشيء، الذي هو لا

شيء ولن يصبح شيئاً . هذا الشيء الذي طالما هو لا شيء

سيزداد دوماً أهمية وسيغدو شيئاً فريداً . هذا الشيء يُشعرك

بالإشباع، بالتأكيد، بالجدل، يصعد بك إلى كل قمة . غير أن

السقوط يمسي أكثر خسة . خفق قلبه . راح يقرع صدره . يدلك

رقبته . تحتم عليه أن يفتح نافذة . أن يستنشق هواءً نقياً، أن

يحرك ذراعيه، أحس أن هناك أفكاراً تستطيع أن تخنق

الإنسان . عليه ألا يستنشق كمية الهواء التي يحتاج إليها . عليه

أن يدخل الهواء إلى أنفه فحسب . القاعدة المجربة منذ عصور

طويلة : إذا شعرت بانحطاط، بفقدان السيطرة، بالانجذاب نحو

المستحيل - أين يبقى سندك؟ الخوف الأزلي من السقوط في

الفقر المدقع؟ لا شيء يُفقر مثل حب تعيس . اكتبها . لقد

منحك الرب أن تعبر عما تعانيه . يا لها من مزية بائسة : على

الإنسان أن يكون قادراً على إطلاق الرصاص على نفسه .

التعذيب هو أن يتحتم عليك التعبير عما تعانيه . «لوته»

أحضرت المسدس المعلق على الجدار، ونظفته بعناية ثم

أعطته لـ«ألبرت» كي يعطيه لـ«فرتز» حتى يضع حداً لحالته

المزرية بالمسدس الذي نظفته «لوته».<sup>(1)</sup> المعاناة قدرة. تصيب الإنسان بالقذارة. إذا انسدت الطرق فليس هناك من تطهير سوى الموت. أنت تفر إلى الكتابة . . . أنت لم تعانِ أبداً، أبداً، أبداً. حتى اليوم كان الآخرون هم الذين يعانون. السيدة برليتش. الرسائل التي تكتبها لك في عشرين صفحة، منذ عشرين عاماً. لم تعد تستطيع قراءتها منذ سنوات طويلة. رسائل امرأة مسكينة، مزعجة، لوثتها المعاناة، امرأة تقول إنها ولدت كي تحبك، وهي تنتظر أن تستجيب، ولو لثانية واحدة، كما تقول. الشفقة جارة الاشمئزاز. تستطيع الآن أن تكتب رسالة من عشرين صفحة إلى أولريكه فون لفتسو وتهدها قائلاً: إن عليها أن تتوقع رسائل أخرى من عشرين صفحة، لأنه يتحتم عليك أن تكتب بدلاً من أن تطلق الرصاص على نفسك. سبع عشرة لغة يتحدث الرجل الذي لا اسم له. إنه ينظر إليك من على كل الأصعدة. رجل كامل الأوصاف. طوله في تقديري 190 سم. رشيقي دون أن يكون نحيفاً. وجه ليس بالعريض ولا بالنحيل، يسوده العظم لا اللحم. صدغ يخفي ضخامته عبر شارب بارز ملتف لأعلى فوق الشفة العليا التي تتسم بالبساطة. يكاد الأنف يكون أقوى من اللازم. لا تخفف من قوته أي انحناءة. حاجبان عاليان متحكمان. على الشال البنفسجي حجر أخضر نفيس. ربما زمرد. لون عينيها. هذا ملائم، وسيلاحظ كلاهما ذلك بمجرد اختلائهما،

(1) إشارة إلى أحداث رواية «آلام فوتر». (م)



وسيحترفان ويهملان. تبدو اليوم في مظهر جميل، قالت له قبل الأمس عندما ذهب ليحضرها بعد انتهاء التنزه. لم تقل: أنت جميل. لقد حافظت على صحتك. جيد المظهر! في مئة صحيفة مكتوب أنه جيد المظهر. من المهين إهانة شديدة أن تتحمس الصحف لإظهار تعجبها بسبب مظهره الجيد. أسوأ من هذه الأنشودة التي تُغنى بسبب مظهره الجيد، إنهم يقولون بصوت أعلى: بالنظر إلى أنك عجوز منافق، فلا زلت تبدو في مظهر جيد للغاية. ليس هناك سوى الإهانة في ما يخص مظهر من هو في عمرك. وليس فقط إذا تعلق الأمر بالمظهر. انظر إلى بايرون وسكوت اللذين يسيطران على الوسط الأدبي. أصبحت «موضة قديمة». ليس هذا جديداً، ولا سيئاً. ربما سيئاً، ولكن ليس مميتاً. الإنسان لا يموت لأنه تقدم في العمر. اكتبها. السيئ هو أن تجد نفسك ممنوعاً من الحب. مسموح لك أن تحب، ولكن عليك أن تتعود على أنك لن تُحَب بعد اليوم، لن تُحَب أبداً. اكتب للسيدة برليش، اسمها إيزولده، اكتب لها. إنك تفهمها الآن. الآن تعرف كيف كنت تعذبها لأنك لم تلتفت إليها، ولأنك قابلتها بالشفقة التي تقارب الاشمئزاز. أن تُحَب دون أن تُحَب، هذا شيء اعتقدت أنه لن يحدث. لم يكن قد خَيْرَ من قبل أحسن ضربات القدر وأدناها - لهذا ولدت أولريكه فون لِفِتسو وثقفت. ليس هذا هو المعنى الوحيد لحياتها. سيلمع نجمها في كل أوروبا كزوجة للسيد دو رور. وقبلها ستجعلك تمر بالخبرة التي مرت بها عديدات من خلالك: شعور الإنسان عندما يُحِب ولا يُحَب.

ذات يوم دونت بحكمة متعجرفة تفتقر إلى الخبرة: لا أحد يحبني الآن، ولا أنا أحب أحداً، الموت وحده يقف في الزاوية. ألاّ يحبك أحد أمرٌ لا يكون حقيراً ودينياً إلا عندما تكون أنت واقعاً في حب امرأة لا تقابلك حباً بحب، امرأة تصدك. إذا كانت الخليقة يهملها فعلاً أن تجعل الأرض محتملة، أعني حياة البشر فوق هذه الأرض، فإنها تفتقد أهم وصية من بين الإرشادات التي حصل عليها البشر من الله على يد موسى: لا تحب. هذه هي الوصية رقم 1. ربما كان موسى منهكاً للغاية بعد أن ارتقى قمة الجبل التي يبلغ ارتفاعها 2244 متراً قبل أن يتلقى الوصايا، ولذلك لم يسمع الوصية الأولى التي نطق بها الرب. تقصير مأساوي لا يمكن تصحيحه. لو كان موسى قد أحضر معه هذه الوصية من سيناء، لما كانت البشرية سينقصها شيء سوى المأساة. الحب كان دوماً منبع كل مأساة. لقد كان من السهل الاستغناء عن الحب! من أجل التناسل لم يكن الحب يوماً ضرورياً. لم الحب إذا؟ حتى نلاحظ أننا لم نعد نحيا في الفردوس. حتى لا تبقى حياة بشرية بدون معاناة. وبدون حياة. كان الرب ذكياً. أنا إله غيور، هكذا قال.

تحتّم على غوته أن يتخلص من ملابسه، فقذف بها بعيداً. عليه أن يحرق كل الملابس التي ظهر بها يوماً أمام أولريكه. «تبدو جميلاً اليوم». خلال ثلاث سنوات هذه الجملة اليتيمة. كان يراها في كل مرة، ويعترف لها بحماسة كيف تبدو جميلة في هذا الفستان أو ذاك أو ذلك. كان يرتدي ملابسه

بعد تفكير عظيم خلال عامي 1821 و1822 كما لم يفعل طوال حياته كلها. بعناية مُحبة راح ينتقي الصدریات والشالات وبدلات السهرة والسترات. لم ترها أبداً. والآن هذا البديل: تبدو جميلاً اليوم. نعم، نعم، نعم، لم تقل فحسب: تبدو جميلاً، بل: تبدو جميلاً اليوم. حتى لا يعتقد أنه عموماً جميل المظهر. ناهيك عن أن يكون جميلاً. ولكن رجلاً في الرابعة والسبعين لا يمكن أن يكون تحت أي ظرف جميلاً. فإذا لم يستطع أن يحيا دون أن يكون جميلاً، أو على الأقل دون أن يجده الآخرون جميلاً، فعليه ألا يهرب إلى الكتابة، أي إلى الشكوى والبكاء. عليه أن يطلق الرصاص على نفسه كما يليق بالرجال.

وقف في غرفة تغيير الملابس أمام المرأة التي تصل حتى السقف. المصاييح الستة يميناً ويساراً كانت ترسل من جديد أكثر الأنوار ملاءمة. لم يكن يستطيع أن يجد هذا الرجل العاري في المرأة منفراً أو مثيراً لأدنى درجات التقزز. لم يستطع مقاومة شعور بالرقعة إزاء هذا العاري. لم يكن الشعور موجهاً إلى الشخص على الإطلاق، بل إلى العري وحده. عندئذ هبت عاصفة. اجتاحت موجة من العصبية. قلق يكاد يهزه هزاً ويطرده بعيداً عن المرأة. شوقه استدعى أولريكه. لم يكن هناك ما هو أغرب من تمني أولريكه إلى جانب هذا العاري الذي وصفه شخص - لم يعد يعرف من - بالشيخ الصبي؛ أولريكه التي ينثني جسمها انثناءً رائعاً في كل حركة. عندما كانت تسير بجواره كانت تدندن أحياناً. وهذه الدندنة التي تقترب من الغناء

كانت تقود حركاتها. في الواقع، هي في حالة رقص دائم. إنها ترقد الآن في فراشها، وكامل الأوصاف عديم الاسم يرقد بجانبها، أو فوقها. يشك في أنها ستضحى بعذريتها في الليلة الأولى. ولكن، مَنْ يعرف. لن يلتزم هذا الشرقي بالعوادات المحلية. وربما يحاول إقناعها بأن كليهما ولد ليتمرغ في نعيم الشرق، أو ليغرق في ذلك النعيم. إنه يحمل دوماً حلياً في حقائبه. وعندما تغلق الباب خلفها في جناحه، فسيجرب أولاً قطع الحلبي التي تناسبها. لا بد من أن ذلك سيكون تحدياً لهذا الشرقي المزيف، فأولريكه لا ترتدي حلياً. جيدها العظيم عار، وحلمتا أذنيها اللتان لا تفلان عظمة عاريتان أيضاً. أنت بحاجة إلى الألوان يا آنستي المبجلة. أو إلى النيران، أي الماس. لن يذهب بالتأكيد إلى غرفة أولريكه، هذا أمر مفروغ منه، بل سيأخذها معه إلى جناحه، ثاني أكبر جناح في قصر كليلسبرغ. فرغا الآن من القبلات. أنت، أيها الرجل العظيم، هكذا قالت له يوماً عندما وقفا في أحد الأروقة. ولكنها ربما تكون قصدت الشاعر فحسب. الآن يمكنها أن تقول الجملة بحماسة أكبر: أيها الشاب العظيم. إذا كانا قد فرغا من القبلة الأولى. نوافذ القاعة مظلمة في الناحية الأخرى. فوق القاعة تتناثر نوافذ يشع منها ضوء. ليس هناك غرفة مضيئة بحق. الإضاءة خافتة تشجع على كافة الأفعال.

Il y a quelque chose dans l'air entre nous.

عاد للتنفس الطبيعي، فسار إلى الناحية الأخرى، إلى غرفة تغيير الملابس ووقف أمام المرأة من جديد. غريب جداً أنه

يستطيع أن يشارك هذا العاري أحاسيسه . كان يود أن يرت عليه مداعباً . ولكن، لا . هناك، في منطقة الخصر اللينة التي تميل إلى الامتلاء، عضوه التناسلي الذي كان يطمح طيلة حياته إلى أن يكون كلاً متكاملًا . تحتم عليه طيلة حياته أن يروض طموح عضوه الجامح إلى السلطة . لم يوفق في ذلك دائماً . مرت أوقات كان ذلك الطموح يوجهه بقدر لم يكن يجرؤ على الاعتراف به . لم يكن يتمنى أو يفعل إلا ما يريده هذا العضو، حتى اليوم . إن الحياة لا تتجلى بحق إلا عبر اللغة . ولكن غير مسموح لهذا العضو بأن يظهر فيها، إلا بالتلميح أو باللفظ اللاتيني . هذه فضيحة . يمكنك القول : فضيحة ثقافية . وأنت لم تفعل أي شيء للتغلب عليها . ابحث عن أعذار، وافتخر بهذا الفعل التحريري للغة أو ذلك . طيلة حياته كان عضوه التناسلي يبذل قصارى جهده لكي يعبر عن ذاته، أي ليمارس حقه في الحياة، وكان دوماً يبحث بعيداً، في مغاور سخيفة يسودها الجبن . كان هذا أمراً معيباً . اعتذر ثانيةً إلى عضوه . أطفأ الأنوار وجلس في الغرفة شبه المظلمة . لن يذهب إلى الفراش، هذا أمر واضح . قد يذهب إلى كل مكان، ولكن ليس إلى الفراش . إلى المكتب في الناحية الأخرى؟ كلا، إلى الصالون . جلس على الأريكة التي اعتاد الجلوس عليها عند مجيء الضيوف . أولريكة كانت هنا يوماً، وبدون أن تنتظر حيثما أراد لها أن تنتظر، سارت إلى الأريكة وجلست . كانت خالية البال . وصريحة للغاية . ضغط وجهه الآن في الوسادة الذهبية المنقوش عليها أشكال طيور حمر باهتة . طيور لا تطير

إلا في الأساطير. على هذه الوسادة أسندت ذراعها. ولكن كيف أسندت ذراعها! امتد ذراعها في الهواء ثم هبط على الوسادة برقة ونعومة. فكر في لوتسيدور في «الرجل ذو الخمسين عاماً» الذي دفن وجهه في وسادة عندما استبد به الحزن على لوسيندا. غارقاً تماماً في آلامه. عندئذ وقفت لوسيندا أمامه. كان قد اعتقد بأنه فقدها. لا أريد أن أحيأ إلا معك، قال لها. وهي: لوتسيدور، أنت لي، وأنا لك. ثم عانقته ورجته أن يعانقها. روايات، روايات، روايات!

تناول الوسادة وقذف بها إلى أقصى ركن. لا يتبقى إلا قراءة وكتابة الكتب التي تحدث فيها أحداث شريرة، كما في الحياة. تشوق إلى رواية يسود فيها اليأس. فترتر! كلا، لقد استطاع الانتحار ونال خلاصه. إنه لا يقدر حتى على الاستغراق في النوم، النوم لمدة ساعة، الخلاص لساعة! البقاء يقظاً - هذا هو العذاب. اليقظة تعني التفكير فيها. غوته هو عصر الروكوكو. مَنْ قال ذلك؟ ربما ابنه المدلل أوغست. بذرته الفاشلة. غوته هو الروكوكو، هو القرن التاسع عشر. هذا ما قاله الابن المدلل. آخ، لو كان الروكوكو فحسب. آخ، لو لم ينته ذلك العصر، ذلك العهد اللعوب، المفعم بالخفة والمرح. ذلك العهد الذي لم يكن العالم يستطيع أن ينال منه شيئاً. ولهذا دمره العالم. لم يكن مسموحاً إلا بما يُطاق. ثم هذه الثورة الحمقاء بشعاراتها التي تعد بالسعادة، إلا أنها لا تسعد إلا رافعيها، أولئك الذين يرسلون البشر إلى طرق يغمرها الأمل، غير أنها تنتهي بهم إلى الكارثة . . .

كان عليه أن يستعيد تلك اللحظات التي تبقت في ذاكرته من عام 21 و22. ثم الفارق بين لحظات الصيف الحالي . النتيجة: لو كانت أولريكه اليوم هي أولريكه العامين الماضيين، لما كان يجلس اليوم في الظلام ويرتب اللحظات كما يرتب الأثري مُكتشفات من عصور ما قبل التاريخ. أولريكه العام الماضي وقبل الماضي امتلكت فؤاده عبر حيويتها المنطلقة، عبر حماسها غير المبالية، عبر السخرية التي كانت تلعب بها دور الأم تجاه شقيقتها؛ وخصوصاً، عندما تقول شيئاً يقع على أذنها هي موقعاً حسناً. كانت تستدير عندئذ ناحيته وكأنها تقلده، راغبةً في أن تسمع منه رأيه في ما قالته لتوها. أضحى ذلك عادةً فاتنة، استدارتها ناحيته مع السؤال الذي تطرحه بالإيماء فحسب: هه، ما رأيك؟ في بعض الأحيان كانت تنطق بذلك مباشرةً: وما رأي السيد المستشار في ذلك؟ بل وكانت تسمح لنفسها باستفزازات صغيرة: هذا إذا كان السيد المستشار قد أصغى أساساً، وهو ما لا نستحقه، نحن البنات الساذجات. أياً كان موضوع الحديث، كانت تجد الفرص التي تُظهرُ فيها أنه أهم شخص بالنسبة لها بين كل الحاضرين. كان ذلك يحدث له أيضاً مع آخرين، ولكنه لم يحدث أبداً مع فتاة لم تكن تريد تكريمه فحسب، بل كانت تُظهرُ دوماً بلطف ومرح احتياجها إلى أن تنشئ علاقة معه تتسم ببعض المخاطرة. كانت على ما يبدو تعتقد بأن عليها أن تبذل جهودها حتى لا يشعر ثانية واحدة بالملل بين عائلتها. عندما قالت أمها لها إن غوته يتمنى أن يكون له ابن وأن يثقف أولريكه لتصبح زوجة مثالية لابنه، قالت

له في لقاءهما التالي إنها تبحث عن إجابة للسؤال: لم لا يثقف السيد المستشار ابنه المتخيل ليناسبها، بدلاً من أن يُعدها هي للابن؟ وتفسيرك؟ سألها غوته. هناك إمكانيتان، ردت أولريكه، إما أن السيد المستشار يعتقد بأن ابنه هو حلم أي فتاة وأي عائلة، أو... وتطلعت إلى غوته، وفتحت ذراعيها وقالت بأكثر الأصوات جذلاً: أو أنه أمر يدخل السرور إلى قلب السيد المستشار، أن يعيد تربية فتاة قلقة مثلي. بدلاً من الرد أرسل غوته النظر أولاً إلى الأم وكأنه لم يكن يتوقع أن تبوح الأم برغبته إلى الابنة. استغلت أولريكه فترة الصمت: إنك مرب متحمس إلى حد أصبح معروفاً ومتداولاً بين الناس. ومن منا لا يتشوق إلى أن يتلقى تربيته على يديك؟ الإمكانية الثالثة: السيد المستشار يعتقد بأن على امرأة من آل لفتسو أن تتلقى تلقيناً إضافياً حتى تصبح جديرة برجل من آل غوته! ضحك الجميع. عندئذ شرع غوته بصوت يميل إلى الخفوت في تقديم اعتراف، هكذا سمّاه هو. لم لا أعترف بأن حكاية الابن كلها لم تخطر على بالي إلا لأنني أردت أن أقول شيئاً يجعلني في موقف يسمح لي بالتواصل الدائم معك؟ استقبلت الأم وأولريكه اعترافه، هكذا اعتقد، بنوع من التأثر. أماليا، الشقيقة الحيوية دائماً، كان عليها بالطبع أن تدلي بدلوها في الحديث: وعندما تفرغون من تربية ريكه، هل سيأتي الدور علي؟ وبرتاً: وأنا؟ في نهاية موسم الصيف حان الوداع.

On s'est promis de s'écrire.<sup>(1)</sup>

(1) أي: تواعدنا على التراسل. (م)



كل هذه الساعات جعلته ينتظر بشوق هذه الصيفية . بعض الشيء . والآن هذا البرق . أولريكه الجديدة . نظرتها . وقتها . استشف من كل أفعالها وأقوالها أنها تواصل ما بدأ في العام الماضي . أظهرت أنها تفعل ذلك . ولكن الآن كأولريكه جديدة . مثل العام الماضي كانت تلتفت إليه أثناء الأحاديث ، طالبة حُكمه ورد فعله . غير أنها كانت تفعل ذلك وكأنها تقتبس ما فعلته في العام الماضي . ما الذي لم يره ، أو ماذا رآه على نحو خاطئ؟ من أين تولد انطباعه أن أولريكه وهو يسيران على طريق التلاقي؟ من أين أتاه خلو البال في ما يتعلق بالفارق العمري بينهما؟ مع أن الطابع الفضائحي لظهوره مع أولريكه لا يستحق التفكير فيه . هل كانت هناك قيود ، هل واجه صداً أو رفضاً دون أن يلاحظ ذلك؟ إذاً فهو لم يسئ فهم هذه التفاصيل أو تلك ، بل كانت مشاعره خاطئة من الأساس . عاشا بجوار بعضهما البعض دون التقاء . ربما كانت ستشعر بالصدمة ، وستشعر أمها أيضاً بالصدمة لو عرف كلاهما في أي وهم كان يعيش . ما السبيل للخروج من هذا الوهم؟ هذا ما لم يعرفه . منذ عقود يمر بالخبرة نفسها في ما يخص دراسته عن الألوان أو بموقفه المناهض لنظريات نيوتن . كل علماء الطبيعة في هذا العصر تقريباً يستهزئون به أو يظهرون قلقهم بسبب عناده وتصلبه في الرأي . ولكنه لا يستطيع التراجع عن دراسته حول الألوان ، تلك الدراسة التي يشعر بنتائجها أكثر من كونه قد حسبها بدقة . ولكنه يفضل لو تراجع عن آرائه وفرّ إلى نيوتن ، معترفاً بأن دراسته لا تعدو كونها وهماً عنيداً ، عن أن يعتقد بأن

من الممكن أن يكون قد شعر بأولريكه على نحو مغاير عما هي بالفعل . إذاً لم تكن كما يتخيلها، فإنه يحيا في الوهم الذي لا يستطيع حياله شيئاً . يطلق على ذلك «الحب» . يشعر به كالحريق في جسده . أو كصرخة فريدة . أو عموماً ككارثة . لم يعرف أحد بعد ماذا انهار أو انفجر أو دُمر . السماء في انهيار، لم يعد يرى إنساناً آخر . نهض وكوّر قبضتيه ثم ضغطهما على عينيه . وبكى لمدة طويلة . ثم سمع نفسه يغني . وغنى . غنى أغنية شوبرت الموضوعة على كلماته :

لن يشعر بما أعانيه  
إلا من كابد الشوق!  
وحيداً ومهجوراً  
من كل بهجة،  
أرنو إلى السماء  
من كل وجهة .  
آه، كم أنت بعيد،  
يا من خبّرني وأحبني!  
الدوار تملكني،  
والنيران شبت في جوفي .  
لن يشعر بما أعانيه  
إلا من كابد الشوق!

غنى البيت الذي يقول فيه «والنيران شبت في جوفي»

مرتين. وصعد بطبقة الصوت عالياً جداً عندما غنى: «لن يشعر بما أعانيه»، تماماً كما فعل الغراف كليلسبرغ. لاحظ أنه يقلد الغراف، وأنه يفعل ذلك بمشاركة وجدانية عميقة.

سار إلى الناحية الأخرى، وارتدى فانلة النوم البيضاء. ما زال لا يستطيع الذهاب إلى الفراش، رغم أن النوم سيحرره من طغيان الفكر. ولكن الرقاد الآن وانتظار مجيء النوم - لا يستطيع تخيل ذلك. راقداً سيواجه بلا رحمة أبشع التصورات. عليه القعود. والأفضل الوقوف. السير، جيئة وذهاباً، ويده خلف ظهره. هيئته المعتادة التي اجتاز بها كل شيء حتى الآن. سار بعنف جيئة وذهاباً. هذه الغرف صغيرة للغاية، لا تصلح للمشي طويلاً وعرضاً. في فايمر لديه ست غرف متتالية، إذا لزم الأمر، بدون أبواب. طريق ممهد خال. أما هنا فهو سجين هذه التمشية جيئة وذهاباً. متى كان فاقد الوعي هكذا؟ متى؟ كان عليه أن يتقبل أفكاره. كلما حاول أن يصددها بصرامة، أحكمت قبضتها عليه بقوة أكبر. إذاً، لا تدافع عن نفسك هكذا. من البؤس أنك تنبأت بكل هذا مسبقاً في رواياتك. ألم تكتب مثلاً أن أي عقبة تقف في طريق عواطفنا تزيدها اشتعالاً بدلاً من أن تقلل منها؟ وعندما تمر بذلك في الواقع لا تجد سوى الشكوى وفقدان الوعي.

ينبغي عليه، بكل ما أوتي من قوة فكر وإرادة أن ينفذ قراره ولا ينظر إلى الاتجاه الآخر. لكنه وجد نفسه فجأة يقف أمام النافذة مجدداً. فتحها وارتكز على حافتها ماداً جذعه إلى الأمام حتى يستطيع أن يرى بدقة ما لم يره: ما يحدث في

الناحية الأخرى. عد إلى مكانك، ابتعد عن النافذة، قل لنفسك: لن تسمح بأن تعرض ذاتك مرة أخرى لخيبة الأمل القابعة في انتظارك. غير أنه وجد نفسه عند النافذة متطلعاً إلى الناحية الأخرى. أدرك أن من حماقة أن يطلب من نفسه شيئاً مستحيلاً. تدرب على أن يزيد الفترة الزمنية الفاصلة بين كل ذهاب إلى النافذة. بهذا كان يأمل في أن تجيء لحظة لا يتحتم عليه فيها أن يسير إلى هناك. وافقه ذلك. أن يطلب من نفسه شيئاً يشعر بأن من الممكن تنفيذه. لن أذهب بعد الآن - هذه النية خطأ، مُتْكَلِّفَةٌ، إنها أكذوبة حتى وإن كانت لا تزال مجرد نية. جملة «لن... بعد الآن» تحولك إلى كاذب. أما أن تظل في كل مرة جالساً فترة أطول من السابقة، فهذا برنامج من الممكن تنفيذه بنجاح. حتى الآن كان ما يهملك هو أن تعرف ما يحدث لك. ربما كان الابن أوغست محقاً. كان «روكوكو». الآن، فجأة، أصبح يواجه الحياة بجدية. لو يستطيع أن ينطفئ كالضوء. هذا هو الحل، وليس تلك الأفعال البائسة التي تُطَلَّب من المرء: مسدس، سم، حبل. أن ينطفئ كالضوء. انتهى. لن تسمع الولوجة المستهزئة بعد ذلك. عندئذ يكون قد نجح أخيراً في تقليد بطله فِرْتِر. كنتَ تحصد دوماً استهزاء مَنْ لم يعيش ذلك. الهرب، إلى الشجيرات والأسماك، إلى القمم السماوية التي لا يصل إليها أحد. هذا أكثر ما يغضبهم، أن تصل إلى مكان لا يصل إليه أحد. ليهطل المطر فوق رأسي، يا الله، حتى وإن كان نيراناً.

دق شتادلمان الباب. إنها الخامسة إذًا. أحضر شتادلمان

الماء من ينبوع. كان معتاداً على إحضاره لسيدة في الفراش .  
صاح غوته أن يضع الكأس في الخارج .

ما معنى كونها امرأة؟ بسرعة وحماسة فرضت الريبة بالنساء  
نفسها على أفكاره، وهي ريبة تجمعت عبر خبرات عديدة .  
أنت أخطأت التصرف، وهو ما يتضح عندما تنظر إلى عديم  
الاسم . أنت تعرف ذلك أيضاً - النساء، لا بد من غزو  
قلوبهن . لا بد من أن يشعرن بأن الرجل يستحوذ عليهن، هذا  
ما تريده النساء . أن يفعل الرجل بهن ما يشاء . استسلام المرأة  
هذا ليس خضوعاً، هي تقدم نفسها طواعية من أجلك، هذا في  
نظرها يساوي المتعة ذاتها . أن تهب المرأة نفسها إليك دون قيد  
أو شرط - هذا شعور لم تعشه سوى مرة واحدة . مع  
كريستيانه . عبرها وهبت نفسك أنت أيضاً . أصبحت على  
شاكلة رجال هم من تلقاء أنفسهم هكذا . أنت بحاجة إلى  
كريستيانه أخرى . كلا كلا كلا، لست بحاجة إلى أي  
كريستيانه، بل إلى كريستيانه الوحيدة الفريدة . عندما رَقَصْتَ مع  
الفرنسيين، وعندما فَعَلْتَ ما هو أكثر من الرقص، لم تشعر  
بالألم، بل بزخم من مشاعر الكآبة والحزن، وهي مشاعر تنتظر  
بداخلك كي تُوقظ .

عندما تحتم عليه السير إلى النافذة مرة أخرى - وهو يسير  
الآن دون أن يلوم نفسه - سمع صوت شتادلمان يصيح من  
الخارج أن الفطور جاهز . لقد أحضره من دار المشرف على  
الطعام . بصوت يغلبه الانفعال، على كل حال أعلى مما يلزم،  
صاح تجاه شتادلمان أن يرفع المائدة . أن يأكل ويشرب ويعيش

يومه - كلا، عليه أن يجلس ويحاول ألا يفكر، ألا يفكر في أي شيء. لم يعد يقف إلا بالقرب من النافذة. لم يعد يستطيع المقاومة. لم يعد يريد المقاومة. شعر بأنه في خطر، لكنه لم يكن يعرف كيف يتحاشاه. سيبقى واقفاً عند النافذة المفتوحة محملاً في قصر كليبلسبرغ حتى ينقلوه على محفة، إلى أي مكان يريدون.

ثم هذا النداء المتصاعد من أسفل. أصابته رعدة. ألقى نظرة إلى أسفل. كانت يوليا، أميرة هوهنتسولرن، التي كان بالأمس مديناً لها برقصة. لأنها أشارت إشارة راجية، أجاب بإشارة أنيقة روتينية تعني: تفضلي، اصعدي، أنا سعيد بزيارتك. تعجب لأن هذه الإشارة صدرت عنه وكأنها من تلقاء نفسها. صعدت إليه، ومعها جاءت فتاة تدعى ليلي.

بصوت مرح اشتكت الأميرة في البداية لأنه تنبأ لها في الأسبوع الماضي بطقس جيد. ولأنه يُعتبر خبيراً بالسحاب والطقس فقد وثقت في كلامه. ولكن ماذا حدث، لقد ابتلت من المطر.

قال غوته: كنت الأسبوع الماضي لم أزل شاباً، وبالتالي قاسياً.

معي سيدة شابة من برلين، وهي تحمل إليكم تحيات من... ثم ألقنت نظرة متسائلة إلى الشابة الجميلة التي لم تتعد الخامسة والعشرين.

من تسلتر، قالت الفتاة، إنني أتلقى على يديه دروساً في الغناء.

بالضبط، تسلتر، قالت الأميرة.  
ربما يكون هو صديقي الوحيد، قال غوته.  
إنه يحبكم للغاية، قالت المدعوة ليلي.  
وأنا أكثر، رد غوته.

تسلتر، شوبرت، عما قريب لن يسمع المرء قصائدكم إلا  
مُغناة، قالت الأميرة. ولكنكم لا تستلطفون شوبرت، واصلت  
ثرثرتها، وأنا أعلم السبب أيضاً.  
صدرت عن غوته إيماءة تبين أن الفضول يتملكه للغاية.  
لأنه يضع نظارة فوق عينيه، فرانتس المسكين، وأي  
نظارة.

قال غوته: عزيزتي الأميرة، يمكنك أن ترتدي عشر  
نظارات ولن يزعجني ذلك أقل إزعاج.  
شكراً، صاحت الأميرة التي كان كلامها دائماً صياحاً أكثر  
منه حديثاً.

طلب غوته منهما أن يستريحا. على الأريكة أو على  
المقاعد حول المائدة. جلست المدعوة ليلي فوراً على  
الأريكة. بالضبط في المكان الذي جلست عليه أولريكه قبل  
عدة أيام. لم يكن باستطاعتها أن تضع يدها على الوسادة  
الصفراء ذات الطيور الأسطورية الحمراء الباهتة، لأنه كان قد  
نفاها إلى الركن. أراد أن يجلس على كرسي. فقالت المدعوة  
ليلي بلا خجل إن عليه أن يجلس بجانبها. وهو قال بأسلوبه  
المعهود: لم أكن أنوي شيئاً آخر.  
أما هي - على ما يبدو لتؤكد أنها لم تأت إلى هنا كتلميذة

غناء، بل كمعجبة - فقالت: اسمي ليلي، فقط، ليس لدي حديقة .

ستحصلين عليها، قال غوته، وكأنه يمثل في مسرحية كوميدية. كان يسعد دوماً عندما يلمح شخص إلى شيء فعله هو منذ وقت طويل. قصدت بكلامها قصيدته «حديقة ليلي» إذاً.

ماذا أفعل بحديقة معجب، قالت، إن لم يكن غوته بين العاشقين. هل تتذكرون آخر بيت في «حديقة ليلي»؟  
غوته: أحياناً أعتقد بأن العالم والزمن قد طمسا أكثر مما كان موجوداً.

ثم راحت ليلي تتلو البيت كما لا يمكن أن تتلوه سوى معجبة متحمسة درست فن الغناء: أشعر بذلك! أقسم! ما زلتُ في كامل قواي!

وهو: رائع، يا ليلي. عندما أصغي إليك أعتقد أن عليّ ألا أخشى أن ينساني الناس بعد الموت.  
لكنكم ما زلتم تعيشون يا سيادة المستشار، صاحت. هذا الشعور يسكنني.

تسلتر يكتب له دوماً عن تلميذاته الجميلات، قال غوته، الآن يعرف ماذا يعني.

استدارت ناحيته تماماً وقالت: إنكم أجمل بكثير مما يمكن للتمثال النصفي الذي أبدعه راوخ أن يوحى.  
غوته: آه، آه. بدا صوته مُعذباً.  
هذا أفضل من العكس، أضافت ليلي.



إذا كان هذا هو رأيك فلا بد من أن يكون صحيحاً، حتى لو لم يكن صحيحاً، قال غوته.

- إنكم تتحدثون كما تكتبون، هذا superbe<sup>(1)</sup>.

- ولكنني لم أقل شيئاً بعد.

بلى، قلت: كنت الأسبوع الماضي لم أزل شاباً، وبالتالي قاسياً. جملة كهذه، على النحو الذي تنطقونها، تملأ عليّ جوانحي.

كان حديثاً شيقاً. سمع غوته نفسه يتحدث ولاحظ أن زائرتيه مصغيتان. عندما اتضح لهما أنه لم يكن في برلين حتى الآن، توجب عليه أن يعدهما بزيارة برلين قريباً. قال إن ابنه أوغست وزوجته أوتيليا لا يريدان في الفترة الأخيرة أن يقضيا شهور الشتاء إلا في برلين، وأنهما يرويان في كل مرة بحماسة أكبر عن مشاعرهما وهما يعبران بوابة براندنبورغ.

وهو؟

حسنٌ، إنه يعدهما، إذا كانت لديه الرغبة في السفر خلال الشتاء القادم . . . وعندما تردد الآن استدارت ليلى ثانية لتكون في مواجهته تماماً، بل ومدت يديها لتمسك بيديه، وقالت:

معذرة، ولكن لا بد من مجيئكم إلى برلين، من أجل تسلتر، من أجل برلين. من أجلي. اغرورقت عيناها بالدموع، ثم تركت يديه فجأة. الآن سرت في أوصالها رعشة. ما الذي تجرأت عليه! انتحبت ولم تقل سوى: معذرة، من فضلكم،

---

(1) أي: رائع. (م)

من فضلكم، من فضلكم. ثم نهضت واتخذت وقفة الغناء  
وشرعت تشدو: لن يشعر ما أعانيه، إلا مَنْ كابدَ الشوق.  
بتلحين تسلتر. غناؤها أنطق لحن تسلتر البسيط بمشاعر تعجز  
عنها موسيقى شوبرت المتطاولة.

لم يستطع البقاء جالساً. نهضت يوليا فون هوهنتسولرن  
أيضاً. واقفين أخذوا يصغيان. ثم عانق كلاهما المغنية. قبلَ  
غوته يدها. عندما رفع قامته، ضمته إليها، ثم طبعت قبلة على  
فمه، وضحكت ضحكة تكاد تكون مجلجلة وقالت:

- هذا ما أمر به تسلتر. قال: التحية وما يلزمها. لا يمكن  
أن يكون قصد شيئاً آخر سوى القبلة.

راحت عيناها تنتقلان متسائلتين بين الأميرة وغوته. أوماً  
كلاهما. وقف غوته قريباً جداً من ليلى حتى كاد يلتصق بها،  
ثم قال بنبرة حرص على أن تحمل أكبر قدر ممكن من الطيش:

لو لم أكن - حبيبتى ليلى - أحبك،

أي غبطة ستمنحني هذه النظرة!

ولكن، لو لم أكن - حبيبتى ليلى - أحبك،

ما السعادة إذاً؟

دارت ليلى حول نفسها كراقصة ثم صاحت: ألف شكر،  
صاحب السعادة.

غوته بأعلى طبقة صوت: كان ذلك عام 1775.

يكفي الآن، صاحت الأميرة.

ركضت ليلى إلى الباب، واستدارت مرة أخرى قائلة: قبل أن أفسد كل شيء، وداعاً! ثم بصوت خافت، متواطئ تقريباً: إلى برلين. وأضافت أيضاً: وسلامي إلى أولريكه. ثم انصرفت.

أومأت الأميرة وقالت: كانت هذه ليلى بارتاي. ثم تهجّت الاسم، وأضافت: الحياة ليست سهلة. أكمل غوته: آه، نعم.

لقد فعلتموها مرة أخرى، قالت الأميرة، ليس عليكم إلا أن تقولوا: آه، نعم.

فرد غوته بنبرة من فوجئ: نعم!؟

هي: وبذلك تتم البرهنة على صلاحية استخدام «آه، نعم» في كل المواقف.

آه، نعم، قالها وكأنه يتنهد.

انصرفت الأميرة، وسار هو إلى النافذة ولوح للمرأتين اللتين كانتا تلوحان إلى أعلى. ثم اختفتا. لم يعد يرى سوى قصر كليبلسبرغ. عاصفة جميلة، ليلى هذه، و...؟ لا شيء. أحاديث روتينية. لم يفكر - حتى أثناء شدوها - إلا في أولريكه. هل ضاع وانتهى أمره؟ إذا لم ينعق منها، فقد ضاع وانتهى أمره. لأنه ضيّعها لدى رجل بلا اسم. الآن في ضوء النهار كان الشعور بالفقدان أكثر إلحاحاً منه خلال الليل. كان الليل رحيماً به. أما الآن، الضوء الغامر والقمم المحيطة. هناك

في الأسفل طريق التنزه الذي يقود إلى الينبوع، إلى «كرويتس برونين». كل شجرة من أشجار هذه الطريق كانت شاهدة على سيره مع أولريكه، كل شجرة ستسأله الآن، إذا نزل إليها: ماذا حدث؟ أين هي؟ لن يسير بعد اليوم أبداً على هذه الطريق. لن يذهب بعد اليوم إلى «كرويتس برونين». لم يكن يريد أن يتحمل بعد اليوم تلك النظرات المرححة وتلك الهمسات المتعاطفة أو الشامته للمتزهين. الأشياء السيئة لا تغدو كذلك إلا عبر البيئة المحيطة بنا. ما زال يقف عند النافذة.

حقاً، لقد ظهرت أولريكه على الناحية الأخرى، على شرفة قصر كليبلسبرغ. لم يحرك ساكناً. لقد رأته على كل حال. أرسلت النظر إلى الناحية الأخرى، إلى أعلى. وبيطاء رفعت ذراعيها. رفعتها عالياً وبلا مشقة، على نحو لا يمكن أن يفعله سواها. بدا ذلك، وبفضل استقلالية أطرافها عن جسدها، وكأن الأذرع البشرية لم تُخلَق لتبقى متهدلة هكذا يمناً ويسرة. إنها لا تمارس وظيفتها الطبيعية إلا عند رفعها. هاتان الذراعان لا تعترفان بشيء يدعى الجاذبية الأرضية. نعم، هذا هو الوصف الصحيح. ويكفيها هذا. المخلوق بأكمله كان خفيفاً لدرجة أن المرء لا يريد أن يراه معرضاً لريح أقوى. والآن، راحت تلوح بيديها. حركات يديها بدت أيضاً وكأنها لا تسيطر عليها. اليد تلوح من تلقاء نفسها. ربما تيار هواء. رفع الآن ذراعيه، ويديه، ببطء وثقل بالغين، وكأنه غير واثق من ذراعيه: هل ستسقطان ثانية؟ إن حدث الآن، فلأبداً. بيد أشارت إلى نفسها، وباليد الأخرى إليه، فهم، وأجاب بالإشارات:

تفضلي، تعالي، إذا كنت تريدين. وجاءت. كادت تعدو. على  
الدرج أيضاً سمعها تركض. ودخلت قائلة:  
لقد اختلفتم هكذا ببساطة، يا صاحب السعادة. مرة واحدة  
لا ينظر المرء تجاهكم، فإذا بكم تختفون.  
آه، قال غوته، لم أكن أريد أن أسبب الإزعاج أكثر من  
ذلك.

لمن؟

لك.

نعم؟ قالت متسائلة.

نعم.

الإزعاج، قالت أولريكه. صاحب السعادة، أنتم لم  
تتعلموا أبداً أن تزعجوا أحداً.

بالضبط، ولهذا انصرف. لو لم ينصرف، لتسبب في  
الإزعاج. ثم نطق بالاسم. كان عليها الآن أن تتحمل ذلك.  
دو رور، كررت الاسم. إنسان سريع، هذا السيد دو  
رور. ثم أوضحت أن عديم الاسم الأول ظل حتى منتصف  
الليل فحسب دون اسم أول. في منتصف الليل باح الرجل -  
أياً كان هو الآن - باسمه الأول.

أمر شيق، قال غوته.

كفى تفكيراً في هذا الرجل ذي السرعة الشيطانية، أردفت  
أولريكه. أكدت على نطق «السرعة الشيطانية» حتى يسمع أنها  
تستخدم كلمة تعلمتها منه. ثم أضافت أنها تحب هذه الكلمة،  
تحبها للغاية، السرعة الشيطانية. من فضلك لاحظ، هي لا

تحب الشخص الذي تصفه هكذا، بل تحب الكلمة. إنها تحب الكلمات التي يمكن أن يفهمها الإنسان من جرسها. كلمات تثق في مخيلة الإنسان.

رجاها أن تجلس. جلست على أحد كراسي المائدة المستديرة. الآن يمكنه بالفعل أن يسأل أين هو عديم الاسم الأول. لا بد من أنه فقد اسمه من جديد بعد طلوع النهار. انصرف، إلى المكان الذي يستحقه.

ألقى غوته نظرة عليها أن تفهم عبرها أنه ينتظر منها أن تشرح له ما تعنيه.

أراد السيد دو رور أن يأخذها معه. إلى جناحه. في البداية، قال لها، سأبوح لك الآن باسمي الأول. ثم قال لها اسمه الأول. ثم قال لها: لأنه باح لها باسمه الأول فقد أمسى تحت رحمتها. لا يعرف كيف سيحيا هذه الليلة بدونها. عندئذ قالت لنفسها: الآن علي الانصراف، وانتزعت نفسها، ثم ذهبت. غير أنه - بالتأكيد دون تفكير - صاح: هكذا لا! ثم أمسك بها، وجذبها بعنف ناحيته، إليه، وأمسك برأسها بين يديه، وألصق نفسه بها، وجهه على وجهها، الفم على الفم، هذا ما أعطهاها القوة التي افتقدتها في المرة الأولى، فانتزعت نفسها منه وجرت بعيداً. وصلت إلى غرفتها. أغلقتها بالمفتاح. كانت ترتعش. لا تعرف كم من الوقت مضى، ثم وقفت وراء الباب وأصاحت السمع. هل لاحقها؟ لا تعرف كيف وصلت إلى فراشها. لم تستطع أن تستغرق في النوم. تود أن تسأل سيادة المستشار شيئاً.

تفضلي .

لقد أخطأت في كل شيء . عاملت دو رور كمجنون أو بدائي متوحش . هذا ما جعله مجنوناً ومتوحشاً . هل كان عليها ألا تسايره من البداية؟ الروكوكو، يا صاحب السعادة! الروكوكو! بدلاً من بيتهوفن على الفور .

لم ينطق غوته بكلمة . جرب أن يُظهر على وجهه تعابير عديدة . لكنه لم يجد تعبيراً .

صاحب السعادة، صاحت . ما زالت هنا .

استعاد المنظر مرة أخرى داخله ، كلمة كلمة ، حرفاً حرفاً ، تماماً كما صورته . لقد مثلت بالحركات أيضاً أي وضع كانت فيه . لا بد من أن يعرف الآن ما إذا كان مسموحاً له بالسؤال عن الاسم الأول لذلك الذي بقي حتى منتصف الليل عديم الاسم الأول .

هذه هي المشكلة ، قالت . لقد جعلني أعده بألا أبوح باسمه لأحد ، إلا لو أصبحت زوجته ، عندئذ يحق لي أن أعلن أمام العالم كله اسمه الأول . لا تستطيع الآن أن تسيء إلى الثقة التي منحها إياها في اندفاع . لديها الشعور بأنها إذا أخلت بثقته فيها ، فإن ذلك سيجرحها هي شخصياً . لقد جعلها تشعر بذلك . الإخلال بالثقة يعني الإساءة الشخصية التي تصل إلى الإساءة الجسدية . كان عليها أن ترفض فوراً أن يثقل كاهلها بهذه الثقة . ولكنها لم تستطع ذلك بسبب حالته غير العادية . كيف يمكنني أن أتخلص من هذا الكابوس ، يا صاحب السعادة؟ أشعر بأنني في حاجة إليكم يا صاحب السعادة .

نهض. راح يتمشى، واضعاً يديه خلف ظهره، رائحاً عائداً. اليد اليمنى تمسك بإحكام بمعصم اليسرى. هكذا كان يسير دوماً إذا كان يهمه ألا تبدو هيئته محنية أقل انحناء. هكذا كان يسير عندما يكون بحاجة إلى قامته المشدودة التي كان مشهوراً بها. هل كان عليها أن تدرك، هل كان بإمكانها أن تدرك أن رد فعله الآن لا يمكن أن يكون إلا هكذا؟ رنا إليها ببصره. وتطلع. كانت في حالة نفسية مختلفة تماماً عنه.

هتفت مرة أخرى: يا صااحب السعااادة! كانت تقلد شخصاً ينادي آخر ثقيل السمع. نهضت هي أيضاً وقطعت طريقه. وقفا في مواجهة بعضهما البعض. قال غوته: آه، نعم.

قالت: صباح اليوم سافر، إنه في الطريق إلى باريس. تمنى لها حياة سعيدة، ولقاء لا يقل سعادة.

Et il y a quelque chose dans l'air, entre nous.

دو رور. لحسن الحظ بدون اسم أول.

شعر غوته فجأة باستيقاظ الروح القتالية داخله، فقال: أولريكه، مرحباً بك.

أمسكت بيديه، ورفعتهما. قربته حركتها منها، ولكنها ربما لم تقصد ذلك. إذا قبلها الآن فسيقلده، سيتنافس معه. سيكون موضع مقارنة. معه. جذبها ناحيته قليلاً، ربما لم تلاحظ ذلك إطلاقاً. هذا إن كانت تريد ألا تلاحظ. غير أنها جذبته قليلاً إليها من جديد. عندئذ اقتربا من بعضهما البعض حتى أن شفثيه



= من دون أن تُطلق يده - كانا في متناول فمها . بقي الفمان لحظة متلامسين وكأنهما كائنان لا يعرفان بأي لغة يمكنهما أن يتبادلا الحديث .

ما زالت يدها في يديها عندما قالت : آه ، يا صاحب السعادة .

استطاع أن يقول : عليّ أن أهديك تحيات ليلي بارتاي .  
آه ، هذا من لطف سعادتكم .

بعدها كانت في الخارج ، في الأسفل ، ثم في الناحية الأخرى . وصل إلى النافذة في الوقت المناسب ، وراح يلوّح لها رداً على تلويحها . لن ينسى ذلك أبداً ، إنه - عندما انصرفت في ذلك الضحى - وصل إلى النافذة في الوقت المناسب ، وأنه لوّح لها ، وأنها لوّحت له . ما الأهرامات المصرية في مقابل ذلك؟ عندئذ جلس طويلاً مطلقاً لأفكاره العنان . أجمل شيء هو أنها أغمضت عينيها عندما اقتربت شفاههما وتلامست . لم يمر في حياته بشعور أكثر حميمية من هاتين العينين المغمضتين .

لم يكن يستطيع أن يسمح بشيء آخر الآن سوى هاتين العينين المغمضتين . ومع ذلك كان عليه أن يسمح بفكرة طغت عليه وكادت تصرخ عالياً : لم تدفعه امرأة أبداً وهو يقبلها . لم يشد امرأة أو فتاة إليه أبداً . لم يفرض شفتيه أبداً على شفتيها ، أو على فمها . لم يقبل امرأة أبداً من دون أن يجتاحه في البداية شعور بالخجل . نعم ، لم يقبل امرأة من دون وجل ، أياً كان الحديث الذي تفوه به قبل ذلك . فمه وفمها كانا يتلاقيان لقاءً

طبيعياً، من دون إرادة، ولا مسحة من التمثيل المسرحي .  
السيد عديم الاسم يمثل دور الرجل العاطفي . بم أحست  
أولريكه أثناء ذلك؟ وبم أحست الآن؟ لا يمكن أن يسألها .  
يمكنه ملاحظة رد فعلها فحسب . هل ما زالت أولريكه التي  
كانت قبل ذلك المشهد؟ عندما قبل السيدة فون شتاين لأول  
مرة قالت له : سيدي، قبلتك ذكية . اقتراب فم أولريكه من فمه  
على هذا النحو الذكي، إغماض عينيها على هذا النحو : هذه  
أجمل وأصدق إجابة على ما قدمه عديم الاسم من مسرح  
عاطفي . دون مسرحه الفج ربما ما كانا قد اقتربا من بعضهما  
البعض على هذا النحو . سيعيد هذا المشهد مع أولريكه،  
وعندما تتلاقى شفاههما بقوة كما في مشهد دو رور، ستفترق  
وسينظر كل منهما إلى الآخر ويضحك . مسرحية من مسرحيات  
إفلانند<sup>(1)</sup> الكوميديية . تقليد لمسرح باريس الهزلي . منه قد  
استمد هذا حركاته . سيضحكان معاً . أسعده هذا التصور . بدءاً  
من الآن، لن يقول : آه، نعم؛ بل سيقول : آه يا أولريكه .  
وعلى نحو يسمعه العالم كله . بصوت عال وواضح ومرح،  
إشارة غبطة وسعادة لا تنتهي . آه يا أولريكه! مد حرف الباء في  
اسمها وصاح به عالياً .

---

(1) أوغست فيلهلم إفلانند (1759 - 1814) ممثل وكاتب مسرحي ألماني كان مشهوراً في عهد غوته . (م)

وهكذا سارت الأمور. عاد إلى أولريكه وعادت أولريكه إليه، ولم يفترقا. بعد أن أرسل النظر إليها في يوم القبلة الأولى، بعد أن لوحته له ولوح لها، جلس إلى مكتبه مدركاً أن هذا الاندفاع الشعوري لا يمكن الإجابة عنه إلا بالكتابة. في البداية استولى عليه الروتين، أي: لا بد من القافية. عندئذ كتب على الورقة:

ماذا فعلت بي من أمد بعيد؟  
ها هي عيناى تبصران الحياة من جديد،  
عندما يجود الفم العذب بنظرة مودة،  
ويمنحنا قبلة.

أرسل قصيدة المناسبات الروتينية هذه ثلاث مرات. إلى ليلي في المنتجع ذاته. وإلى زوجة الابن أوتيليا في فايمر. وإلى أولريكه vis-à-vis<sup>(1)</sup>. فسّر لنفسه هذا الإرسال الثلاثي بأن

---

(1) أي: شخصياً. (م)

القصيدة ليست إلا واحدة من مئات، بل من آلاف القصائد التي يكتبها في المناسبات. قصائد تهبط على الشاعر فجأة. قصائد خفيفة الوزن، ولكن لا بد منها، وهي جزء لا يتجزأ من شعره. غير أن القصيدة لا يحصل عليها سوى الذين يعرفون سبب حصولهم عليها. كانت هناك قبلة بينه وبين أوتيليا أيضاً. خلال رحلة تدشين عربته الجديدة التي تجرها الخيل التي هي معجزة في الحركة والخفة. عليها أن تفكر الآن في تلك القبلة. نعم، ولا حتى الداهية ميترنيخ كان سيربط بين الأمرين ربطاً أكثر دهاء.

كتب إلى أوتيليا مع القصيدة أن كل شيء هنا لطيف كالمعتاد، وأن شتادلمان يقطع الأحجار من الجبال المجاورة. ما زالت هناك حفلة راقصة لدى ملك فورتمبرغ، بعدها ستوضع ملابس الرقص في حقيبة السفر. أما بالنسبة للقبعات فيجري البحث عن إمكانية لنقلها من دون إلحاق الأذى بها. الأسطورة الجميلة هنا أوشكت على الانتهاء. سيظل هو حتى يوم عشرين من الشهر. ستساعده الوحدة على أن يعوض ما فاتته بسبب الحفلات واللقاءات. كتب أيضاً لابنه أوغست رسالة ظلت تدور في إطار العموميات. كتب أنه يستمتع من نافذته برؤية كل ما يحدث على الشرفة المقابلة، وأن الدوق الأكبر قد عاد من صيد البط، وأن الطقس معتدل للغاية، وأن الغراف شترنبرغ سافر لقضاء عدة أيام في المجر، لكنه سيعود قريباً؛ وأن كاتبه يون يدون الظواهر الجوية، وأنه يحصل دوماً على طعام فاخر يصله في ستة أطباق من دار المشرف على الطعام، وأن النظام

الغذائي يأتي بشاره، وأنه يعرف كيف يحمي نفسه من كثرة الظهور في المناسبات الرسمية، فالمرء في كثير من الأحيان ليس سيد نفسه. بهذه العبارات كان يأمل في أن يصرف الأنظار عن التقارير والشائعات المحذرة التي تسللت إلى خارج المتتبع.

بقي الحدث الخارق هو اقتراب شفتي أولريكه من شفتيه هذا الاقتراب الشديد. لكن قصيدته عن القبله لم تعجبه. كان يرى بعينه الباطنية المنظر من جديد. هي تتخلص منه، لكنه يتلقفها، تتخلص منه ثانية، يمسكها، يدفعها إليه، يندفع بفمه، يَحُطُّ على فمها، في فمها، والآن تتخلص منه نهائياً. أرسل قصيدة «القبله» إلى ليلي وأوتيليا، لكنه لم يستطع أن يرسلها إلى أولريكه. بهذه السطحية المُحبة للقافية سيدفع بها دفعاً إلى ذلك المشهد الليلي مع الممثل العاطفي.

كان عليه أن يكتب للغراف لويشتنبرغ وأمير أيش شتيت. هذا واجب. حرر مسودة كتب فيها: إن سلوكه مع الغراف القدير في حفل خطوبة ريباين لا يمكن أن يبقى من دون اعتذار. لقد عاصر الغراف لويشتنبرغ ما لم يشهده أحد من أحداث تاريخية. الوالد أعدم بالمقصلة. الأم قرينة نابوليون الذي انطلق معه في كل حرب قبل أن يُعين نائباً لملك إيطاليا، ثم زواجه من ابنة ملك بافاريا ماكس الأول؛ القيصر نابوليون تبناه ووهبه إيطاليا - كم بذل جهداً عظيماً من أجل هذه الهدية. وكم حذاء لتقديم العون إلى زوج أمه وسط كارثة روسيا، وأخيراً وليس آخراً في مؤتمر فيينا. أثناء ضجيج الحفل الراقص

أهملاً إهمالاً كبيراً رجلاً بهذا الوزن التاريخي العظيم والشخصية المتكاملة. إن حمرة الخجل تغطي وجهه في كل مرة يتذكر ما حدث. من أجل كل ذلك يتقدم بطلب جاد كي يلتقيا في أقرب فرصة ممكنة ليتبادلا الحديث حول مشروعه السلمى المثير، قناتي الراين والدانوب حتى ينضج قرارهما بهذا الشأن.

كل هذه الأمور كانت محاولة لتجنب أن يقتصر تفكيره طوال الوقت على أولريكه. كان يشعر بحالة شريرة من العبثية والسأم إذا قام بشيء ليس له علاقة بها. كان يؤلمه دوماً أن يصرف انتباهه عنها. غير أن الوقت الفاصل بين لقاءاتهما لم يكن يتعدى ساعات على أقصى حد، لذا سهّل عليه تحمل الحرمان. إنه توابل الوجبة التي تنتظره في اللقاء المُقبل.

كانت الرسائل التي وصلته من فايمر من عالم آخر لم يكن يريد العودة إليه أبداً. ولكن، لا بد من العودة. كان عاجزاً عن تصور ذلك، إلا أن حدوثه أكيد. رفض قبول إمكانية حدوث ذلك. حتى إذا عاد، فلن يكون حاضراً في المكان المتواجد فيه. اخترع لنفسه أجواءً ملتبسة لا يجده فيها أولئك الذين يبحثون عنه. الهروب - هذا ما ينويه. سيختفي عن الأعين. عليه ألا يعترف بشيء أو ينكر شيئاً. كلاهما مميت. ولكن حضور أولريكه سينهي أي اتهامات. عليه أن ينتقل إلى فايمر، مع أولريكه ورواية سيكتبها فوراً. عليه على الأقل أن يبدأها. رواية لن ينافسها عليها أحد. رواية تمنح أولريكه وتمنحه الشرعية. ليس فقط في فايمر، بل في العالم. سجل العنوان فوراً على الورقة:

رجلٌ عاشق .

لن يستطيع أن يُملي هذه الرواية، كما لم يستطع أن يملي «فِرتِر». غير أن هذه الرواية ستنتهي نهاية سعيدة. لفترة طويلة بما فيها الكفاية صاغ سلبيات الحياة في لغة ممتعة. لقد عثر أخيراً على النبرة التي يستطيع أن يكتب بها دون شحنة إثارة رخيصة تدفع الكاتب إلى إفراغها. صوت يخلو من النشاز والهارمونية. صوت ليس إلا ذاته. صوت لا يصعد في معاناة أو يهبط محتالاً. لا يتبع برنامجاً أو خطة. صوت. على الورقة مكتوب بعد مسافة أول السطر:

رجلٌ عاشق .

يستطيع أن يثق في الصيف من جديد، يثق في ما يقوله له. يستطيع من جديد أن يختلط بالفراشات وأن يظنه الناس إحدى زهور الترمس المتوهجة. لحسن الحظ لن ينتهي هذا اليوم أبداً. ولى زمن أن يكون شيء أكثر أهمية من شيء آخر. أخيراً طارت الأسئلة وتلاشت. اعتماده على أولريكه يثريه. سيسمع ما يُقال عنه، لكنه لن يفهمه. عناده من ذهبٍ صافٍ. أولريكه وهو، سيوفقان إلى كل ما يصبوان إليه. إذا كانت أولريكه من نصيبه، فسيستطيع تحقيق السلام في العالم. العداوة؟ لغة منقرضة. كل الشرور في العالم تنبع من أن أولريكه لم تكن معه بعد. طيلة حياته لم يشعر بالسأم لثانية واحدة. سيموت الآن سأمًا إذا لم يرها على الأقل. مَنْ يُرد إنقاذ العالم، عليه أن يمنحه أولريكه. إذا لمس شيئاً، سيزدهر. ولن يتوقف عن الازدهار. الأيام من حرير. العالم نسמת دافئة. تتفاخر الطيور بالشدو العالي

الرخيم . لا تغني سوى باسمها . لم أعد أريد أن أكون ورعاً كما أنا الآن . اخترع أفلاطون الذاكرة لأنه فقد الجمال . أما أنا فسأفقد الذاكرة لأنني عثرت على الجمال . لا قيمة للمستقبل والماضي عندما تكونين معي . أيها الفقير ، من فضلك ، كن بعيداً عن هذا العالم . احمني ، أيها الحلم . الجلوس أمامها يجعلك خفيفاً مثلها . نظرتها تسندك . لا شيء يمنح الثقة مثل نظرتها . لن أصرخ بعد الآن . البكاء فحسب . سعادة . بكل عناية سأفاجئ فمك . سأكتشف نهديك بيد تقية . خفتك تحتفل بانتصارات . عندما تمدين يديك لي قبل أن نبدأ في تناول الطعام ، ستستقبلك يداي ، ونصلي صلاة الشكر ، صلاة دين جديد . لن يكون هناك ما لا يود كل منا معرفته عن الآخر . خالداً أنا إذا سُمح لي بحبك . إذاً ، الآن أعرف لمَ لم أقدر أبداً على كراهية أحد . الحب كان يكمن في أعماقي ، طيلة حياتي . حبٌ نائم ، يحلم ، بين الحين والآخر يشط بعيداً . يسمي نفسه هذا الاسم أو ذاك ، يهرب عائداً ، في الحقيقة كان ينتظر . هذا ما وهبني القوة لكل شيء . الآن أعرف : حبي كان ينتظر . إذا كنت لا تريدينه ، سيدمرني . ولن أدافع عن نفسي . حبي لا يعرف أنني فوق السبعين . أنا أيضاً لا أعرف .

لاحظ أنه بالكتابة وصل إلى النبرة التي يبحث عنها .

حفل الأزياء الراقص الذي دعا إليه ملك فورتمبرغ سيغدو للرجل العاشق «بروفة» رئيسية . مكتوب على الدعوة : أزياء من عصور ما قبل التاريخ المظلمة حتى الحاضر المضيء . قبل أن يُتمّ قراءة الدعوة كان يعرف الزي الذي سيرتديه : «فراك» أزرق



فاتح، صديري أصفر، وحذاء برقبة. ينبغي أن يظل هذا سره المتوارى عن الجميع. لن يعرف بذلك إلا شتادلمان والخياط بلاستيمير.

شعر شتادلمان بالسعادة لأن سيده سمح له مرة أخرى بالمشاركة في مغامرة. أما بلاستيمير، الذي كان حتى الآن يقوم بإجراء التعديلات على الملابس فحسب، فقد صاح عندما وُصف له الزي: فترتر. هذا هو الرجل المناسب. «فراك» أزرق، صديري أصفر، وحذاء برقبة فاتح اللون للغاية.

عندما سألته أولريكه في هيئة مَنْ سيأتي إلى الحفل، قال إنه لن يجيب على هذا السؤال.

طيب، قالت، وأنا أيضاً سأستعين بالكتمان. والدتها ستظهر متنكرة في هيئة مدام دو بومبادور<sup>(1)</sup>، الغراف كليلسبرغ سيتنكر في صورة لويس الرابع عشر، د. ريباين وكاتي فون غرافن إيغ روميو وجوليت، الغراف لويشتنبرغ برومبيوس، لكنه لن يجلب النار للبشر، بل الآلة البخارية... أميرة هوهنتسولرن والغراف سان لوي لا يريدان، مثل أولريكه وغوته، أن يفشيا السر ويعلنا مَنْ سيكونان. سيقام الحفل في القصر.

رغم كل النزعات الكثيرة التي قاما بها حتى الحفل، لم تبج له، لأنه لم يقل لها مَنْ سيكون.

هل مسموح بالتخمين؟

---

(1) عشيقته الملك لويس الرابع عشر. (م)

مسموح، ولكنها لن تقول شيئاً.

عذراء أورليان، قال. فوجئت بشدة، وتطلعت إليه، فقال لها إنه يعتقد بأنه أصاب من المحاولة الأولى، وهو ما لم يكن صعباً. شيلر هو شاعرها، والشخصيات النسائية التي يمكن أن تقبل التنكر في صورتها طيلة الأمسية الراقصة هي بالأحرى نادرة لدى زميله شيلر. استبعد إليزابيث وماريا ستوارت بسبب الأحداث التاريخية الكثيرة. لا أحد يريد أن يظهر في هيئة أماليا في «قطاع الطرق». إذأ، إذأ، إذأ: العذراء<sup>(1)</sup>. إنها شخصية يمكن أن تسيطر على قاعة بأكملها. كانت أولريكة تتسم دوماً بسمات من عذراء أورليان، بجسارتها الطبيعية التي هي جزء من شخصيتها الأصلية. ابتسمت، هكذا ظن، كما لم تبتسم من قبل. لقد أصاب في تخمينه.

وأنتم؟ سألت بعد برهة.

لن أرتدي ملابس بطل من أبطال شيلر، قال. إنه سعيد لأنها لن تتنكر في صورة غريتشن<sup>(2)</sup> أمام المغزل. لا ينقصها شيء لتكون العذراء.

من حسن الحظ أن يوم الحفل كان مطيراً. وهكذا نزلوا بالمعاطف والعباءات من العربات التي توقفت أمام بوابة قصر كليلسبرغ. كان على غوته أن يعبر الشارع فحسب، لذا ارتدى

---

(1) المقصود المسرحية التي نشرها فريدرش شيلر عن جان دارك عام 1801 بعنوان: «عذراء أورليان». أما «قطاع الطرق» و«ماريا ستوارت» فهما من أشهر مسرحيات شيلر. (م)

(2) غريتشن هي بطلة مسرحية «فاوست»، أشهر أعمال غوته. (م)

معطفاً وقبعة. المعطف الصيفي الغامق الذي ارتداه ذو ياقة عالية مكسوة من الداخل بالمخمل الأحمر. ثنى أعلى الحافة قليلاً حتى يضيء المخمل الأحمر. نظر غوته إلى نفسه وشعر بالراحة. فرِحَ لأن الطقس أتاح له أن يخفي زي فِرتَر تحت معطف صيفي خفيف. أحنى قامته أمام شتادلمان، وكأنه يتدرب على الانحناء على الطراز القديم، عندئذ صاح شتادلمان:

Excellence, s'il vous plaît!<sup>(1)</sup>

ثم ركض إلى علبة مسحوق الزينة، وبمسحة من البودرة الذهبية اللون خَفَفَ من بياض شعره. كان هذا قاسياً، غمغم غوته، قاسياً للغاية.

قال غوته: شتادلمان، شكراً جزيلاً. ثم أحنى قامته مرة أخرى، بحيوية أكثر الآن، وانصرف.

تحتّم على الرجال والنساء في القصر أن ينتظروا في غرفتين منفصلتين الإشارة التي ستعطيها الفرقة الموسيقية، وبعدها يدخلون إلى القاعة الكبيرة من أبواب عديدة في آن واحد. عندئذ وقف الرجال أمام الحائط، وعلى الناحية الأخرى، أمام المرقص الدائري الضخم المحفور عليه زهور وقفت السيدات. رأى أولريكه. كان أكثر من شعاع برق. في فستان أبيض بسيط كانت تقف هناك، ربطة حمراء باهتة اللون تُحيط بالكمين وفتحة الصدر الضئيلة. ضئيلة مقارنة بفتحات

---

(1) أي: من فضلك يا صاحب السعادة!

الصدر إلى يمين ويسار أولريكه المتنكرة في زي لوته. (1)

رفع المايسترو عصاه الذهبية على الفور، وخبط بها ثلاث مرات على الأرضية، فشرعت الفرقة في العزف، وسارت ثنائيات الراقصين في اتجاه التلاقي. الانحناء أو التفاف الذراع حول الخصر أو العناق أو الإمساك باليد - بحسب الدور الذي يؤديه ويرقصه الثنائي. أولريكه - لوته، الطبيعة الخالصة. جورب أبيض، حذاء رقيق أسود مسطح، برباط من الزمن الماضي. شعرها المرسل عادةً لفته اليوم لفات صارمة. كان هذا جزءاً من التنكر. كانت ترتدي كل يوم رسالة قماشية من فيينا، واليوم، في الاحتفال، تلبس هذا الفستان الأبيض، الأبسط بين الفساتين. هذا هو الزي، أو بالأحرى: هذه هي لوته. كان بمقدوره أن يتصور ضحكات أماليا وبرتّا عندما ظهرت أولريكه أمامهن متنكرة في زي لوته. وعندما سألتهما: وما رأيكما؟ لم يكن هناك فارق أكثر اتساعاً كالفارق بين الأم المرتدية زياً فخماً وهذه الابنة التي ظهرت في صورة فتاة غضة بريئة.

توقفت الفرقة عن العزف فجأة. أعلن القائد أن على كل ثنائي أن يرقص الرقصة التي تبين ما يمثله اليوم. وستقوم لجنة التحكيم تحت رعاية حضرة صاحب السمو الملكي الدوق الأكبر كارل أوغست بتكريم أفضل ثنائي ومنحه إكليل الغار

---

(1) لوته هي عشيقة فوتر في رواية «آلام فوتر»، وهي ترمز إلى شارلوت بوف التي كان يحبها غوته قبل كتابة الرواية. (م)

الذهبي لإلهة الرقص تيربسيكوري. دخلت يوليا فون هوهنتسولرن كالزوجة إلى منتصف القاعة. لم تكن هناك فرصة أمام الغراف سان لوي الذي تنكر في زي مارات<sup>(1)</sup>. رفيقته شارلوتة كورداي مدت يدها فجأة ناحية الخنجر الأحمر البراق الذي كان يتأرجح بين نهديهما، وطعنت به الموضع الذي كشف عنه القميص المفتوح والذي وُضع عليه مسحوق أحمر دموي. السفينة البخارية للغراف لويشتنبرغ التي كانت تحمل اسم بروميثيوس كانت مقسومة إلى قسمين، عليه وعلى زوجته. عندما رقصا، التحم قسما السفينة معاً. ساعدهما في ذلك المايسترو بتعليقات مرحة.

عندئذ حلّ دور فرتر ولوته. ليس هناك ما يقال. عرف الجميع على الفور ماذا يمثلان. ولكن اتضح من تعليق المايسترو أنه يرجع فكرة هذا الثنائي إلى غوته؛ أنّ أولريكه وغوته اختارا القيام بهذا الدور، كل على حدة ودون اتفاق، هذا شيء لم يكن يعرفه إلا أولريكه وغوته. كان مصدر بهجة لكليهما أنهما اختارا بعضهما البعض دون اتفاق. إنها اختارت من تلقاء نفسها لوته، وهو فرتر، جعلهما هذا ثنائياً سعيداً، هنا، وسط الحفلة البهية والعروض الموسيقية. خرجت أولريكه عن طورها تماماً. كانت تمثل لوته. مثلت لوته التي استولت عليها الحماسة بسرعة عندما راح ذلك الفتى البري المشبوب

---

(1) Jean-Paul Marat (1743 - 1793)، طبيب وصحافي وسياسي فرنسي  
عاصر الثورة الفرنسية، ثم أعدمته. (م)

العواطف المدعو فرتير يرقص معها بخفة مدهشة في الحفل الريفى الممل، فانتقت من كل جاذبية أرضية. قالت أولريكه له، وهى مستمعة كل الاستمتاع بدورها، وبصوت عال سُمع فى أرجاء قاعة المرقص كلها، بل صرخت فى وجهه فى نشوة: عندما كنت صغيرة كان حبي للروايات يفوق كل شيء. فصاح غوته بنبرته المعهودة: لم أكتب يوماً شيئاً بتلك السهولة. كان هذا ما حدث. ومنذ أن تعرفنا إلى بعضهما البعض لم يشعر أبداً أنهما فى العمر نفسه. الآن هما كذلك. إنه يشعر بذلك. رجعت إلى الورا، أمسك بها، وطارا فى الهواء. استعرضا ما لا يمكن للعالم كله أن يقدر عليه: أن يزج عاشقين. خرجا بوضوح من شخصيتهما، أمسيا أدواراً، أزياء، لوته وفرتير. كان هذا مؤثراً، أيضاً لأن الموسيقى تشبعت على الفور بهذه الأجواء. وكيف كان كل منهما ممتناً للآخر لما أنجزاه معاً!

بعدهما جاء روميو وجوليت. استعراض للعواطف أيضاً، ولكنه يسير نحو نهايته التراجيدية: د. ريباين وكاتي فون غرافن إيغ. نصف الوجه عليه مساحيق مزدهرة الألوان، النصف الآخر فى شحوب الموتى. نصف وجهه الأيمن كان مزدهراً، هى فى نصف وجهها الأيسر، النصفان الآخران فى شحوب الموتى. فى البداية عرض يثير الكآبة، ولكن الزهور انتصرت فى النهاية. بعدهما أماليا فون لفتسو: مدام دو بومبادور، فى فستان ليس إلا موجة من الحرير يختلط فيها الذهبى بالأخضر. لا يعرف المرء كيف ظلت ملتصقة بها. وحلق يصل إلى الكتف العاري. صندل ذهبى مثبت بالقدم العارية بشريط رقيق لا يكاد يُرى.

الشعر الأسود الكثيف المتمرد أمسكت به من أعلى فراشة ذهبية. أماليا فون لفتسو! بالتأكيد أجمل امرأة في الأمسية. بجانبها بدا الغراف بسيطاً، ورغم كل ثيابه البهية السوداء. ولكن الحواف البيض المنبثقة من تحت الكم والباروكة التي وضعها على رأسه جعلت الأنظار تلتفت إليه وهو يقف بجانب صديقه ذات القوام العاثر. غير أن إيماءاته ووقفته كانت تنم عن شخصية مسيطرة. تمرن على أداء هذا الدور بعض التمرين. كان المرء يلاحظ عمل معلم الرقص. ولم لا؟ كان عليه أن يمثل أنه يخفي رغبته، إلى أن ملكت عليه مدام بومبادور نفسه وروحه، فاعترف بما يشعر به من مشاعر جميلة لأنها غزت قلبه.

استراحة للشنائيات، واجتماع لهيئة التحكيم. قالت أماليا فون لفتسو لأولريكه وغوته:

هذه مؤامرة حقيقية. لوته وفيرتر!

دور مدام دو بومبادور لم يكن شاغراً، قالت أولريكه.

الأم: ولكن عذراء أورليان.

نعم، هتف غوته، هذا ما ظننته طوال الأيام الماضية.

أولريكه: لم أرد أن ألمس سلاحاً<sup>(1)</sup>.

لم تستطع الأم أن تصدق أنهما تصرفا من دون اتفاق مسبق.

---

(1) عذراء أورليان (جان دارك) حاربت وهي في الثالثة عشرة من عمرها، ونجحت في طرد قوات الاحتلال الانكليزية عن مدينة أورليان الفرنسية عام 1429. (م)

قالت أولريكة : ما أصعب فهم الحقيقة .

الأم : إذا كانت هذه هي الحقيقة ، فإن . . . ولم تكمل جملتها .

رأى غوته أنها تتطلع إليه كما لم تفعل من قبل . حرّك يده في الهواء حتى يشتت نظرتها . ونجح في ذلك . اختفت سمات وجهها القاسية بسرعة ، وتحولت إلى هزة رأس وضحكة . صاح الغراف كليبلسبرغ قبل أن يحاول غوته تشتيت بصرها بيده : أماليا ، إلى أين وصلتِ ! قال ذلك بلهجة فيناوية .

في وقت لاحق سأل غوته أولريكة عما إذا كانت تريد أن تحضر بعض الأطعمة الصغيرة الشهية من صالة البوفيه . ثم نظر إليها نظرة كان عليها أن تفهم منها أن ذلك مجرد ذريعة . خرجت معه . في صالة البوفيه كان بإمكان الذين يريدون أن يتناولوا شيئاً من البوفيه أن يجلسوا أو يظلوا واقفين . تناولت أولريكة قطعة من الشوكولاته التي تحبها ، تلك المحشوة بالكونياك ، أما هو فقد أخذ قطعة من البسكويت . ولكن ما إن جلسا إلى مائدة صغيرة حتى انضم آخرون إليهما . وعندما اقترب روميو وجوليت ووجدوا كل الأماكن مشغولة قال غوته : تفضلاً ، اجلسا . قال ذلك لكاتي الذهبية الشقراء التي كان نصف وجهها شاحباً شحوب الموتى ، والنصف الآخر مزدهراً ازدهاراً برياً . جلست كاتي ممتنة ، وهي المحملة بعدة صحون صغيرة عليها أشهى الأطعمة ، وصاحت : هذا سلوك «جنتلمان» عريق . أرسل غوته نظرة إلى أولريكة ، ومد رأسه وأشار بإبهامه في الاتجاه ذاته . فهمت أولريكة ما يقصد ، فخرجا معاً إلى



الهواء الطلق قبل أن يزعجهما أحد. على الجانب المواجه للجبال في القصر امتد مرج أخضر صاعد. أضواء البرق البعيد الطريق. في البداية سار غوته متقدماً، ثم تمهل حتى تلحقه أولريكه. ثم وقفا في مواجهة بعضهما البعض في الطريق شبه المظلم. كان يعرف أن عليه ألا يفعل شيئاً قد يقربهما أكثر. كل شيء كان جميلاً، أجمل من الواقع. قاد طريق مائل ميلاً شديداً إلى حديقة غناء أشجارها عتيقة.

قال غوته: في الصيغة الأولى لرواية «فِرتِر» كانت لدى لوته بدلاً من الفيونكات الحمر الباهتة فيونكة واحدة في لون اللحم.

لون اللحم بدلاً من الأحمر الباهت، قالت أولريكه، كان هذا سيعجبني.

أنا لا، قال. أحمر باهت، وصف غير جميل، ولكن لون اللحم أقل. على كل حال أنتِ صفتِ نباتية.

إنها ليست نباتية، قالت، ولم تكن نباتية في يوم ما، وهي لا تعرف ماذا ستصبح أو ستكون.

أولريكه، قال، تعالي لنعد إلى الناس.

توقع أن تقول له، ليس بعد، لنبق دقيقة في الهواء الذي غسلته الأمطار. ولأنها لم تقل شيئاً، تحتم عليه السير. سار أسرع مما كان يريد، فتعثر في أحد الغصون. راح يجذف بذراعيه ويديه في الهواء بشدة محاولاً إيجاد توازنه. لم ينجح. وسقط. يده اليمنى مطوحة إلى الأمام، ساقه اليمنى ممدودة،

فات الآوان لكليهما. في الثانية الأخيرة أراد أن يدير وجهه إلى الجانب. لم يكن نجاحه كاملاً. ارتطمت جبهته وأنفه بالأرض، بين منتصف الجبهة والصدغ الأيمن، ونصف الأنف الأيمن. صرخت أولريكة. ثم وقفت، ناظرة إليه من أعلى. في نفس واحد قالت: كلا، كلا، كلا، كلا، باكية. تملكه على الفور خوف يقبع دوماً في داخله منتظراً اللحظة المناسبة لانتشاره. إلا السقوط. سمع كثيراً في شتاء فايمر أخباراً من أناس راحوا يحكون له عمّن سقط وكيف، مَن كُسر فخذه أو تمزقت خاصرته. كم من مرة قال لنفسه: إياك والسقوط. ها هو قد سقط. سقط لأنه لم ينتبه إلى الطريق شبه المظلم أثناء سيره مع أولريكة. انساق وراء عاطفته الملحة. استدار ليرقد على ظهره. لا بد من أنه بدا لأولريكة كسمكة على الأرض. تحسس المواضع التي سقط عليها في الجبهة والأنف. شعر بالدماء تسيل على وجهه. النهوض كان صعباً. أرادت أولريكة أن تنادي أحداً يسعفه. من فضلك، لا، من فضلك، قال بمشقة وركع على ركبتيه، ثم نهض على قدميه بمشقة أكبر. الآن رجا أولريكة أن تذهب إلى القصر، وأن تطلب من الدكتور ريباين - دون إثارة للانتباه - الخروج إليه ومعه صندوق الإسعافات الأولية. هتف وراءها. حضر د. ريباين، وأصابه الذعر. أراد أن يسند غوته ليعودا إلى القصر حيث الإضاءة أفضل، لكن غوته لم يسمح له بذلك. لم يحدث شيء، قال، موضعان فحسب، على الدكتور ريباين، إذا سمح، أن يعالجهما وأن يوقف النزيف. نظف الطبيب الجرح، ومسح،

ودهن، ثم راح يلاحظ الأثر. عندئذ قال: نحن محظوظون، توقف الزيف. رفض غوته أن يستخدم الطبيب رباطاً. استجاب الطبيب. السيد المستشار، يؤسفني ويسعدني في آن واحد أنكم احتجتم إلي. سيفحص الجرح في الصباح مرة أخرى. أما الآن فعليه الرجوع إلى القاعة لحضور استلام الجوائز. وفي لمح البصر كان قد اختفى. وقف غوته وأولريكه في مواجهة بعضهما البعض. كانت أولريكه تتطلع على الدوام إلى الجرح. طُردَ من الجنة، هكذا فكر. سقطَ من الجنة. وبدت أولريكه في غاية الاضطراب. كان واضحاً أنها لا تعرف ما ينبغي عليها فعله أو قوله. لعل منظره كان فظيماً عندما حاول النهوض. لن تنسى ذلك أبداً، محاولته أن يجد توازنه وتجذيفه بذراعيه ويديه قبل السقوط.

قال: لن يعود إلى القاعة.

وإكليل الغار؟ تحدثت فجأة بلهجة مغايرة تماماً. إكليل الإلهة تيربسيكوري الذهبي. تعال. غصن سخيف، طريق زلق شبه مظلم، هذا شيء قد يحدث لأي شخص. الآن تكذب. كانت تعرف تمام المعرفة أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا له، لا يمكن أن يحدث لأحد سواه، لأنه في الرابعة والسبعين.

لذا قال الآن بحسم: أنا في الرابعة والسبعين.

وهي بحدة: أنتم تبالغون من جديد يا صاحب السعادة، ثلاثة وسبعون.

كلا، قال، في الأول من يناير من كل عام أكون في العمر

نفسه الذي سأبلغه في الثامن والعشرين من أغسطس .

أولريكه : ولكن بالنسبة لي : ثلاثة وسبعون . سواء كنتم تصدقون أم لا : ثلاثة وسبعون رقم رائع . حتى في ما يخص الأرقام ، هناك أرقام جميلة وأخرى أقل جمالاً . ثلاثة وسبعون رقم جميل ، يستحق قبلة لجماله . ثم وضعت راحتها على كتفيه ، وقربت شفيتها من شفتيه حتى التلامس وما بعده قليلاً . وهكذا تركت فمها . وضع يديه على كتفيها ، وجذبها قليلاً إليه ، ولكن قليلاً فحسب . ظلاً واقفين وقتاً طويلاً لا يمكن قياسه .

قالت : هيا ، يا صاحب السعادة .

في الداخل كان المايسترو على وشك إعلان منح إكليل الغار الذهبي . ثم توجه إلى صاحب السمو الملكي بالرجاء كي يتولى ذلك . في الأمام ، على المنصة ، أعلن الدوق الأكبر - وعنه قالت أولريكه إنه يبدو مثل رئيس الخبازين بالصديري الأبيض العريض للغاية الذي يبرز دوماً من تحت السترات المفتوحة التي يرتديها - أن لجنة التحكيم الخماسية قررت بالإجماع منح إكليل الغار الذهبي للشثاني لوته وفترتر . برهن التصفيق على أن الجمهور يشاطر لجنة التحكيم الرأي . سار غوته مع أولريكه تجاه الدوق . شبكت ذراعها في ذراعه . الآلام كانت محتملة . صعدا على المنصة . وضع الدوق على شعر أولريكه إكليل الغار الذهبي ، ثم أراد أن يتوج غوته على النحو نفسه ، غير أن يديه اللتين تحملان أوراق الغار توقفتا في منتصف الارتفاع ، ثم صاح : الأصدقاء الأعزاء ، أيها الحضور

الكريم، لقد كادت عين رئيس لجنة التحكيم أن تعمى عن رؤية السبب الحق الذي يجعل هذا الشائني جديراً بالجائزة. نعم، لقد مس الشائني قلوبنا جميعاً من الأعماق برقصه مرهف الحس، ولكن فائني وسط هذا الضوء الاحتفالي الخافت أن أنتبه إلى أن فكرة التنكر في هيئة فرتر إنما صاحبها شاعر فرتر. والآن، في الثانية الأخيرة، وعن قرب بالغ، أرى - وربما هذا ما حدث أيضاً لهذا الضيف أو ذاك من ضيوف حفلتنا الراقصة - الآن فحسب أدرك السمة المميزة لفرتر: بالضبط، في منطقة التقاء الجبهة بالصدغ، مكان الإصابة بالرصاص! برافو، أيها الصديق العزيز والشاعر القدير، برافو! علا التصفيق من الجميع. عندئذ قال الدوق وهو يضع إكليل الغار على رأسه أخيراً: بَمَ نحتفي إذاً، إن لم نحتفِ بجراحنا! أهنتك، وأهنتك أنت أيضاً، أيتها الجميلة الرائعة، بدونك لا وجود لفرتر. انفجرت موجة من التصفيق الصاخب، فالتصقت أولريكة التصاقاً شديداً بصديقها، أكثر مما فعلت في أي وقت مضى. رافقتهما الموسيقى بفخامة. انحنت أولريكة ومعها غوته، ثم عادا إلى المائدة. أخبرت أولريكة الأم والغراف كليلسبرغ بسقوط غوته، فاستولى الذعر على كليهما؛ إلا أن غوته هدأهما وقال بلهجة تنحو إلى التفاخر: إن هي إلا قبلة من أمانا الأرض.

تواصل الحفل الراقص. أرادت يوليا فون هوهنتسولرن أن ترقص مع غوته، إلا أنه أشار إلى مكان الإصابة بالرصاص. فقالت: إن كل وسيلة يعتبرها على ما يبدو مشروعاً حتى لا يضطر إلى الرقص معها.

لم تكن ليلة هادئة. شعر بألم في الجبهة والأنف. استولى السرور على شتادلمان لأنه شعر بأهميته على نحو لم يشعر به من قبل. كان عليه أن يضع كمادات باردة على جبين سيده. لم يستطع غوته أن يغفو. رجا شتادلمان أن يوقظ كاتبه يون. حضر يون مستعداً للعمل، غير أن وجهه كان ينم عن اللوم. ليس بجديد على السيد المستشار أن يُملي عليه أفكاره الليلية.

حضرة صاحب السمو الملكي، بدأ يُملي على كاتبه دون أدنى تردد، إنه يتجرأ ويطلب من صديقه وسيده المبجل برهاناً للصدقة لم يجرؤ عليه من قبل أبداً؛ وتحديداً: أن ينوب عنه لدى السيدة فون لفتسو ويطلب يدَ كريمتها أولريكة. إنه يطلب الكثير، ولكن إذا لم يكن ذلك يتوافق مع رأيكم، فبإمكانكم أن تعتبروا الطلب كأن لم يكن. إنه يضع هذا الطلب تحت تصرف سيده المبجل. فإذا كان سينعم على خادمه، الذي تكرم عليه كثيراً واعتبره صديقه، إذا أنعم عليه بهذه الخدمة التي تخرج عن إطار اللوائح الملكية، فإن الموقع أدناه يعترف بأنه يربط التقدم بهذا الطلب بموافقة سيده المبجل، فهو الذي عليه أن يقرر ما إذا كان هذا الذي يطلبه ملائماً أم لا. مع عميق محبتي، غوته.

ثم قال: عليك الإسراع بإرسال الخطاب قبل الظهر، عزيزي يون، حتى يصل إلى هناك عند الظهر.

إذا كانت قبّلتة شفقةً، فقد أخرج نفسه بهذه الرسالة. وكان هذا هو المهم. إكليل الغار من الإلهة تيربسيكوري، أولريكة-لوتة، القبلة التي منحته إياها، ضاغطة برقة على شفّيته! سقوطه أراد أن يدمر كل ذلك. ظلام، مطر، غصن، ليكن! ثلاثة

وسبعون، رقم جميل . ولكنها شاركته وجدانياً . لم تكن شفقة  
أبدأً . ذعرها، عدم تمالكها لنفسها، وكيف استعادت قواها شيئاً  
فشيئاً، ثم - وهذا ما أعاد الحياة إليه - ثم منعها إياه من  
الهرب . أرادت أن تعود معه إلى القاعة . كانت تعلم، كان يعلم  
أن إكليل الغار لن يتوج إلا رأسها ورأسه . وعندما رقصا  
رقصتهما، رقصة لوته وفرتر، كانا في العمر نفسه، وكان كل  
شيء قد حُسم .

مع الكلمة التكريرية انبعثت نبضات دمرت الأفكار التي  
كانت تدور في رأسه . كان عليه أن يمنع حدوث هذا التدمير .  
ليس هذا بجديد . طيلة حياته كان يتغلب على مثل هذا النص  
التدميري، ويرسله مُجهّزاً إلى مكانه الأصلي .

أمسى الألم المنبعث من الجبهة والأنف خوضةً من الآلام  
أحاطت برأسه في إحكام، وضمنت له ألا تهجره مشاعره  
الحماسية طيلة الليل .

## الجزء الثاني



# 1

تحتّم عليه أن يقنع نفسه بأنه يمارس عمله كالمعتاد. لكنه تساءل: لمّ يتحتّم عليه أن يقنع نفسه بأنه يمارس عمله كالمعتاد إذا كان يعرف تماماً زيف ذلك. لمّ لا يعترف؟ ألم يكن ينهض خمس مرات في الساعة ويترك مكتبه ويركض باتجاه النافذة على أمل أن تظهر أولريكه على الشرفة المقابلة وتلوح له فيلوح لها مشيراً إلى أن باستطاعتها - إذا كانت راغبة - أن تمر عليه. كان أمراً خطيراً في نظره أن يعترف بذلك، فما من مرة فكر الإنسان في نقاط ضعفه أو اعترف بوجودها، إلا وانتصرت عليه.

مر يومان على الحفلة التنكرية، ولم ير أولريكه بعد. اعتنى د. ريباين بالجروح وضمدها جيداً.

جاءه رد الدوق الأكبر سريعاً. قبل أن ينطلق إلى برلين للاشتراك في المناورات سيّليبي طلب صديقه. وهو - هكذا كتب - يستبشر خيراً. ولأنه رجل الأفعال فقد ذكر له كيف ينوي أن يطلب له يد أولريكه: سيعرض منزلاً للأُم في فايّمَر. أولريكه سيدة البلاط الأولى. معاش لأولريكه في حالة الترمّل. 10000 تالر سنوياً. كانت هذه التفاصيل محرّجة لغوته، ولكن

إذا كان هذا هو رأي كارل أوغست، فلا بد من أنه مصيب بعض الشيء. كتب الدوق أنه طلب موعداً لمقابلة آل لِفْتسو الذين يسكنون في القصر نفسه، فوقه مباشرة.

ثم هبط الخبر الذي غير كل شيء: آل لِفْتسو يحزمون حقائبهم، سيغادرون مارينباد إلى كارلسباد، بعد غدٍ. قرأ غوته الرسالة البنفسجية التي دستها أولريكه في يد شتادلمان، ثم أعاد قراءتها غير ما مرة. تقول أولريكه إن الأم، وكما يحدث في معظم الأحيان، بل في الحقيقة كما يحدث دائماً، تريد أن تقضي آخر أيام الصيف في كارلسباد. هذا صحيح. في العام الماضي أنهى هو أيضاً الصيف في كارلسباد، مع آل لِفْتسو، في منتجع كارلسباد الأكثر قدماً وجلالاً والذي تردد عليه اثنتي عشرة مرة، وقضى هناك أوقات نقاهة واستشفاء في صحبة ضيفية سعيدة. شعر بأن هذا لن يتكرر أبداً. استحضر مرة أخرى تعبيرات وجه السيدة فون لِفْتسو عندما سمعت - وعندما لم تعد تستطيع أن تشك فيما سمعته - أن ابنتها وغوته تنكرا دون اتفاق مسبق في زي لوته وفرتر. استشف غوته من وجهها أنها، أولاً، رأت في ذلك الاتفاق التلقائي إشارة إلى توافق في مزاج الاثنتين لم تعمل له حساباً، وأنها، ثانياً، اعتقدت بأن عليها التفرقة بينهما بأسرع ما يمكن.

ثم حضرت أولريكه بنفسها. نظرتها الأولى كانت موجهة إلى الجبهة. بدا واضحاً أنها تريد أن تلمسها. استولى الارتباك على كل حركة من حركاتها. هل ما زال يؤلمك؟ تساءلت مشيرة إلى الجرح في وجهه.

هز رأسه نافياً. هل وصلت رسالة الدوق الأكبر، التي يطلب فيها يد أولريكه لغوته، إلى آل ليفتسو؟ أم أن صاحب العطف والسمو نقل الطلب شخصياً؟ لم يخبره كيف سينفذ ما نواه. ولكن، لو كانت أولريكه تعلم شيئاً عن الطلب، لدخلت إلى غرفته على نحو آخر. ولكن كيف؟

راحت تكرر ما كتبتة: سيسافر آل ليفتسو إلى كارلسباد. قبل العشرين من الشهر. ذكرت ذلك على نحو عرضي، بريء. لفتت انتباهه هذه النبذة المتظاهرة بالعادية. كان قد نصحها بمزيد من الحماسة وحيوية التصوير أثناء الإلقاء، أما الآن فهي توضح بكل ما أوتيت من قوة أن تكرارها لما قيل لها لا يعبر عن قرار اتخذته هي، بل أمها. طريقة إلقائها تقول: ما تنطق به ليس إلا تكراراً لما قيل لها.

أثر ذلك فيه. وضع يديه على كتفيها، غير أنه تجنب تماماً أن يجذبها إليه. أمن المعقول أن يصل هذا الطلب هائل العواقب إلى آل ليفتسو من دون أن يبوح هو - مقدم الطلب - بشيء؟ لا بد إذاً من أن يأمل في ألا تكون العائلة قد عرفت بالخبر بعد. لو كان الطلب وصل إلى أولريكه، لما دخلت إليه هكذا. لا شك في هذا.

إذاً، لا بد من أن يصارح أولريكه، أن له أن يفعل، ربما يدخل صاحب السمو الملكي القصر في هذه اللحظة لمقابلة والدتك، ربما يكون دخل إليها ويتحدث معها الآن ويطلب نيابة عن السيد غوته يدك.

استطاع، على كل حال، أن يبوح لها بذلك. بنبرة هي

الأفضل والأكثر ثباتاً، نبرة تخلو تماماً من أي شك. حسنٌ، لقد أراد قلبه أن يتأمل جلال تلك اللحظة. الآن يشعر بحيوية عيني أولريكه. لا تستطيع هاتان العينان إخفاء شيء. ربما لن يلاحظ ذلك كل من يتطلع إليها. بالنسبة له كانت عيناها تحكي أشياء وأشياء. بوضوح الشمس قالت عيناها الآن: لقد فوجئت حقاً. أنت ترى أنني مندهشة. لا أريد أن أخفي أن ما تقوله قد هز روحي من الأعماق. بشارة مبهجة. ما البشارة؟ لا أعرف. إنني مندهشة إلى أقصى حدود الدهشة. وسعيدة. ولا أعرف مطلقاً: لم؟ ربما أحلم. ليس على الإنسان دوماً أن يعرف في لحظة الفعل كنه ما يفعل. أعرف الآن أنني أحلم. ولكنه حلم جميل، يا صاحب السعادة.

غير أنها لم تنبس بشيء. ظلت توجه إليه هذه النظرة الحكاءة، فقال: لحسن الحظ لا يميل أحد منا إلى المأسوية.

هذا صحيح، قالت. نبرة صوت تشي بانزياح القلق عنها. وجهها - هل هذه طريقتها في التعبير عن الفرح؟ بدت شجاعة. إنها ترنو ببصرها دوماً إلى الأعلى. هذا ملائم الآن.

تحتم عليه فجأة أن يقول إن صاحب العطف والسمو، الذي كثيراً ما يخاطبه في الرسائل باعتباره صديقاً، أصر على أن يزود طلبه لدى السيدة الوالدة بأشياء لم يكن هو - مقدم الطلب - ليستطيع في يوم من الأيام أن يذكرها على هذا النحو الموضوعي الصارخ. وعموماً، هو يطلب منها أن تتفهم موقفه، فهذا الطلب برمته خروج عن السياق، لا يناسبه إطلاقاً، كما أنه لا يناسبها هي. إن الزواج - وهذا شيء يعلمه حق

العلم - صيغةٌ لجعل المستحيل ممكناً، خطوة مشرفة لا شك، غير أن مَنْ يأخذ الأمور بجدية، ليس بحاجة إليها. إذا كان كلاهما يأخذان الأمر على محمل الجد، فهما في غنى عن الزواج كل الغنى. إنك ترين، حتى في هذه اللحظة الدقيقة للغاية - التي تفقد كل تراجيديتها عبر لحظٍ عينيها - فإنه لا يستطيع أن يتخلى تماماً عن نبرته المتأملة. الزواج ضروري في حالة ما إذا كان أحد الطرفين يحمل الأمر على محمل أقل جدية من الآخر. هذا هو ما أردت قوله، عزيزتي أولريكة.

نظرة عينيك الآن - هكذا، ربما، نظر أول إنسان بعد البرهنة على أن الأرض ليست قرصاً مستديراً بل كرة. أبعده يديه عن كتفيها. رنت إليه رافعة رأسها. قال لنفسه: طولي ليس 187. تقدمت بفمها، وقربت وجهها من وجهه حتى تلامست الشفاه مرة أخرى. برهة لا تُقاس. عندما شعر بشفتيها على شفتيه كانت عيناها مغمضتين.

ولم تلبث أن غادرت الغرفة. لمَ لم يمنعها؟ لم تعد الآن معه! طالما هي معه، واقفةً أمامه، في مجال بصره وفي متناول يده، لا يمكن أبداً أن يقول أو يشعر بما سيكون عندما لا يعود بمقدوره أن يراها أو يلمسها. لو استطاع المرء أن يتنبأ سلفاً بشعوره، لما سمح لها بالانصراف، و...، آخ، ماذا سيفعل إذاً...

ولكنها ما زالت بالقرب منه. سيرها بعد قليل. راح يذرع الغرفة ممعناً في التفكير. هذا الطلب السخيف أكثر الوسائل عجزاً عن التعبير عن جديته. ولكن ربما تكون الأم بحاجة إلى

مثل هذه الوسائل المُساعدَة، فهي لا تصغر الغراف كليلسبرغ إلا بخمسة عشر أو ستة عشر عاماً. يبدو أن الزواج لا يشغلها كثيراً. نعم، كان الطلب انتكاسة إلى ما هو غير ضروري، غير مناسب، غير عصري...

في الأمسية نفسها وصلته رسالة سيده وصديقه: استقبلت عائلة فون لفتسو الطلب أطف استقبال. السيدة فون لفتسو - وهي التي عانت الأمرين من الزواج - لن تُكره إحدى بناتها أبداً على الزواج. حديث طويل بين الأم وأولريكه. ثم أخبروه بالنتيجة التالية: أولريكه توافق على الفور، إذا كان بإمكانها أن تكون مفيدة للسيد المستشار. غير أن هناك تخوفات: عائلته في فايمر، ابنه، زوجة ابنه، أحفاده الثلاثة. ربما يشعر هؤلاء بأن هذه الخطوة تمثل قيدا لهم، وهذا ما يجعل الأمر كله موضع تساؤل.

قرأ غوته هذه السطور غير مرة. بالطبع، من يتقدم بطلب رسمي للتقرب من عائلة، لا بد من أن يحصل على رد رسمي. الكلمة الوحيدة التي تتجاوب معها أعماقه هي كلمة «مفيدة». عندما تستخدم قارئات «الرجل ذو الخمسين عاماً» هذه الكلمة في موقف مصيري شائك كهذا، فهن يعلمن تماماً أنه مكتوب في القصة: من المفيد إلى الحق وصولاً إلى الجمال. لم يكن يريد شيئاً آخر. كان في تلك الأثناء قد طرد كافة شكليات الزواج من حياة أولريكه وحياته، ولا بد أن أولريكه أخبرته أمها بذلك. وعموماً فإن الرد لا يتفق مع أسلوب الأم، هذا إذا كان الرد يمثل رأي الأم. لم تكن هذه هي أماليا فون لفتسو،

المرأة البهيّة التي تملأ بحضورها كل غرفة تدخلها. وليس هذا أسلوب أولريكه إطلاقاً. هكذا راح غوته يرمم بعناية مشاعره وآماله وحالته.

ثم حانت ساعة الوداع في عصر يوم الثامن عشر من أغسطس 1823. العربة في الانتظار. الأم وبناتها يرتدين ملابس السفر. سنلتقي ثانية، هذا مؤكد، نفترق على وعد باللقاء. لا شك. دفء الأم القلبي أشعل الحماسة في المشهد كله. العناق أكثر من مجرد وداع تقليدي. لم يستغل عناق أولريكه للتعبير عن عواطفه بضغط جسدها إليه. أماليا هي الوحيدة التي ذكرت الشريط اللاصق على الجبهة والأنف والذي أصبح الآن أصغر. لو كنتم تجولتم معي في الحديقة، قالت، لما حدث ذلك لكم. أولريكه نفسها تسير وكأن أطرافها تطير. وجدت برتا نفسها مجبرة على أن تقول شيئاً، فأضافت: مع السلامة، سيادة المستشار، إلى اللقاء.

جرى ذلك كله على الشرفة، أي في الهواء الطلق، لذلك لم يكن ممكناً أن يقبل يدها. كن على وشك الصعود إلى العربة عندما استدارت أولريكه، ورجعت إلى حافة الشرفة قائلة:

ل ت ف م ا د ا

هاجسٌ ما قال له: لا بد من أن تفهم ذلك. ولكنه لم يستطع في تلك اللحظة أن يفهم مغزى ما تقول. على ما يبدو كانت أولريكه تتوقع أنه سيعرف معنى «ل ت ف م ا د ا» أو إلى أي شيء تشير هذه الحروف. عندما لاحظت أنه لم يفقه شيئاً،

قالت وكأنها تذكره بشيء يعرفه: لغة الاختصارات التي  
نستخدمها. ثم صاحت في اتجاه العائلة: من فضلكن، ترجمن  
للسيد المستشار معنى: ل ت ف م ا د ا .

على الفور صاحت أماليا وبرتا: لا تغيير في مكان الإقامة  
دون إخطار.

ثم قالت له بصوت خافت وكأنها تكلم نفسها: اتفقنا يا  
صاحب السعادة؟

اتفقنا. حشد كل مشاعر السعادة التي غمرته في هذه  
الكلمة.

فودعته بنبرة ظاهرها عادي: Au revoir

من نوافذ العربة أيد تلوح. ظلت يد أولريكه تلوح أطول  
مدة. عندما عاد إلى غرفته ونظر إلى الشرفة، أحس بها قفراً  
خرباً. سيقضي ما تبقى له من أيام هنا خلف ستائر مشدودة.  
هكذا أصدر الأمر لنفسه. قلبه يخفق مجيباً. وجد نفسه يستند  
إلى قضبان النافذة. قلبه. خفقات القلب تعصف بصدرة.  
تجتاح العنق. يشبه قلبه سجيناً يضرب بكلتا يديه باب الزنزانة  
كيما يطلقوا سراحه لأنه حُبس ظلماً. يحاول عبر الحركة  
والتنفس أن يتصالح مع قلبه. دون جدوى. سيعود قلبه حتماً  
إلى طبيعته فجأة، كما اهتاج فجأة. التنفس هو كل شيء. نادى  
على شتادلمان. أتاه. د. هايدلر، رآه شتادلمان وفهم، فركض  
إلى الخارج ثم هبط الدرج. ما زال يقف عند النافذة. خطوتان  
حتى الأريكة ثم جلس. لا يستطيع الرقاد. أخذ أنفاساً قصيرة



متمهلة. عاده طبيب المنتجع. لم يكن غوته محتاجاً إلى شرح أي شيء، ولكن كان عليه أن يسير مع الطبيب ويرقد على الفراش. أصغى د. هايدلر إلى نبضات قلبه، ثم قال: اضطراب في ضربات القلب. القُصْد سيساعده. وهو ما فعله من فوره. استغرق غوته في النوم. عندما استيقظ، رأى شتادلمان يجلس على المقعد بجانب الفراش. توجه بالشكر إليه، وأخبره بأنه يستطيع الانصراف.

عودة إلى مشهد الوداع. من المضحك أن يعتقد المرء أن بإمكانه أن يتخيل. عندما يحضر شيء، يشعر المرء بأنه استطاع أن يتخيله بعض التخيل. لقد مضت. الآن. والآن حضر هذا المشهد مجدداً، لغة الاختصارات التي تستخدمها بنات لِفْتسو، لقد سمعهن يتحدثن كثيراً بهذه اللغة، يا إلهي. في الأمسية الأولى التي قُرئ فيها سكوت قبل عامين. بدأت برتا القراءة من الجزء الأخير من الكتاب، فصاحت أماليا على الفور: ل ن ب ا هـ. ثم ترجمن له أن الحروف «ل ن ب ا هـ» تعني: لم نصل بعد إلى هنا. هذه هي لغة الاختصارات التي يستخدمونها. نعم. إنهن بنات القرن التاسع عشر. لن يتبادل الناس الحديث قريباً إلا عبر الاختصارات. شرحت له أماليا وبرتا ذلك بسرعة. غير أن التبرير - الذي قيل بجذ واضح - صدر عن أولريكه من دون أي حماسة تبشيرية. يبدو أنها هي مخترعة هذه اللغة.

سيسافر في اليوم العشرين. في اليوم العشرين سافر. لم يعد يستطيع فعل شيء هنا. ومن دون أفعال لم يكن له حول أو قوة أمام أفكار لم يستطع أن يدفعها عنه. بدأ قرار بداخله يتبلور

من تلقاء نفسه. لم يكن باستطاعته أن يتخيل أن يسافر في الغد، أن يسافر إلى فايْمَر. كان واضحاً إذاً أنه سيسافر في الغد إلى إيغِر. كان يتوقف دوماً في إيغِر وهو في طريقه من فايْمَر إلى منطقة بوهيميا، ثم في طريق العودة، ويزور هناك المستشار الجنائي غرونر. سيفعل ذلك في الغد أيضاً. المستشار الجنائي مكتشف للآثار وجامع لها. وعاشق لها. ولكن ليس عابداً لها على نحو يجعل المرء يشك في نفسه. اشترك كلاهما في العشق نفسه. كان غرونر يقوم معه برحلات في المنطقة. رحلات تستكشف تاريخ طبيعة المنطقة. كان في مقدور غرونر أن يقرأ الطبيعة: الأحجار والأشجار وجداول المياه والأسوار. كان يدرس كل ما يمر به. اللغات والبشر والأثاث، الرياح والطقس. وإذا لزم الأمر كان يقرض الشعر الذي كان على غوته أن يقرأه. كان يعلم أنها قصائد لا تخلد إلا اللحظة، أو مجرد وصف تسجيلي منظوم لأشياء غير لغوية. المستشار الجنائي الذي يشع تواضعاً كان له تأثير على غوته المحاط دوماً بعشاق ذواتهم. كان يشعر بأنه يروي ظمأه من ماء النبع المنعش مباشرة. من الأفكار التي هاجمته على الشرفه كان غوته يعرف أنه لن يستطيع في اللحظة الراهنة أن يتجاوز بفكره إيغِر. السفر إلى إيغِر وزيارة صديقه غرونر الذي أحيط علماً بالزيارة. لم يكن يستطيع أن يتحمل التفكير في هدف آخر.

غير أنه قبل السفر بيوم عثر على مهمة ينبغي القيام بها، أو بالأحرى: عثرت المهمة عليه. شرع يكتب. وفي المساء قرأ حصيلة ما كتب طيلة اليوم على أفخم أنواع الورق الذي استطاع

شتادلمان الحصول عليه . لم يقرأ فحسب ، بل تأمل في ما  
كتبه . وهذا هو ما راح يتأمله :

مشاركةً وجدانيةً عميقة  
لأناشيدي  
وامتناناً لذكرى ساعات  
ممتعة لطيفة .

أنشودة ثنائية عن لوعة الحب  
في إثر الفراق

هي	هو
نعم، لقد سافر	ظننتُ أنني خالٍ
لا بد من ذلك!	من الألم .
دعوني وشأني،	لكن الخوف
أيها العشاق،	تُمكن من الفؤادِ،
أنتم تستغربون حالي	عصبوا جبهتي
لكن ذلك لن يدوم!	وبقي العقل خاوياً -
بدونه	إلى أن سفحتُ الدمع غزيراً
لا أقدر على الحياة	وسمعت كلمة «وداعاً»
والآن،	تُقال في تردد

وداعها هدوء صاف

يتحتم علي البكاء .

لكنها حتماً تبكي الآن

مثلك أنت .

كان سعيداً . هذا يوم يوافق حالته الشعورية . أسلم نفسه لإحساس بكر لم يُعرّف بعد في كلمات . غير أن الإحساس كان يقود خطاه بثبات خلال بحثه عن كلمات . لم يبق على الورق شيء لم يوافق ذلك الإحساس . هذا أجمل ما في الكتابة ، لا سيما كتابة القصائد : الثقة التامة بالمكتوب ، أياً كان رأي الآخرين بعد ذلك في ما يكتبه . كان سبب سعادته أن الكلمات المكتوبة تتوافق تماماً مع الشعور الذي صاحب الكتابة . هذا الشعور لا يخطئ : وكأن النص موجود قبل أن يؤلفه . ليس عليه إلا أن يجده . وعندما يجده يشعر بالكمال . لا يمكن استبدال كلمة بأخرى ، أو وضعها في مكان آخر . نعم ، الخبرة تقول إنك قد ترى الأمر أو تشعر به على نحو مغاير في الغد ، أو بعد أسبوع . ولكن اليوم ، أنت متوحد مع القصيدة الكاملة المكتوبة على الورق . ما تعبر عنه القصيدة يزيد من كمالها . قاده في البداية شعور هو الألم . وجع لا سند له ، عبء فظيع ، وحدة بائسة وشعور فظ باستحالة الحياة . الحالة المهينة من الانكسار أدت إلى شعور كان يقودك من كلمة إلى أخرى حتى النهاية . هذه هي معجزة الكتابة . أولريكه ، اسمعيني ! أولريكه ، هل تسمعيني ؟ إذا كنت تسمعيني الآن فأنت قريبة مني للغاية . أَلَفَ بين قلبينا اتفاق اللافراق . أولريكه .

راح يقرأ ويقرأ ما كتبه . وكان أسعد من سعيد لأنه كان

يعرف من مرات سابقة عديدة أن المستشار الجنائي غرونر سيشاركة شعوره عندما يُطلعه على هذا النص . لا يمكن أن يتصور أن يكتب هذه السطور الآن ولا يعرف إنساناً يقرأها على الفور ويعيش المكتوب فيها . يود لو استطاع السفر مباشرة الآن إلى إيغر . كان يعرف أنه يحتاج بسرعة إلى صحبة عندما يفرغ من كتابة قصيدة، وهو شعور لا يراوده لدى أجناس الكتابة الأخرى . القصائد بريد سريع . بريد الروح السريع . هذا يوم سعيد، لأنه استطاع أن يتعامل مع اليأس على هذا النحو . على نحو يجعله يعترف بأنه - مكتوباً - أجمل بكثير من حالته الطبيعية الخام . سيبدل جهده حتى تتطلع أولريكة اليوم - من دون أن يعرف كيف - على هذه الأبيات كما المستشار الجنائي . من دون أن يرى أولريكة لن يظل حياً إلا إذا صاغ ما يمر به من عناء في قصيدة . نجح في ذلك اليوم . اليوم، نعم وجد خلاصه اليوم .

وكان هذا لا يكفي . جاءه في العصر الخبر التالي : عاد الغراف شترنبرغ وسيكون سعيداً إذا أُتيحت له على الأقل فرصة رؤية صديقه الكبير . ألا تكفي سعادة واحدة؟ على ما يبدو لا . آخ، في غمار أعاصير الأحاسيس التي اجتاحتها خلال هذه الأسابيع نسي أن الغراف صاح قبل أن ينطلق نحو المجر: إلى لقاء قريب، أمل أن نلتقي قريباً جداً . دخل عليه ضاحك الوجه . أراد غوته أن يعانق هذا الإنسان على نحو يجعله يبدأ في التأمل . نعم، عليه أن يشعر بالتأثر . يمكنك أن تعد على أصابع اليد الواحدة عدد الناس في العالم كله الذين يكونون لك

- مثله - هذه المودة من دون قيد أو شرط. هذا الشعور الذي يمر عبرك ويصل للآخرين: يمكنك أن تعيش اللحظة بلحظتها وليس عليك أن تحبس الأنفاس وتبقى مستعداً لكل ما يمكن أن يحدث. ثم تلاحظ أن الآخر يشعر مثلك تماماً. لم تره إلا نادراً، وتبادلتما الرسائل متفقيين من الناحية العلمية، لكن الاتفاق كان في نبرة الحديث أكثر منه في الموضوع. إنك تتذكر يوم الحادي عشر من يوليو. على طريق التنزه. آل ليفتسو. تعرفت على ملامح المجموعة من بعيد، ثم وجهت خطواتك وخطوات الغراف - دون أن تقطع حديث الأحجار الأثير لديكما - إلى آل ليفتسو. التحية ثم تناول الطعام. كان الغراف هو الوحيد الذي شعر بك. كم كانوا كثيرين، أولئك الذين ظلوا جالسين في أمسيات العام السابق والعام قبل السابق، أغبياء وصم، لم يلاحظوا أنهم بكلماتهم السخيفة المقاطعة يثقلون على الحديث. أما الغراف فقد انصرف على نحو نبيل تماماً، لأنه شعر بأنك تحتاج إلى الانفراد الآن بآل ليفتسو. استطاع أن يشرح للغراف من دون خجل حكاية الشريط اللاصق الذي بقي على الجبهة المجروحة، وأن يضيف على سبيل الفكاهة كيف كان رد فعل كارل أوغست خيالياً. لم يجد شيئاً لا يود أن يتبادل حوله الحديث مع الغراف شترنبرغ. ليس مهماً عن أي شيء يتحدثان - هذا شيء يُظهر اتفاقاً مبدئياً في الحياة يجعل الإنسان مبتهجاً. ثم عرف أن الغراف سيسافر أيضاً إلى إيغر. راعي العلوم والفنون هو، ويفضل كنوزه استطاعت متاحف منطقة بوهيميا وكلياتها أن تظل على قيد الحياة. وهو

بالطبع يعرف المستشار الجنائي غرونر. كلٌ منهما يكن القدر نفسه من الود له، هذا يبين من جديد مدى تقارب روحيهما.

عندما سافرا كانت السماء تمطر، لا، بل تفرغ ما في جعبتها إ فراغاً. كان الطريق حافلاً بالحفر الكبيرة الممتلئة بالمياه التي لم يكن الإنسان يستطيع تقدير عمقها لأنها كانت مليئة عن آخرها. لاحظ غوته أن صديقه ينظر قلقاً تجاه شتادلمان. لم يكن الغراف راعياً للمتاحف والجمعيات التي تحافظ على التراث فحسب، وإنما كان يبذل جهده لكي تظل المعاهد العليا والمدارس على مستوى تقني رفيع يستطيع أن يتنافس مع البلدان الأوروبية الأخرى. لهذا شرع غوته يمتدح عربته التي يعتبرها الأفضل على مستوى كل منطقة ساكسونيا وتورينغيا على الأقل. ليس هناك عربة على طول البلاد وعرضها تتمتع بهذه المتانة والراحة. لا عربة أخف وأسرع وأكثر أماناً من عربته. لقد بذل غوته قصارى جهده من أجل أن تتوفر له حرية الحركة، وإلا لما استطاع أن يتحمل فايمر. يستطيع، إذا أراد، الانتقال بسرعة إلى فرانكفورت أو دريسدن أو إلى أي مكان يشاء. لكنه يعترف أنه في معظم الأحيان لا يريد السفر بعيداً. غير أنه يريد التنقل بسرعة في أرجاء المنطقة.

قال الغراف إن هذا جانب جديد من غوته لم يكن يعرفه. عندئذ ذكر غوته - بكثير من التفاخر - رحلته الأولى بالعربة، مع أوتيليا. طلبت أن تجلس وحدها إلى جانب غوته في رحلة التدشين. كان على ابنه أوغست، زوجها، أن يظل في البيت. وبالفعل جعلته هذه الرحلة الهادئة المتأرجحة، التي

كانا يشعران بخطورتها أحياناً، يقترب من زوجة ابنه اقتراباً شديداً. عندما عادا إلى فايמר، ومرا بساحة «فراون بلان»، وعندما ساعد أوتيليا على النزول إلى الفناء، قال لها: «سرعة شيطانية». وهكذا ولدت هذه الكلمة التي انتشرت منذئذ باعتبارها من الكلمات التي نحتها هو. ليس بحاجة إلى شرح الكلمة إلى الغراف، ولكن أوتيليا كانت تحتاج إلى شرح.

كلمة جميلة، قال الغراف، وتعبر عما ينتظرنا. أو ينبغي أن ينتظرنا. طالما يجلس في العربة فإنه لا يريد أن يلعنها كشیطان.

قال غوته: بدون حوذي كشتادلمان لا يود أن يسافر بمثل هذه الخفة ذات العجلات الأربع. أترى كيف يسير في اتجاه كل حفرة مياه، وكيف يختار دائماً أكبر الحفر؟ بهذه الطريقة لن تنقلب العربة أبداً. ذات مرة قال لشتادلمان: لو أراد أن يصنع معروفاً مع نابوليون لكان أهدها شتادلمان كحوذي شخصي له. وهو، قال شتادلمان، كان يفضل أن يشنق نفسه على غصن شجرة على أن يفارق غوته.

ثم وصلا إلى إيغر. تحسن الطقس. كانت الغرفتان محجوزتين في فندق «الشمس». جاء المستشار الجنائي غرونر إليهما، وقضيا أمسية تخلو من الهموم. عندما انصرف غرونر أعطاه غوته في مطروف الأنشودة الثنائية عن «لوعة الحب» وقال له إن السيد المستشار الجنائي واحد من أبناء مهنته - أي مهنة غوته - ولذلك فإنه يرجو ألا تغلبه الشفقة أثناء القراءة، بل أن يعجبه الفن.



في صباح اليوم التالي عبّر المستشار الجنائي بعناق خشن عن مشاعر امتنانه لغوته لأنه أشركه في مشاعره العميقة. فرد غوته أنه إذاً يستطيع ببساطة أن يقول إن زهرته الصيفية أينعت في إيغر أيضاً.

تجولوا في المنطقة طيلة ثلاثة أيام. كان غوته يقظ الحواس، متنبّهاً، وكان المنطقة ليس فيها إلا الحجر الجيري والگرانيت والمرمر والغينيس والفيزوفيان الذي يطلقون عليه هنا إيگران والكوارتس والولفانيت المتبلور والأميست. كل هذه الأحجار كانت موجودة في المنطقة المجاورة. على سبيل الاحتياط طلب غوته عدة نسخ من مجموعة غرونر ليأخذها معه إلى فايمر، ووعدته في مقابل ذلك بقطعة كبيرة من المعدن الحُببي، كان قد حصل على ثلاث منها من سيبيريا. أثناء تجوالهما كان يقف في بعض الأحيان فجأة وينزل من العربة ثم يسير إلى حاصدي الغلة الذين كانوا يشحذون المحشّات، فيسألهم من أين حصلوا على حجر الشحذ. كان الرجال يقتنون هذه الأحجار من سوق إيغر. هذه هي كل معلوماتهم. ولأن غوته قال إن من الممكن الاستفادة من تلك الأحجار في فايمر وعده المستشار الجنائي بالحصول على بضع قطع.

أفرط غوته في الاهتمام بكل شيء. كان عليه أن يبرهن لنفسه أن باستطاعته أن يهرب بفكره ساعات بعيداً عن أولريكه. وإذا لم يفعل ذلك طوال ساعات، فعلى الأقل طوال دقائق.

عندما جلسوا مرة أخرى في الأمسية الثالثة معاً وامتدحوا بيرة إيغر وفاق كل منهم الآخر في سرد الأخبار التاريخية

المتنوعة التي في حوزته، فاعلين ذلك بأكبر درجة من اللطف والبشاشة، عندئذ أعلن المستشار الجنائي أن نهمه إلى تطعيم الأشياء وتهجينها لا يعرف الشيع. لقد أصبح هكذا بعدما لاحظ أن العالم، إذا حفرت في أرضيته قليلاً، يحفل بالطبقات التاريخية. العالم حكّاء، صاح المستشار الجنائي وقد غلبته النشوة، من البيرة أيضاً. نهمه إلى تطعيم الأشياء وتهجينها لا يعرف الشيع إذاً، وهو يطعم شجرة حياته الخضراء بفرع جديد من البحث: الأغاني الشعبية. إنه يطلب العون من كل من يستطيع. ليس بمقدور أحد بمفرده أن ينجز هذه المهمة. مثال: هناك أغنية شعبية، بل إن لحنها يدور في رأسه، ولكنه لا يتذكر سوى بداية النص فحسب.

إلينا بالبداية إذاً، قال غوته، وسوف يأتيك الغراف شترنبرغ وشخصي الضعيف ببقيته.

بين الدندنة والإلقاء العادي قال المستشار الجنائي. في حصن ستراسبورغ، هناك غلبنى الحزن . . .

ضغط غوته على الفور بيده اليمنى على عينه اليسرى وكأن عليه حمايتها من شيء. عندما لاحظ أن غرونر يراقبه، أدار رأسه إلى الغراف دون أن يرفع يده عن عينه اليسرى.

الغراف: معروفة، بالطبع. ثم راح يدندن باللحن. نعم، صاح، لا بد أن مؤلف هذه الأغنية سويسري، سويسري كان يؤدي الخدمة العسكرية في بلاد غريبة. ثم واصل الغناء: وسمعتُ عازف البوق يبدأ العزف هناك . . .

ثم شرع كلاهما في البحث عن بقية الكلمات .

لأن الطقس اليوم كان فظاً بما يكفي، ولأن الرياح الشرقية كانت تهب في بعض الأحيان عاتية، أبلغ غوته صديقه أن عينه اليسرى التي تتسم بحساسية أكبر من اليمنى قد التهبت على ما يبدو، ورغم كل قواعد السيميترية . لذلك فإنه سينصرف للتو . وانصرف محتفظاً بيميناه أمام عينه .

كان يعرف نفسه إلى حد ما، وكان يعلم أن عليه في هذه الليلة ألا يكلف نفسه بأي جهد، وخاصة السفر . لا سيما إلى فايبر . سيطرت الحيرة عليه . سيطرت الحيرة عليه طوال الليل . يطول الليل الذي يحار فيه المرء . كان رأسه ثقيلاً على الوسادة، وكأنه يضغط بكل قوته عليها . لكن الرأس كان ثقيلاً بذاته . في حصن ستراسبورغ، هناك غلبني الحزن . . .

بدا متماسكاً عند الإفطار . قال الغراف شترنبرغ إنه سيواصل السفر اليوم أيضاً . رغم أن غوته لم يكن قد قال بعد إنه سيسافر . لكن شترنبرغ كان يستطيع أن يقرأ وجه صديقه . ظهر غرونر وسلم غوته مظروفاً قائلاً إن في داخله نسخة من «الأنشودة الثنائية»، وربما يحتاج سعادته إليها . ثم سلم غرونر عليهما مودعاً . وقال في الختام : إلى لقاء بهيج . عندما سأل الغراف متى تنطلق العربة التالية إلى كارلسباد، أجب غوته من دون تفكير : بعد ساعة . شتادلمان وأنا في انتظارك .

في العربة قام غوته بحماية عينه اليسرى مستخدماً منديلاً . كانت العين ملتهبة بعض الشيء . كان قد فحصها أمام المرأة . انطلقوا من إيغر في الواحدة ظهراً وقبل الرابعة وصلوا إلى

كارلسباد. عندما توقفوا أمام «النعامة الذهبية» كان الالتهاب قد ذهب عن عين غوته. توجه غوته بالتهنئة إلى شتادلمان الذي ضحك.

خلال الرحلة أطلع الغرافُ غوته - من دون أن يخبره مباشرة - على أن آل ليفتسو يعرفون خبر وصوله، أي وصول الغراف. ضمّن حديثه تلك العبارة وكأن وصول غوته لم يكن متوقّعا هناك. لم يكن غوته في حالة تستدعي أن يعامله أحد بمثل هذه الحساسية التي يعامله الغراف بها. قال ببساطة ما حدث. لم يقل ذلك على نحو يجعل الغراف ملزماً بالتعاطف مع غوته وتقديم العزاء له. حاول غوته أن يتغلب على هذه المشاعر تحديداً عبر تقريره الجاف. شعر هو نفسه بأنه يستحق الشفقة. إنها معجزة من أجمل ما تكون، أن يسافر صديقه الغراف شترنبرغ معه إلى كارلسباد. لا يستطيع أن يتخيل حاله لو كان تحتم عليه أن يسافر اليوم وحده من إيغر إلى كارلسباد. كان لا بد من الرحلة. لا بد من السفر، وحده. عليه أن يحرر أولريكه من سجن العائلة. لا يمكن أن يسمح بأن يضحى بحياته وحياة أولريكه على مذبح أم ضيقة الأفق مهما كان نبلها. هذا ما تنتظره أولريكه منه.

ولأنه جاء مع الغراف، كان وصولهما حدثاً اجتماعياً، مفاجئاً بالطبع. ولكنه يحدث كثيراً في تلك الدوائر، وخصوصاً مع شخص متقلب المزاج مثل غوته. خفف الوصول عنه، ربما أكثر من اللازم. الوصول إلى هناك في حد ذاته كان يشبه البرق في يوم صيفي لم يتوقع فيه أحد سقوط المطر. كان يود أن

يعرضهم لهذا المطر. يُعرّض مَنْ؟ الجميع، الناس، الفضوليين.  
في «النعامة الذهبية» في «شارع المروج العتيقة» كان كلاهما  
معروفين، ولكليهما مكان. عومل الاثنان وكأنهما حجرا في  
الفندق. عرف غوته - دون أن يسأل - أن غرفته، كما العام  
الماضي، هي في الطابق الذي يعلو غرف عائلة فون لِفِتسو. ألا  
يؤثر هذا في النفس! صاحب الفندق يتعامل معك على نحو يلقن  
العالم كله درساً في كيفية معاملة المسافرين. المسافر جريح.  
هذا شيء يعلمه صاحب الفندق. صاحب الفندق هو طبيب  
إسعاف الروح. فظيع أن يتحتم عليك أن تقول له: الوضع كذا  
وكذا، أعطني من فضلك هذه الغرفة أو تلك. لا يتحتم عليك  
ذلك في فندق «النعامة الذهبية». اسم على مسمى. طلبا مقابلة  
آل لِفِتسو، فسُمح لهما بالدخول. بقيا واقفين عند الباب، وكل  
منهما يطلب من الآخر أن يتفضل قبله. شعر الغراف أن ظهوره  
هنا أقل تأثيراً من ظهور غوته، لذا سار إلى العائلة التي وقفت  
أمام المقاعد والموائد لتلقى التحية. أدى الغراف التحية بحسب  
كامل التقاليد. أوصل لهم التحيات من رحلته المجرية، من هذا  
القصر أو ذاك، ومن ابن العم هذا أو ذاك. تلقوا التحية مهللين  
بأعلى صوت. ثم وقف الغراف بالقرب من العائلة وكأنه واحد  
من الذين على غوته أن يحييهم الآن.

بدأ غوته - بحسب ترتيب الوقوف - بالصغرى. قال  
استهلالاً عندما اقترب خطوتين من المجموعة ثم توقف فجأة:  
اشتقت إليكم.

على الفور ردت أماليا: إلينا أم إلى أولريكه؟

إلى كل أفراد عائلة لِفِتسو، قال بجدية تامة. شعر أن كلامه بدا جدياً أكثر من اللازم، فقال بنبرة المرح فيها واضح ناظراً باتجاه أماليا: إلى الجميع.

لم تستسلم أماليا وتساءلت: وإيّي؟

تطلع غوته إليها وقال: كما يتشوق حجر نادر إلى يد فتاة تتناوله وتتملى فيه، لأنه يعلم أن هذه الفتاة فحسب تفهمه وتفهم لغة الأحجار.

بدأت أماليا في هذه اللحظة راضية. كان على برتا بالطبع أن تتساءل الآن: وكيف اشتقتم إليّ؟

كما يشتاق الأيل، قال غوته، الذي يكاد يموت ظمأً إلى نبع المياه الذي سينقذه من الموت.

عقدت الدهشة لسان برتا. حان الدور الآن على الأم التي بادرت بالقول: كما اشتاق المستشار إليّ، فإننا لا نريد أن ننقل عليه.

خسارة، قال غوته.

تفضل إذاً، قالت.

غوته: اشتقْتُ إلى أن تسمحووا لي بأن أتقدم إليكم باعتذاري عما أقدمت عليه من فعلٍ كان وليدَ الذعر، أما ما تسبّب فيه من إحراج فلا يفوقه سوى ما أثاره من مرح.

برافو، صاحبت البارونة، وسارت في اتجاه غوته وقالت: كان نابوليون محقاً: Voilà un homme<sup>(1)</sup>

---

(1) عندما التقى نابوليون بونابرت بالشاعر غوته قال له: ها هو إنسان. (م)

تجمعوا كلهم حوله الآن، مصافحين معانقين، إلا أن أولريكه لم تحرك ساكناً. عندما لاحظ الجميع ذلك واستداروا إليها سار غوته في اتجاهها، غير أنها عرضت عنه وقالت: أريد الآن أن أعرف لماذا تشوق إلي صاحب السعادة؟  
وكان الطير حط على رؤوسهم جميعاً.

قال غوته: حياً.

أعطته يدها قبل أن يمد يده إليها. لعله لم يكن سيتكلم هكذا لو لم يكن الغراف شترنبرغ موجوداً. ما قاله في حضور هذا الرجل كان يبدو كالفعل. ضغط الغراف على كفه.

قال غوته: شكراً. ثم انصرف. كما ينصرف الإنسان الذي يعلم أن الجميع يتابعه بالبصر.

لم يفته أن السيدة فون لِفِتسو أرادت تنظيم مجيئه . كان مُرحباً به لدى العائلة أثناء الفطور الذي كان يبدأ في السابعة ومن الممكن أن يمتد حتى التاسعة . تعود أن يذهب دوماً في السادسة إلى النبع الفوار ويشرب من مائه ، وهناك تبادره بالحديث تلك الشاعرة البولندية التي تنتظر منذ سنوات حضوره إلى كارلسباد في شهر سبتمبر حتى تدس في يديه أحدث قصائدها . بعد ثلاثة أيام بادرته بالحديث مرة أخرى حتى تعرف ما إذا أحرزت تقدماً . في اليوم الثاني تربصت به لتسأله ما إذا يتحرق شوقاً إلى قول رأيه حول القصائد . لم يستطع أن يغير معاملته لها . قبل سنوات عديدة لم يستطع أن يرفض قراءة قصائدها ، وعندما يقرأ الإنسان قصائد شاعر لا يمكن أن يتظاهر في ما بعد أنه لم يقرأها . لحسن الحظ كان النبع الفوار حافلاً بالناس حتى في الساعة السادسة صباحاً ، وبالتالي لم يتحتم عليه أبداً أن يتحدث عن قصائدها من دون إزعاج من أحد . وعندما يقول لها رأيه في بيت ما فإنها على الفور تتلو له البيت بالبولندية وتقول له إن الترجمة ما هي إلا ظل للأصل .



كان الغراف شترنبرغ يحضر إلى النبع الفوار في الخامسة والنصف. وعندما يعجز غوته عن التخلص من محدثه كان يعطي الغراف إشارة فيحضر إليه ويحرره بأكثر الوسائل تهرباً من سيل الكلمات التي يصبها عليه المتحدث. حتى يوليا فون هوهنتسولرن، التي اختتمت الموسم الصيفي دوماً في كارلسباد، كانت على ما يبدو تنتظر إشارة منه. ليس في كارلسباد، ذلك الوادي الضيق، مروج واسعة يضاوية كما في مارينباد، ولأن على الزائرين أن يسيروا بجوار بعضهم البعض لذا كان من السهل أن يُبادر أحدهم بالحديث. لم يكن في منجى من أي حديث إلا عندما تسرع يوليا فون هوهنتسولرن لتقدم العون له.

لم يشارك الغراف في الأنشطة الاجتماعية التي تسمح بها السيدة فون لفتسو إلا في المساء بعد تناول الطعام.

قال غوته إن على البنات أن يدركن أخيراً أن أمامهن في شخص الغراف واحداً من أشهر علماء النباتات المتحجرة في كل أوروبا. كرر الكلمة ضاغطاً على كل حرف: ال م ت ح ج رة. تلقفت أماليا وبرتا الكلمة كما تتصيد السمكة الطعم. كان يعرف ذلك.

كان الغراف يستمتع بصحبتهم. حكى لهم أن عماله عثروا لتوهم في منجم الفحم الخاص به على جذع متفحم منتصب في استقامة. لقد علم عماله، أكمل الغراف، أن يخبروه فور عثورهم على شيء كهذا. أمرهم بالحفر حول الجذع بحذر، على أن يقوم بفحصه في أقرب فرصة. لم لم يتفحم هذا

الجذع؟ وما عمره؟ هذا يشير اهتمامه . عالم الحفريات النباتية مؤرخ لا يهتم بأمر الملوك وسير المعارك بل بحال النباتات عبر العصور .

كان غوته يجلس بجانب الأم وفي مواجهة أولريكه . لا بد أن يتمكن من رؤية أولريكه دون أن يتعمد النظر ناحيتها . يجب البحث عن نظرتها . عندما تتلاقى نظراتهما يسمع الحديث الدائر آتياً من بعيد . تكفلت أولريكه بأن تفترق عيناهما في الوقت المناسب . أظهرت اهتماماً لافتاً عندما كان الغراف يتحدث عن تقدم العلوم الهندسية .

إنه يبذل ما استطاع من جهد كي يشجع تطور هذه العلوم في هذا المصنع أو ذاك من مصانعه .

سألت أولريكه ما إذا بإمكانها زيارة أحد مصانعه ، والأفضل مصنعاً للغزل أو النسيج حيث تعمل نساء وفتيات ، وربما على ماكينات أيضاً .

غمرت الحماسة الغراف . لا بد من أن يقودهم ذات مرة في صالات مصانعه .

أشارت أولريكه إلى التنورة التي ترتديها ، حمراء تخرقها خيوط خضر سميكة متقاطعة مكونة هربعات . إنها اسكوتلاندية ، قالت . المسوا هذا القماش ، هذا ملمس الفردوس . الخراف من الممكن أن نربيهما نحن أيضاً ، أما الباقي فيمكن تعلمه .

ملتفتاً إلى غوته قال الغراف : أراك مندهشاً . القدرات دائماً

أكثر مما نعتقد. سأحكي لكم خبراً أتاني من لندن، ربما يهتمكم: إن آدا بايرون، ابنة الشاعر، يُحتفى بها في كل أنحاء لندن باعتبارها طفلة معجزة. ليس في الرياضيات فحسب، بل في الفيزياء أيضاً. إعطاء الماكينات أرقاماً تعمل وفقها: هذا هو حلمها.

تكهربت أولريكة بكل معنى الكلمة لدى سماعها الخبر. وعدّها الغراف أن يطلعها بكل ما يتناهى إلى سمعه عن آدا بايرون التي ترعرعت - بالمناسبة - بعيداً عن أبيها.

شعر غوته أنه يغرق. حيث لا قاع. في كتابه «سنوات التجول» احتفى على امتداد صفحات عديدة بالحرف اليدوية، بالغزل والنسج. استخدم كل كلمات العمل الممكنة كما لم يفعل أحد قبله. الآن يعرف أن أحداً بعده لن يفعل ذلك. لم يغمض عينه عن هذا التوجه إلى المكننة، غير أن هذه الماكينات التي تتقدم بلا توقف تخيف أبطال روايته لأنهم يرون الصحراء التي تتمدد عندما يفر الناس من الوديان بعد أن تتولى الماكينة العمل بدلاً منهم. عالم العمل في روايته أمسى متحفاً. المستقبل اسمه آدا بايرون! أولريكة والغراف، أحب اثنين إلى قلبه، هما المستقبل. لم يشعر بأدنى رغبة في الدفاع عما كتبه، فهو يحب أولريكة ويحب الغراف. يريد أن ينتمي إليهما، وهو مستعد لأي خيانة. الحياة. الاثنان هما الحياة. هكذا جلس هناك. هكذا كانت مشاعره. وهكذا كان بإمكانه ألا يدافع عما كتبه.

عندما انفرد بالغراف أحضر الأخير من غرفته جهاز تلحيم

أهداه له الكيميائي السويدي برتسيلوس . أراد أن يعرض على غوته كيف يمكن باستخدام هذا الجهاز إثبات الآثار التي يخلفها التيتانيوم في الأحجار . كان يعلم أن آثار التيتانيوم هي موضوع غوته المفضل هذا الصيف . لذا استغرب الغراف للغاية عندما رجاه غوته أن يقوم بهذه التجربة في حضور أولريكه . دُهِش . كان هذا حقاً اقتراحاً غريباً . هز غوته رأسه ببساطة ولم يعلق .

في اليوم التالي قال للغراف دون أي محاولة للالتفاف حول الموضوع إن الأنسة فون لِفِتسو تملك عليه كل تفكيره ، ولهذا لم يبق من اهتماماته المتعددة شيء على قيد الحياة . لم يبق سوى اهتمامه بأولريكه فون لِفِتسو . يستطيع أن يبوح للغراف لأن الغراف يعرف ذلك حتى وإن لم ينطق به .

ضغط الغراف على يده قائلاً: ما يثير الاهتمام ينعش النفس . وكلما زاد الاهتمام انتعشنا أكثر فأكثر . أياً كان مجال الاهتمام، المهم هو العمق .

أنت تتحدث معي كما أتحدث في المعتاد مع الآخرين عن آخرين .

والآن سأقول على الفور، أردف الغراف ضاحكاً، إن صاحب السمو، شاعر الأمير، يرأف بحال مهندس مجتهد لم يستطع طيلة حياته أن ينظم بيت شعر واحداً موزوناً ومقفى . وكأنه يطالبه بأن يقول إن هذا أمر قد يتغير في أي لحظة .

ثم انطلق يحكي من دون خجل ما حدث عندما أعطى أولريكه الأنشودة الثنائية عن اللوعة . النسخة . بعد أن راح يراجعها لكي يتأكد من أنها تتطابق مع الأصل تماماً . ثم ألقى الأنشودة الثنائية

كلها. وكيف كان رد فعل أولريكه المتحمسة للآلات؟ بأكثر درجات المرح قالت: رغم أنني حصلت على بيتين أقل منك، فأني أشعر بالتعبير الدقيق عن خلجات نفسي. غير أنني أطلب بالبيتين اللذين حُججا عني. ثم نظمت الشعر لأول مرة في حياتها. وقرأت البيتين التاليين:

سأرسل له العَبَرَات في زهرة أرنیکا

كي يحفظها وهو يفكر بنا

الغراف: أنت تجعلنا جميعاً ننظم الشعر.

غوته: لأن الجميع شعراء.

غمرت السعادة السيدة فون لِفِتسو. كان الغراف سميراً يلبي كل ما يمكن أن تتمناه أم. كل مساء كانت تستطيع أن تراقب ما يحدث. حتى عندما يجلسون في الهواء الطلق يحتسون الشاي، ثم يبرز هلال القمر المتناقص من خلف جبل «دراي كرويتس»، كانت تسود أجواء ترضي الأم، لأن الغراف كان يشرح لهم القمر المتناقص البازغ ليس باعتباره نوراً يهيب جواً ملائماً للعاشقين، بل باعتباره مسرحاً كونياً فيزيائياً مثيراً.

بوضوح وألم شعر غوته كيف أضحى جزءاً من مشهد يعجز عن أن يفعل حياله شيئاً. كان يطلب السماح له بالتنزه مع أولريكه في وضح النهار على الجانب الآخر من الشارع أو التمشي قليلاً على امتداد نهر التلب في المروج، وكأنه يطلب تأجيل موعد تنفيذ الإعدام. والسيدة فون لِفِتسو، التي كانت

حتى لحظة معينة في مارينباد تلك المرأة الرائعة البهية ومدام دو بومبادور، كانت تسمح له بالتنزه في المروج لقاء ثمن يدفعه في المساء عندما يوافق على الحضور والاستماع إلى ما يحكيه الغراف فالنسكي من فظائع حول معاناة الشعب البولندي، وذلك أملاً في أن يرفع الشاعر المشهور في العالم كله صوته المسموع دولياً ليطالب بالتخفيف عن معاناة الشعب البولندي أو رفعها كلياً وذلك عبر حملة إغاثة دولية. لعبت والدة أولريكه هذا الدور كثيراً في مارينباد: أن تتوسط لتنظيم لقاء بين غوته وأفراد من محيطها. ومن أجل خاطر أولريكه لم يرفض مرة واحدة.

خلال هذه النزعات على المروج، المراقبة رقابة تامة، تحتم عليه أن يقول لأولريكه بأنه قد اقترب اليوم الذي يجب عليه فيه أن يستبدل بالرقم الجميل 73 ذلك الرقم الضخم الجارح: 74. لذلك عليه للأسف أن يخطط لقضاء هذا اليوم. إذا استطاع أن يقضي غداً بالقرب منها يوماً كاملاً فلهذا يستطيع أن يتحمل طوال اليوم هذا التاريخ الذي يُذكر بالنعش. ولكن عليها أن تظل طوال الوقت على مرأى من الجميع. اقتراحه: السفر في صباح الغد، في السابعة، إلى إنبوغن. سنجد شتادلمان ويون في انتظارنا هناك. في التاسعة ستصل العائلة، وفي «الفرس الأشهب» سنتنظرنا مائدة الإفطار ونزهة طويلة على الضفة اليمنى لنهر الإيغر بين الممرات الصخرية التي سُقت حديثاً، وهي بالمناسبة ضيقة وحادة الزوايا وحافلة بالمنحنيات. لذلك لن نستطيع حتى السيدة فون ليفتسو أن تواصل رقيبته في

كل ثانية وكأنها تراقب عبيداً، ولكنهما لن يستطيعا الاختفاء عن الأنظار أكثر من تسع عشرة ثانية. بعد ذلك يبدأ التفرج على «الأمير الملعون»، وهو حجر نيزكي سقط في النافورة الجبلية في إلنبوغن من السماء مباشرة، أو كما سيقول الغراف: من الفضاء الكوني. بعدها سنتناول الطعام ثم نبدأ رحلة العودة، بشرط: آل لِفِتسو سيكونون ضيوفه في هذا اليوم. على أولريكه أن تعده أن تبقى دوماً في مجال البصر، وثالثاً: ألا تذكر كلمة «عيد ميلاد» ولا الرقم المرتبط به.

آه، نعم، ردت أولريكه، مقلدة إياه في وضوح وسخرية.

فسألها ممسكاً بيدها: أتعديني؟

أعدك.

عندما ترك يدها قال: عليك أن تشرحي في ما بعد لوالدتك التي تراقبنا الآن بالتأكد أن مُصافحتي هذه ما هي إلا تأكيد لوعد لن يدوم إلا يوماً، هو الغد.

سار اليوم كما كان مخططاً له. غير أنه رأى كأساً من الكريستال على مائدة الغداء في إلنبوغن، قامت برتا بتسليمها إلى غوته. أسماء البنات الثلاث كانت محفورة على الكأس في شكل إكليل من اللبلاب. قرأ غوته الأسماء، موجهاً في كل مرة نظرة إلى التي يقرأ اسمها. في البداية برتا، فأماليا. ثم أولريكه. وقرأ التاريخ: 28 أغسطس 1823. والمكان: إلنبوغن. عندئذ تطلع إلى الأم وقال بنبرة حاول قدر الإمكان أن تكون مرحة:

الآن، لا يتبقى سوى أن نلعب لعبة القوافي .  
بكل سرور، قالت برتا، ثم أضافت :

في صحة إنبوغن وفي نخبكم .  
هو : ولتبق لنا دوماً ولكم .

برافو، قالت برتا .

أماليا: كنتُ أفضل وزناً حراً طليقاً .  
أولريكه: لكن القافية تلجم موجاً عاتياً صخياً .

الأم: الدهشة تعقد لساني .

أولريكه: أخيراً لدينا مناسبة تدعونا للاحتفال .

انطلقوا يغنون خلال رحلة العودة إلى المدينة عبر تلال الهامر . حتى قبل أن ينزلوا من العربة رأوا الحشود تتجمع أمام «الفرس الأشهب» . ثم بدأ العزف على آلات النفخ . صيحات تهليل واحتفاء لا تريد أن تنتهي . بسرعة اختفت السيدة فون لِفَتسو مع بناتها وسط الحشود . بحركة آلية أراد غوته أن يمسك بأولريكه، بل ولمس راحة يدها اليسرى، ولكن لم يبق في يده سوى قفاز حريري بنفسجي . دسه على الفور في جيبه . من غير اللائق أن يعدو خلفهم . ومن غير المسموح أن يلاحظ أحد عموماً أنه يريد أن يعدو خلفهم . عليه أن يبقى . وفجأة شعر



بالرغبة في البقاء. أحس بذلك حقاً. وجد نفسه يرفع ذراعيه، يديه، وصاح - لأنه ببساطة لم يكن يريد أن يظل صامتاً - بكلمات وجمل في اتجاه الضجيج الودي المؤلف من موسيقى حماسية وصيحات تهليل. شعر بنفسه محمولاً مأخوذاً، بل وراح هو أيضاً يهتف: يعيش، يعيش، يعيش مُشعلاً بدوره حماسة الجمع. بدأت الفرقة في عزف نغمة يعرفها الجميع. لم تعزف الفرقة سوى مطلع اللحن، ثم سرعان ما تولى الأمر خمسة من نافخي البوق. شبان وسيمون في العشرين من عمرهم لوحث الشمس وجوههم. نفخ النافخون أغنية: «وردة رأها صبي...». كان عزفهم مرهف الحس وليناً كالحرير. حل الصمت على الناس. احتفى النافخون الخمسة بالأغنية احتفاءً كبيراً، وزادت الأجواء احتفالية الشمس الغاربة في مهابة. سألت الدموع من مآقي الجميع. وسالت دموع غوته أيضاً. لم يخفها. بمنديله مدبب الحواف مسح الدموع عن عينيه غير مرة، وبكى الناس معه. الرجال أيضاً بكوا. عندما يعايش شيئاً، تخطر على باله دوماً الكلمة المناسبة لما يعايشه، والآن خطرت على باله كلمة: الأنس شعر بالأنس. لأول مرة في حياته. ملأ جوانحه هذا الشعور حدّ المناعة. في هذه اللحظة كان يعرف: كل شيء سيسير على ما يرام. نادى على برتا وأماليا وأولريكه، صاح بأسمائهن. ولكن العازفين على آلات النفخ النحاسية لم يعطوا أحداً فرصة الاستماع إلى شيء آخر غير موسيقاهم. أعطى المايسترو إشارة للفرقة، فشرعت تعزف أحدث المارشات الفييناوية ثم سارت في اتجاه النبع الفوار. أفسح الناس لهم. يا

له من رجل عظيم، قال غوته لنفسه، هذا المايسترو. إنه ينصرف من الميدان بمارش بهيج بعد أن أسأل لتوه دمع الحشد الواقف. الموسيقى! قالها غوته متجنباً أن يهز رأسه.

رافق خادمان من الفندق غوته في خطواته الأخيرة إلى الدرج. وعندما ارتقاه ووقف عند الباب استدار مرة أخرى ليتلقى شاكرًا ممتناً آخر صيحات التهليل، ثم دخل.

في غرفته تساءل غوته. ألا يستطيع المرء أن يقنع بذلك؟ في الفترة الأخيرة أضحت مناجاته لنفسه شيئاً معتاداً. بذلك يفحص كل ما يمر به ليحسب على السؤال: هل يساعده على تحمل شوقه إلى أولريكه؟ ما حدث أمام «الفرس الأشهب» كان لا بد من أن يعايشه مع أولريكه. عندئذ، وعندئذ فحسب، ستجتاحه مشاعر الود والمحبة. بدون أولريكه كان ما رآه مسرحية غابت عنها البطلة.

أخرج القفاز البنفسجي الذي تركته في يده. لن يعطيه لأحد أبداً. لتأكيد ذلك كتب، بل رسم على ظهر القفاز:

كارلسباد، 28 أغسطس 1823.

عندئذ لمح شيئاً ملفوفاً على مكتبه. نزع الورق. ربطة حمراء باهتة من فستان لوته الأبيض، وبطاقة كُتبت عليها:  
مثل المعشوقة السابقة، أود أن أكون معكم في عيد ميلادكم بهذه الربطة الحمراء الباهتة.

أولريكه

صحيح . لوته أهدت فترتر في عيد ميلاده الفيونكة حمراء باهتة . آه يا أولريكه ! كيف يمكن أن يقول إن لوته لم يكن لها يوماً وجود . إنه كان لوته ، مثلما كان فترتر . إنها كانت قصة حب مع ذاته ، قصة مريض . أولريكه ، سامية أنتِ فوق كل ما كان ، وما يمكن أن يكون . أولريكه . قبّل الربطة . ثم أفرغ ما بداخل علبة مبطنة بالقطيفة السوداء من مشابك للشعر ودبابيس وحلي . ثم وضع القفاز والربطة في داخلها . كان في الإمكان إغلاق هذه العلبة بقفل صغير للغاية . هذا ما فعله . ولكن أين يضع المفتاح ؟ عليه أن يحافظ عليه جيداً وأن يعرف في الوقت نفسه على الفور مكانه عندما يحتاجه . كان أحد همومه الحالية أنه يحتفظ بعناية بالأشياء التي يود الاحتفاظ بها ، بل بعناية فائقة لدرجة أنه لا يجدها بعد ذلك ، أو يجدها بعد بحث طويل . نادى على شتادلمان وكلفه بأن يحضر من المدينة ، من محل الغراف تاوفكيرشن ، أرق سلسلة ذهبية يجدها . لا بد لها من أن تلتف مرتين حول عنقه ، ثم تهبط إلى صدره . كان هذا تكليفاً يوافق مزاج شتادلمان . بعد ساعتين كان المفتاح الذهبي الصغير معلقاً في أرق سلسلة ذهبية حول عنق غوته .

في صباح اليوم التالي كانت الكأس الكريستال ، المحفورة عليها الأسماء على غصن لبلاب ومعها التاريخ والمكان ، موضوعة على مائدة الإفطار . آه نعم ، قال للسيدة فون ليفتسو ، أشكرك على سماحك لي بقضاء اليوم المحرج معكم من دون أن يُذكر بالاسم . فلنسمه إذاً يوم السر العلني . شكراً . وشكراً على هذه الكأس .

على الكأس أن تبرهن، ردت السيدة فون ليفتسو، أننا كنا معك، وأنت معنا. اللبلاب كالذاكرة. لا نريد للنسيان أن يطوينا.

بصوت يميل إلى الخفوت قال غوته: وأنا أيضاً. ثم تطلع إليها بنظرة أمل أن تعبر عن حيويته. كان سيطيل النظر إليها لو لم تقل أولريكه:  
وأنا أيضاً.

أرسل النظر إذاً إلى أولريكه.

كانت السيدة فون ليفتسو قد أعدت مرة أخرى برنامجاً. نبيل إنكليزي شاب يريد التحدث مع غوته عن فيرونا حيث فرضت إنكلترا على أوروبا ألا تدعم الكفاح اليوناني ضد الاحتلال التركي. على غوته وسكوت أن يوجها نداءً إلى الملك.

وافق لأنه شعر بأن أولريكه تنظر إليه. مساء اليوم، إذاً، بعد العشاء. بالرغم من أنني أعرف، يا أولريكه، أن هذه النداءات لا تفيد شيئاً.

أولريكه: الإنكليز أكثر الأمم تقدماً، لكن حكومتهم هي الأكثر تخلفاً.

لقد سمعت ذلك بالتأكيد من الغراف شترنبرغ، قالت أماليا.

حظك سيئ يا واشية، قالت أولريكه بنبرة غاية في

اللطيف، لقد كان السيد المستشار حاضراً عندما قال الغراف ذلك.

منعتهما الأم من الاستمرار في المشاحنات. سنلتقي في الساعة الخامسة لحضور حفل الوداع في القاعة الساكسونية.

أنا باولينا ميلدر. امتدحها صديقه تسلتر باعتبارها صوتاً عظيماً. برلين واقعة تحت قدميها، كما ركعت فينا من قبل عند قدميها. ولأن الشيء دائماً بالشيء يُذكر، فإن ليلى بارتاي الحيوية - ومثلها الأعلى هي السيدة ميلدر - نقلت إلى مارينباد رغبة السيدة ميلدر في أن تغني مرةً أمام غوته. وقد اختارت الشخص المناسب: الغراف كليبلسبرغ. سيأتي معها إلى كارلسباد في حفل خاص. أي أمسية فريدة لن تُنسى. مُهداة إلى غوته كحفل وداعي.

الصالة الساكسونية مزودة بحواجز تقسمها إلى أقسام تتسع لأربعين أو خمسين زائراً. جلسوا على شكل نصف دائرة حول الفنانة ومرافقها. جلست أولريكه على طرف نصف الدائرة هذه. وكأنها تعرف أن غوته - الذي تحتم عليه أن يجلس في المنتصف - يريد النظر إليها من دون أن يلتفت ناحيتها. هذا ما منح الأمسية معنى.

كان يعرف أنهم ينتظرون منه بعد الحفل كلمة قصيرة. عندما يُهدى إليه شيء فلا بد من أن يلقي كلمة قصيرة. كان صوتاً لا يقف في طريقه شيء. هذا ما تناهى إلى سمعه دون أن يستطيع الإصغاء. أراد أن يكتشف كلمة تكون مفتاحاً لخطبته

القصيرة. ثم رأى أولريكه التي تجلس مستقيمة مائلة قليلاً إلى الأمام. رآها مأخوذة بهذا الصوت. أرسلت شعرها تماماً على نحو لم تفعله من قبل. بفستان أزرق غامق وخطوط سود براقية. برزت الرأس والعنق من ياقة سوداء كبيرة. تحتم عليه أن يحول عينيه عنها، وأن يتطلع إلى الفنانة التي تشدو شدواً نافذاً. عندما ينظر إلى أولريكه كان يصغي إصغاء مكثفاً. هكذا شعر. كان يصغي أكثر من تلك اللحظات التي ينظر فيها إلى المغنية أثناء الغناء.

بدأ كلمته القصيرة بتلك الجمل الذكية التي ينتظرها الناس منه في مثل هذه المناسبات. لقد قال الغراف كليلسبرغ له: عندما يسمع المرء هذه الفنانة ويراها يجد أنها تفوق بكثير كل ما يتوقعه المرء. هذا ما قاله كليلسبرغ، وهذا ما يقوله غوته أيضاً. لقد جلس في هذه الصلاة قبل أحد عشر عاماً، وأصغى لبيتهوفن وهو يعزف أولى سوناتاته الطويلة على البيانو. كان العزف موسيقى مطلقة. والآن، للمرة الثانية في هذه الصلاة، الموسيقى المطلقة. كان بيتهوفن معجباً بآنا ميلدر وممتناً لها لأنها كانت بالنسبة له وبالنسبة للعالم كله التجسيد الأصيل لشخصية ليونوره في «فيدليو». هذا يسمو بنا ويصطفينا، نحن المتطفلين على الفن المطلق. عندما شدت آنا ميلدر في قصر شونبرون في فيينا أمام نابوليون لم يتبق أمامه غير أن يقول: (1) Voilà une voix

---

(1) أي: هذا صوت. (م)

عندما ضحك البعض على نحو يوحى بأنهم يعرفون الحكاية، قال لهم: باستطاعة القيصر أن يوجز، أما الواحد منا فلا مفر أمامه من الاستفاضة.

لَمْ يفوق الواقع دوماً تصوراتنا؟! راح يفكر في ذلك وهو يلقي كلمته. ثم شعر فجأة أنه يخطب من دون أن يكون ذهنه حاضراً في ما يقوله. تخلص على الفور من هذا الموقف الذي اعتاده. قال إنه يعرف أن الناس تنتظر منه مثل هذه التأملات في مناسبات كهذه. قد لا تستحوذ المناسبة في كل مرة على مشاعر المرء، إلا أنها تزيده ذكاءً. وفجأة اجتاحت غوته الأحاسيس نفسها التي شعر بها عندما نظر إلى أولريكه وهي تصغي إلى الموسيقى. اتخذ من هذه الأحاسيس مُلقناً له. اعتمد على أن الحقيقي - حتى ولو بدا شبه مستهجن - هو الشيء الوحيد الذي يستحق أن يكون موضوعاً للحديث. قال إذاً إن نظرتَه استراحت لبرهة خلال هذا الحفل الموسيقي على الأنسة فون لِفِتسو. بالطبع، وكما يليق، كان يحول نظره عنها متطلعاً إلى هذه الفنانة الجميلة والموهوبة في آن معاً. ثم أحس بالمفاجأة: عندما ينظر من جديد إلى أولريكه فون لِفِتسو كان يسمع هذه الموسيقى على نحو - لنقل - أنقى مما لو راح يلاحظ كيف تنشأ هذه الموسيقى. كانت الأنسة فون لِفِتسو بإصغائها تؤثر فيه على النحو التالي: كانت تصغي كما ينبغي على المرء - عموماً - أن يصغي، ربما لأن عيون الآخرين أو حتى كل المستمعين قد تكون مصوبة إليها. لقد أمست، غير عامدة بالتأكيد، المستمعة المثالية. لم تنصرف ثانية عن فنانتنا الكبيرة بل كانت

دوماً مصغية لها ولفنها. إنه لا يستطيع، بل لا يريد أن يفصل بين تأثير هذا الصوت وإصغاء أولريكه المثالي، فهما وحدة متكاملة. الأثر الذي أحدثته الموسيقى في نفسها تجلى في إصغائها، وعبر إصغائها كان هذا التأثير هو التأثير الحقيقي. لا يمكن أن يكون الأثر أكثر مباشرة مما يحدثه هذا الصوت المتجلي - عبر ذلك الإصغاء - بقوة وبهاء وجسارة. كان دوماً يعارض أن تستحوذ الانطباعات على مشاعر الإنسان. عبر غناء كليبلسبرغ أثر شوبرت عليه تأثيراً لا يبرره الأصل. في هذه المرة ملك الصوت على الإنسان مشاعره، ولكن من دون أن يتلاشى الإنسان فيه ومن دون أن تستولي النغمات على الإنسان أثناء الضعف الوجودي الذي تسببه الموسيقى. فقد ذاته. كان هذا تأثير هذه المستمعة التي لم تفقد نفسها للحظة. كانت جامعة مثالية للحظات. بل فضولية. أيقظت السيدة ميلدر في نفس الفتاة ذات التسعة عشر عاماً قارة من الأحاسيس، قارة بكرة لم يطأها أحد من قبل. وهو يتجرأ ويتنبأ: إذا تعرفت هذه المستمعة على الشوق الذي تغنت به المغنية في عالم آخر غير الموسيقى حيث الشوق يمارس عنفوانه الحقيقي: عندئذ لن تستطيع أولريكه الحياة حيثما تحيا. ولكنها لن تبلغ ما تشتاق إليه. عندئذ ستهرب إلى عالم الموسيقى لكي يتلاشى ما يسمى بالواقع في هذا الجمال. هذا ما مر به الآن: طالما أن هذه الموسيقى تثير الشوق في نفوسنا فلن تدمرنا. إننا لا نتحملها فحسب، إننا نحتفي بها. وللحظات نتمتع بالحصانة التامة. الواقع يخسر ساجداً أمام الجمال.



وسار إلى الفنانة وصافحها. ثم صافح الغراف أيضاً. عندئذ انحنى في وداعة تجاه أولريكه. صفق الحاضرون، فأشار غوته إلى الفنانة ومرافقها ناسباً الفضل إليهما. ثم أعطى ليوليا فون هوهنتسولرن إشارة تصدر منه عادةً عندما يكون بحاجة إلى مساعدتها. على الفور خفت إليه ثم قادته - وهو الذي تصنع بأنه يحتاج العون - إلى الخارج. عندما انحنى أمام أولريكه هز رغباً منه أكتافه، وصنع بيديه إشارة تعني حيرته أو طلب الصفح منها. فهمت أولريكه ما يقصده على الفور، فحركت قليلاً رأسها البارز من الياقة يمناً ويسرة. إيماءة تعني الموافقة التامة على ما فعل. ليس هناك أي داع للاعتذار. كل شيء جميل جمالاً يفوق قدرة البشر. كل شيء عميق وهادئ. لحظة من الانسجام سيقتات العالم عليها ألف سنة. بهذا الشعور خرج من القاعة.

قالت له يوليا فون هوهنتسولرن: بحسب معرفتي للسيد المستشار فإنه يريد الآن كأساً من بيرة إيغر. ثم - بحماستها المعهودة - قادت خطى الرجل الذي شملته برعايتها إلى «حانة الأمراء».

بعد أن تناول أول جرعة كبيرة قال: سمو الأميرة، كم من مرة ستقذيني؟

ردت قائلة: إنقاذ غوته، يا لها من مهمة أثيرة إلى قلبي!

هو: أخشى أنك ستصبحين كثيرة المشاغل. في صحتك!  
ثم أفرغ الكأس في جوفه.

في المساء، على مائدة الطعام، أرادت أماليا أن تعرف لم  
لم ينظر السيد المستشار في اتجاهها.

برتاً: أو في اتجاهي؟

انضمت السيدة فون لِفِتسو إلى السائلين: أو في اتجاهي

أنا؟

قبل أن يستطيع غوته الرد قالت أولريكة: لقد جلستن  
بجانبه مباشرة، أما أنا ففي نهاية نصف الدائرة. لكن أن تتخيلن  
أن عليه في كل مرة ينظر إليكن أن يلوي عنقه - غير معقول.  
لم يبق إذاً سواي. ثم لتحدث بجد، يا سيداتي. لست متأكدة  
مما إذا كانت ستخطر على باله أثناء رؤيتكن الأفكار نفسها التي  
مرت برأسه عندما نظر لي. لقد استطعتُ عبر وصفه أن أتخيل  
بالفعل كيف كنتُ أصغي.

آه، نعم، نعم، ردت أماليا. الآن تريدين أن تقنعينا بأنك  
لم تلاحظي أنه يتطلع إليك على الدوام، وأنتك قدمت له عندئذ  
الوجه الذي يحتاج إليه.

اعترض الغراف شترنبرغ. بالفعل، كان المرء يلاحظ،  
بغض النظر عن مكان جلوسه، أن أولريكة كانت تتساوى في  
الأهمية بالنسبة للسيد المستشار مع السيدة ميلدر. هو، على  
سبيل المثال، تتبع نظرات المستشار، ثم كان يسدد بين الفينة  
والأخرى نظرة سريعة إلى الجالسة في أقصى اليسار. عندئذ  
أدرك لم كان المستشار يعود ببصره ثانيةً إليها. إذا سمحتم لي  
بالوصف فسأقول: إن موضوعية أولريكة خلال الإنصات كانت  
قاهرة.

ولكن تلك الحملقة في أولريكه، ردت أماليا، كانت  
مخرجة بعض الشيء.

ليس بالنسبة لي، قالت أولريكه مبتهجة. لقد تعلمت في  
هذا الصيف أن أكون هدفَ حملقة الآخرين.

واستمتعتِ بذلك، عقبت أماليا.

هم ت م، صاحت برتا.

بصوت خافت وبسرعة قالت أولريكه له: هذا ما توقعته  
منك.

كفى، صاحت السيدة فون لِفِتسو. ثم قالت من دون أي  
مقدمات إنها تعتبر هذا التقسيم منطقي للغاية: الرجال الأشداء  
مثل نابوليون يحبون الموسيقى اللينة المثيرة للحزن. أما الرجل  
ليّن الطبع، مثل عزيزنا غوته، فهو يميل بالأحرى إلى النغمات  
الحيوية المرححة.

إذا كان هذا صحيحاً في السابق، قال الغراف، فمنذ اليوم  
لم يعد صحيحاً.

صدقت، قالت أولريكه.

كان غوته يعشق تلك الأحاديث التي تسير دون تدخل منه.  
في غرفته جلس إلى مكتبه، وشرع يكتب:

### رجلٌ عاشق

النساء بنات جنس الموضوعية. يعايش الرجل كل شيء  
باعتباره حالة نفسية. حالته النفسية. المرأة تعايش الموضوع

نفسه، ثم تتعامل مع الموضوع الذي كونت حكماً عليه. الحكم ينبع من الموضوع لا منها هي. هذا ما يميز موضوعيتها. أما الرجل فيحكم بحسب ما يوافق هواه في تلك اللحظة. علاقة الحكم بالموضوع أقل من علاقته به هو. إذا كنا نريد إدارة العالم على نحو ملائم فلا بد من أن تديره النساء. متى يحدث هذا؟ للرجال الملاعب وموائد القمار. والحكم للنساء.

ولأنه رجل فإن هذا الكلام ينطبق عليه أكثر مما ينطبق على موضوع الحديث. عليه أن يضيف هذه العبارة لأنه يحاول - بعض الشيء - أن يتحلى بالمنطق.

يمكن التعرف على المرأة بسهولة أكثر من الرجل. أدركت أولريكة ذلك سريعاً عندما قالت: كلما مضت في قراءتها له قلت معرفتها به. لن يقول ذلك إلا من يتحلى بالثقة التامة في نفسه. التلفيق السامي، هكذا وصفت كتابته. ولكن من هو؟ هكذا سألت بكل موضوعية. سيسأل أولريكة قبل الوداع، أي في الغد، عما إذا كان لا يزال يثير لديها الالتباس الذي شعرت به عندما قرأته. هل ما زال الذي كانه؟

ليس الإنسان مسؤولاً عن نفسه. اعرف نفسك: وهم لطيف. أو تكليف للإنسان بأن يخترع نفسه. عندئذ لن تكون أنت أنت، بل اختراعك. الآخرون وحدهم يستطيعون معرفتك. كلما أحبوك، ازدادت معرفتهم بك دقة.

الآن يرى نفسه بوضوح فريد، عبر أولريكة. كل ما هو تقريبي يضمحل عندما تقترب منها. رد فعلها تجاهه يُظهر له من

هو، كيف هو، وما هو. سيصبح أكثر حرية في حضورها وأكثر تلقائية. ستعرفه باعتباره ذاك الشخص الذي يكونه من خلالها. سيغدو هذا الرجل عبر حبه لها.

الآن، سلفاً، يشعر بالعالم على النحو الذي سيكونه. ومسالماً، لأن الذين في احتياج إلى بعضهم البعض سيجتمعون معاً. عندئذ لن يحتاجوا إلى شيء آخر. لن يكون العالم كرة أرضية تعيش على أعصابها. عندما يجتمع المتحابون سيشعر العالم بالحنونة. إذا نجحنا في ذلك مرة واحدة، يا أولريكه، تغيير العالم إلى الأبد. وسيشمل التغيير كل شيء: الورك والزهور وحراس السجون والرؤساء. النقص في الحب أصل كل الشرور في عالمنا. أولريكه وهو - لأنهما مكتفيان بذاتهما - سيخلصان العالم من كل شروره.

إنه يستخدم كلمات كبيرة. هذا يلفت نظره أيضاً يا أولريكه. يبدو كلامه مبالغاً فيه لأن البشرية تدرت على القهر والانسحاق والصمت، والهوان.

كلامه المنفجر كالبركان يرجع إلى عثوره على شيء كان ينقصه طيلة عمره، الحب. ها هو الآن. إنه موجود. ليس الحب ألعاباً لغوية. إنه الحتمية في أقصى حالتها. إنه الوجود بالمطلق. الأكثر إشباعاً هو. أعظم مانح للأمان.

سيستسلم لموضوعية أولريكه. استسلم. التشخيص: يمكنه الاستغناء عن كل شيء في الحياة، سواها. حبه لها يمنحه الكينونة. هو ليس إلا حبه لها. الحب هو: عندما يرى

قبعات . عندما يرى نساء يعتمرن قبعات طموحة يتصور أولريكه وهي تجرب هذه القبعات . كل قبعة ، حتى أكثرها جنوناً ، لن تكون جميلة إلا عندما تعتمرها أولريكه .

بهذ الجملة أنهى ما كتب ، ثم جلس وفكر في أنه يجد نفسه مرغماً على الكتابة عندما لا تكون معه . إنها تحضر إليه طيلة الكتابة . كان يفتقدها بمجرد توقفه عن الكتابة . غيابها محتمل لأنه سيستمر حتى الإفطار فحسب . لو عرف دوماً متى سيراه ثانيةً لما عانى أبداً . هذا ما جربه طيلة الصيف . في فترات الغياب كان هذا الزخم العاطفي ينمو ، إلى أن يلقاها .

من كارلسباد إلى «كوخ ديانا»، إلهة الصيد.

نظرت إليه أولريكه عند الإفطار نظرة فهم منها أن الأم وافقت . يستطيعان في آخر عصر يقضيانه معاً أن يسيرا إلى «كوخ ديانا»، من دون صحبة العائلة.

لم تستطع السيدة فون لِفِتسو أن تدع الفرصة من دون أن تلمح خلال توديعهما إلى أنها هي التي سمحت بهذه النزهة، وأن عليهما أن يقدرها هذه الثقة حق قدرها. كان هذا هو المحتوى البورجوازي لما قالتها. أما كيف عبرت عن تلك المحذورات والقواعد الأخلاقية، وبأي وسائل لغوية، فقد كان ذلك نابعاً من أفضل ما قُدم على المسرح الكوميدي الفرنسي . بكلمات أخرى: كان ما قالتها غاية في المرح . ما يُقال يجب أن يقال بأسلوب مرح . مدام دو بومبادور، تلك المرأة البهية الرائعة، في دور الأم.

المرأة التي أطلقت التحذيرات وكذلك من استقبلها تصرفوا كأنهم يلعبون . الجدية التي لا لبس فيها سيسعران بها إذا اعتبرا النبرة اللعوب بالفعل نبرة لعوباً . شارك غوته في هذه اللعبة

بسرور. كان يمثل بامتياز دور الرجل القادم من عصر الروكوكو، متفوقاً على مدام دو بومبادور بالنبرة شبه المسرحية التي كان يتحدث بها. أعجبه أن العائلة تعتبر حديثه الفظيعة نوعاً من الكوميديا. اللقاء إذاً بعد أربع ساعات لم يكن مسموحاً ولم يكن مفروضاً، ولم يكن على الرحلة إلى «كوخ ديانا» أن تستغرق أكثر من ذلك مشهد ختامي رائع للفصل الثالث من كوميديا من خمسة فصول بعنوان: العم يتنكر في صورة ابن الأخ...

بمجرد أن اختليا بنفسيهما شكرها غوته على الربطة الحمراء الباهتة التي من خلالها ذكرته أولريكه في عيد ميلاده بعيد ميلاد فرتير. ثم اعتذر عن أنه، نصف ساه ونصف عامد، انتزع منها القفاز الحريري البنفسجي. قبل أن يعبر عن رغبته في الاحتفاظ به، قالت:

إنه لكم.

قالتها بنبرة جادة لم تكن تتحدث بها إلا نادراً. غوته: المبالغة في الشكر تشير إلى أن المرء لا يستحق ما يشكر الآخرين عليه.

فسأته: هل عليّ أن أقلب هذه الجملة؟

مسموح لك بفعل كل شيء.

تريد أولريكه أن تتحدث معه طيلة الساعات الأربع دون استخدام صيغ الاحترام اللغوية. ستحتفظ بـ«صاحب السعادة»، ولكن من دون «سيادتكم». سيعجبها أن تتحدث مع صاحب السعادة من دون شكليات.



وسيعجبه هو أن يتحدث مع الكونتريس لِفتسو من دون  
شكليات .

هي : لأي مدة؟

ل . . . تظاهر بأنه يمعن في التفكير ثم قال بأبسط نبيرة  
على وجه الأرض، وكأن شيئاً آخر لا يرد في الحساب ولا  
يمكن توقعه . وكأن ما يقوله أكثر الأشياء عادية، قال بنبرة تخلو  
من كل الهموم : إلى الأبد .

هي : ل ن ب ا ه ا .

فقال حتى يثبت أنه تعلم لغة الاختصارات التي  
تستخدمها : لم نصل بعد إلى هذا الحد . ثم أضاف : و ق .

هي : ماذا تعني بذلك؟

هو : ولكن قريباً .

آه، يا صاحب السعادة . قالتها ووجدت نفسها تسرع من  
خطواتها رغماً عنها .

ستسير أسرع لو لم تكن معه . تحتم عليه أن يعلمها في  
مارينباد كيف يتهادى المرء على طريق التنزه وسط كل تلك  
الشخصيات الشهيرة . صحيح أنها ظلت إلى حد ما متعلقة  
بذراعه، ولكنها كانت تحاول التقدم إلى الأمام . كلما شعر  
برغبتها في الإسراع كان يكبح جماحها بقوة تماثل قوة إرادتها،  
وكان ذلك يترك أثراً طيباً في نفسه . على طريق التنزه وهما  
عائدان إلى قصر كليلسبرغ، عادت إلى خطواتها السريعة، وكان  
عليه أن يسايرها . الطريق صاعد إلى حد ما . في فايْمَر - عندما

ينطلق بعربته ويخرج من المدينة - يحب دوماً أن يقطع مسافات كبيرة سيراً على قدميه . وفي المنزل كان يذرع الغرف الست طيلة ساعات جيئة وذهاباً . يكتب واقفاً . لا يجلس على المقعد أو الأريكة إلا عند مجيء زوار .

تغدو أولريكة إنساناً آخر عندما تنطلق وتسير وفق طبيعتها . سيرها لا علاقة له بالعجلة . خفيفة إلى حد الطيران . كان مشهداً بهيماً أن يراها وهي تسير ، ولكن صعبَ عليه أن يساير خطواتها . كان أثقل منها .

الآن ، على الطريق المائل الموصل إلى «كوخ ديانا» ، انطلقت - من دون أن تريد ، بل ومن دون أن تلاحظ - تسير بسرعة جامحة رغم الطريق الصاعد . تظاهرَ بأن هذه هي السرعة المناسبة له هو أيضاً . لتسر بالسرعة والخفة اللتين تحلوان لها ، فلن يتخلف عنها ولو قليلاً . لا يمكن أن يتخيل أن يتخلف عنها ، أو أن يناديها من الخلف كي تخفف من سرعتها قليلاً . على العكس ، لم يلحق بها فحسب بل سبقها بنصف خطوة . لاحظت ذلك . ثم التفتت إليه ، ولأنه أطول منها بمقدار الرأس ، رفعت رأسها باتجاهه . كانا على اتفاق تام وفي حالة شعورية واحدة كما حدث أثناء الرقص في مارينباد . في صعودهما الجامح كانا في العمر نفسه . لو انطلقت تشدو الآن ، لما اندهش . لكنها لم تشدُ ، بل راحت تتلو نصاً يعرفه . عن ظهر قلب راحت تلقي مقطعاً من روايته «فِرتِر» . من دون تلعثم ومن دون تردد أو أي بادرة من عدم الثقة انطلقت تلقي فقرة كاملة من «فِرتِر» . لم تهدئ من سرعة خطواتها ولو قليلاً .

على العكس، وكان النص جعلها أكثر خفة. لم يعد يستطيع  
الآن أن يتخلف عنها، أو أن يرجوها أن تتمهل قليلاً في  
سيرها. وكان هذا ما ألقته:

في الخامس عشر من سبتمبر

فيلهلم! يحزنني أن أجد في الناس من لا تبلغ به كفايته  
إلى تقدير ما على الأرض من الأشياء القيمة النادرة. لعلك  
تذكر شجرتيّ الجوز اللتين تفيأتهما أنا وشارلوتة في منزل القس  
يوم زرناء. تينك الشجرتين اللتين كانتا تملآن قلبي بما خلص  
من سرور ولذة، وتفيضان على الفناء ما شاء الله من رخاء  
ونعيم: أغصان فينانة جميلة، وظلال وارفة ظليلة، وذكريات  
جمّة عذبة ترجع بالمرء إلى عهود أولئك القسس الكرام الذين  
غرسوها. ولطالما ذكر معلم القرية اسم قسيس منهم حدثه جده  
عن صفاته الجليلة وأخلاقه النبيلة، فكانت ذكراه تتمثل في  
خاطري جميلة طيبة كلما تفيأت هاتين الشجرتين. أتدري ما  
صنعت يد الأحداث بهما؟ حكى لنا بالأمس معلم القرية أنهما  
قطعتا! واللّه لقد كان الدمع يجول في عينيه وهو يتحدث.  
قطعتا؟ عجيب ما أسمع! يخيّل إليّ أن لو رأيت في غضبي ذلك  
البهيم الذي مد يديه إليهما بالقطع لأوردته حياض المنية. كيف  
لا ولو كان في فنائي مثل هاتين الشجرتين ثم أذوى إحداهما  
الكبر للبت عليهما ثوب الحداد، وقامت عندي قيامة الحزن.  
ككيف أطيع الصبر على مثل هذا المنظر؟

على أن ما يعزيني يا صديقي هو شعور الإنسان وإدراكه  
لمواطن الكمال، وامتعاضه لتشويه صور الجمال. فقد أخذ أهل

القرية جميعاً يتذمرون، وعسى أن يكون في حرمانهم امرأة القسيس هدايا السمن والبيض احتجاج على ما جرّته عليهم من الضرر. ذلك لأنها هي التي اقترفت ذلك الإثم. ولا تحسبها زوجة صديقنا القسيس الشيخ، فقد لحق بربه، وإنما هي زوجة القس الجديد الذي خلفه. وهي امرأة عجفاء، معروقة العظم، سقيم، فظة الطبع، لا تألف أحداً ولا يألفها أحد. وهي حمقاء تدعي العلم، وتشارك في درس قوانين الكنيسة. تعمل بجد في إصلاح نقدي للأخلاق المسيحية على آخر طراز، وترفع كتفيها ساخرة من شطط الفيلسوف لافاتر وترهاته! وقد تخونها السقم، وهدها المرض حتى لم تجد في أرض الله موضعاً لسرور ولا موطناً لفرح.

فترى أن مخلوقة على هذه الصفات حرية أن تجتث شجرتي من أصلهما. إنها تزعم أن الأوراق الساقطة تلوث الفناء وترطب جوه، وأن الأغصان تحجب عنها ضوء النهار، وأن الجوز إذا ما أئنع قذفه الأطفال بالحجارة فيهيجون أعصابها، ويزيدون أوصابها، ويهوشون عليها وهي غارقة في الموازنة بين آراء كينيكوت وزيملر وميشائيليس.

ولما رأيت الامتعاظ والأسف باديين على وجوه القرويين ولا سيما شيوخهم، قلت لهم: «ولماذا تحتملون هذا وتقبلونه؟»، فقالوا: «إن الأمر في الريف للعمدة، إذا أراد فلا دافع لإرادته، وإذا حكم فلا معقب لحكمه».

على أن الله عز اسمه لم يشأ أن يهنأ الغانمون بالغنيمة. فقد أراد القسيس أن يستفيد هذه المرة من عبث امرأته فتواطأ

مع العمدة على أن يقتسما ثمن الشجرتين، ولكن الخبر نمي إلى إدارة الأملاك فقالت لهما: مكانكما! وباعت الشجرتين بالمزايدة، ورجع صاحبانا بخفي حنين. آه لو كنت أميراً! إذاً لعرفت كيف أعامل امرأة القس والعمدة وإدارة الأملاك.

أمر غريب! أتمنى أن أكون أميراً ولو كنته لما همني كل ما في إمارتي من شجر!<sup>(1)</sup>

عندما توقفت معلنةً انتهاءها من إلقاء تلك الفقرة من «فِرتَر»، لم تقف حتى تعرف مثلاً رأي مؤلف «فِرتَر» في هذه الفقرة، ناهيك عن أن تعلم رأيه في إلقائها. في بداية تعرفهما كان كل منهما يقرأ أمام الآخر طالباً منه إرشادات ذكية لتحسين فن الإلقاء. وكان القارئ يحصل بالفعل على تلك الإرشادات. أما الآن فقد ألفت «فِرتَر» على نحو لم يناقشاه أبداً في أمسيات القراءة التي كانت تمتد ساعات وساعات. لم يناقشاه لأن أحداً لم يقرأ هكذا أبداً، لا هو قرأ على هذا النحو ولا أي قارئة في العائلة. مؤخراً، في مارينباد، في شهر يوليو، كررت برتا بجسارة مستمتعة أنه عندما كان يسمعهن يقرآن قبل عامين كان يوجه إلى أولريكه معظم نقده. يلزم قدر أكبر من الحماسة والحيوية في التصوير، هكذا قال لها. عليها أن تتطور في هذا

---

(1) هذه الفقرة مقتبسة من رواية «آلام فِرتَر»، وهي تختلف في أسلوبها اختلافاً بيناً عن أسلوب مارتن فالزر. ولإظهار هذا الفارق رأيت أن أوردتها بترجمة الأستاذ أحمد حسن الزيات مع تصرف بسيط (دار الكاتب العربي، بيروت، من دون تاريخ، ص 137 وما يليها). (م)

الاتجاه. عَقِبَت أولريكه على ذلك في موضوعية تخلو من أي طموح: لكنني لا أريد أن أصبح فنانة إلقاء.

أدرك الآن لماذا كان إلقاء أولريكه لمقاطع من روايات سكوت يخلو من الحماسة والحيوية في التصوير. طبيعتها تمتنع عن إنتاج شيء لا ينبع منها شخصياً. إنها ضد التصنع والتكلف، حتى لو كان فناً. إنها الموضوعية متجسدة. موضوعية مستقيمة لا تنثني. انسابت الكلمات بسهولة، من دون عناء ومن تلقاء نفسها. لا أثر للرجبة في التعبير عن شيء من ناحيتها. ولكن، لا أثر أيضاً لإخفاء اهتمامها بما تلقيه. لقد شعر حقاً بحماستها. ولكن الحماسة لم تنبع منها بل من الكلمات. حماسة لا تريد أن تتجلى، بل أن تتغلغل في أعماقها.

من دون كلام وصلا عبر الغابة السامقة إلى الكوخ. هناك استطاع أن يقول: أولريكه، لحسن الحظ اقترحت عليّ في هذا العصر أن نتبادل الحديث من دون صيغ التكلف والاحترام. لو لم يحدث ذلك، لربما لم أستطع أن أقول لك إن هذه الفقرة لم تُقرأ هكذا أبداً. باختيارك هذا المقطع...

قاطعته: بحفظي له، عليك أن تقول.

... بحفظك له تجعليني سعيداً، من دون أن أعرف السبب.

بكل هدوء ردت عليه: إذا عرف الإنسان سبب سعادته هربت السعادة منه.

أنا إذاً، رد غوته، في غاية السعادة.

صاحب السعادة، قالت، لقد نقلت إليك العدوى.

بل أنا إليك، قال.

نقلنا العدوى إلينا، ردت.

همس: تريدان دوماً أن تكون لك الكلمة الأخيرة وهذا يغمرنني بالسعادة الفائقة.

ولكن، قالت في همس أيضاً، الكلمة الأخيرة كانت لك لأنك لا تترك شيئاً من دون تعليق.

أشار بيده من دون أن يتكلم أن الكلمة الأخيرة كانت لها الآن.

في طريق العودة قالت أولريكه، قبل أن يعودا إلى التحدث بـ «سيادتكم»، إنها تريد أن تبوح له بالسبب الذي دفعها إلى حفظ فقرة «شجرة الجوز» عن ظهر قلب. لقد تجلى غوته في هذه الجمل بصورة أوضح في عيونها من كل ما قرأته له. لقد ألمح هو نفسه إلى أنه يجمع في شخصه بين لوته وفرتير. هذا ما يولد الالتباس الذي يصعب عليها أن تفهمه. الوضع مختلف في هذه الفقرة. عندما يحزن البشر على شخص فإن حزننا لا يكون كحزن المكلم، لأننا لم نعرف ذلك الشخص. نحن نعرف أشجار الجوز! الأشجار قريبة منا، مثلما كانت قريبة من فرتير. نحن لا نحزن معه بل مثله. إذا اجتثت في أي مكان من العالم شجرة جوز، أو أي شجرة أخرى، فسيتذكر المرء حزن فرتير على شجرة الجوز، وسيشاركه وجدانياً على نحو أعمق من أي بطل في عمل أدبي

آخر. قالت أولريكه إنها تحس الآن أخيراً بغوته، قلباً وقالباً. سؤالها: من أنت؟ لم يعد مطروحاً.

عندما خرجا من آخر جزء في الغابة إلى ضوء المساء النافذ من السحب الكثيفة لمع البرق من بعيد على الأفق الغربي. كانا لا بد من أن يظلا واقفين ليشاهدا هذا البرق الثائر والمثير.

وقفت أولريكه أمامه ثم أمسكت بيديه ورفعتهما قائلة: ل  
ت ف م ا د ا، أي لا تغيير في مكان الإقامة من دون إخطار.

فرد قائلاً: ا ه ا و. أي: إلى هذا الحد وصلنا.

ثم اقتربت شفاههما اقتراباً لم يحدث من قبل، وظلا متلاصقين إلى أن مزق غراب بنعيقه الحاد هذه اللحظة اللازمنية.

تنهدت أولريكه: آه يا صاحب السعادة!

هو: آه يا أولريكه.

عندما لمحا في الأسفل بيوت كارلسباد المتلاصقة الممتدة على طول النهر قالت: ما دمنا نتحدث من دون تكليف فلا بد من أن أقدم اعترافاً.

إنه سعيد لسماع كل شيء، قال. خرجت منه الجملة على نحو أكثر جفافاً مما اعتقد.

لن تستطيع أن تتكلم ما لم يعدها بالألا تكون نتيجة كلامها عقوبة أو إجراءات تأديبية.

وعدها.



إنها تعتقد بأنه يعرف أن شتادلمان، خادمه الرائع، يبيع في المدينة شعراً يحصده بانتظام من رأس صاحب السعادة.

أوماً غوته مهموماً. لقد أوقف ذلك في فايمر. لكنه لم يكن يعلم أن التجارة انتقلت الآن إلى بوهيميا.

لذا طلبت من شتادلمان أن يحضر لها من شعره، ثلاث شعرات على الأقل. حصلت على سبع، في علبة مجوهرات صغيرة. إنها في قمة السعادة لاقتنائها هذه الشعرات السبع الجميلة الطويلة. كان ينبغي أن تذكر ذلك. وأنت وعدتني: لا عقوبة.

غوته: أعدك.

عندما مرا بالبشر الفوارة ولاحت «النعامة الذهبية» في الأفق، قالت أولريكه: هنا تنتهي منطقة رفع التكليف. آه يا صاحب السعادة.

هو: آه يا أولريكه.

ولكنه، صاحت بصوت قوي ومرح، كان أجمل عصر في هذا الموسم.

أوافقك، رد غوته.

تبادلا النظر، ثم قطعاً الأمتار الأخيرة وكأنهما على القدر نفسه من المرح.

عندما وصل غرفته وجد نفسه لا يزال يشعر بالسعادة. عليه الآن أن يجيب أخيراً على السيدة إيزولده برليش. وبالطبع بقصيدة رباعية:

أخجلُ من سويكات الراحة .  
ريحُ هي المعاناة معكم ،  
وهذا الألم الذي تحسّونه  
يجعلكم أكبر منّي .

السيد يون، إن بحوزتك الرسائل العشرين التي بعثتها  
السيدة برليش . من فضلك، أرسل لها هذا الرد .  
لا أحد يستطيع أبداً أن يستشف من وجه يون ما يفكر فيه  
عندما يتلقى تكليفاً ما .

عندما أبلغ السيدة كبيرة المراقبين - على نحو لا يخلو من سخرية - بعودتهما تولت أماليا وبرتنا تقييم الخبر. كان الجميع ينتظر عودة الثنائي من النزهة. كانوا قد اتفقوا على أن يذهبوا قبل العشاء إلى محل الغراف تاوفكيرشين، إذ إنهم حتى الآن لم يشتروا أي تذكارات. إلى المدينة إذأ، وصولاً إلى محل الغراف تاوفكيرشين الذي جمع في محله كل ما لا يحتاجه المرء، وما يقبل الناس على شرائه بالرغم من ذلك. شاركهم غوته في ما يفعلونه. اشترى لأماليا حلقتين مزينتين بحجر السيلان البوهيمي، وسواراً من رقائق الميناء لبرتنا، ولأولريكة ورقة ذهبية صغيرة للغاية من نبات الغينكو بسلسلة رقيقة. وهي اشترت له ورقة لبلاب فضية مع سلسلة فضية أيضاً. الأشكال الخشبية والحجرية التي تستخدم كقطع بناء ذكرته بأحفاده وبأنه لم يشتري في فایمر بعد شيئاً لهم. غير أنه لم يستطع أن يظهر كجد أمام آل لفتسو وأمام عيني أولريكة. اشترت العائلة كؤوساً وفناجين وأباريق كبيرة وصغيرة، وطقم شاي صينياً وفناجين خشبية سوداء باطنها مُذهب، ولحافاً فارسياً مطرّزاً بحروف

فارسية وبلوزات وشالات وتنانير وجوارب، بل وحتى صنادل فارسية. راح غوته يتفرج، دون أن يبخل برأيه إذا سُئل.

أحضر الغراف تاوفكيرشين كل المشتريات إلى «النعامة الذهبية»، وللأسف بقي طوال الأمسية. ولأنه عايش أشياء كثيرة مع زوار المنتجع الذين يفدون من كافة أنحاء العالم، كان لديه الكثير ليحكىه. بحث غوته عن نظرة أولريكه، غير أنه لاحظ أنها تشارك في هذه الأمسية وكأنها ستشارك بعد ذلك في مئات شبيهة بها. نجح هو أيضاً في ألا يسأله أحد عما إذا كان ينقصه شيء.

واليوم، الفطور الأخير ثم الوداع الحقيقي. طلب من شتادلمان أن يأتيه بالعربة المحملة عن آخرها بالقرب من النبع الفوّار، أمام «الأسد الذهبي». عليه أن يكون مستعداً للانطلاق في التاسعة. لم يكن غوته يريد الاحتفاظ فقط بذكرى يد تلوح من شباك العربة. من ناحية أخرى كان من غير المعقول أن ينصرف وحده من «النعامة الذهبية» بينما ترسل العائلة النظر خلفه. ولكنه في الحقيقة لم يكن بحاجة إلى التفكير في الأمر. الفطور أصبح الفطور الأخير. عندئذ نهض الغراف شترنبرغ أولاً ثم قال بنبرة غاية في الموضوعية: سأنتظر في الأسفل. وإلى العائلة قال: سنلتقي ثانية، مع السلامة.

في العناق الختامي لا يتبقى سوى الكوميديا. «العم يتنكر في صورة ابن الأخ». كان مسموحاً خلال ذلك أن يتحدث المرء بصوت عال، وأن يقول أكثر العبارات غرابة. شاركت الأختان الصغيرتان في المشهد. ربما من دون أن تشعرأ بأن

الكلمات في هذا النص الكوميدي تحمل أكثر من معنى . رحبت السيدة فون لفتسو بهذا الهرج المرح . لم تعلّ وجهها سمات الجد إلا في الختام ، بعد أن قبّل غوته يدها واستقام عوده ناظراً في عينيها . صحيح أنها قلدت لغة الاختصارات التي تستخدمها البنات قائلة : «ل ت ف م ا د ا» ، غير أن النبرة بدت صارمة لا هزلَ فيها . كرر غوته بنبرة لا تقل جدية : «ل ت ف م ا د ا» . قبّل الصغيرتين ، وصافح أولريكه قائلاً : إذأ . قالت هي أيضاً : إذأ . غير أن كلمتها لم تكن صدى لما قاله غوته . بعد ذلك استدار وتعجب من أنه نجح في ذلك . يشير بتلويحات كوميدية من الباب .

في الأسفل كان الغراف ينتظره . وهو الآن - لا نستطيع أن نصف الأمر بغير ذلك - سيأخذ غوته تحت جناحيه . الغراف يقارب في طوله ذلك الشاب عديم الاسم . لم يستطع غوته أن يصد هذا خاطر الذي انقض عليه . لكل منهما شارب . ولكن شارب الغراف ليس مجرد زينة تهكمية وإنما شارب كث مشذب ورقيق . خلال التنزه في منتجع مارينباد كان غوته يشعر دوماً بأن الغراف يأخذه ، تقريباً ، تحت إبطه . والآن ، في كارلسباد ، في صباح يوم الخامس من سبتمبر 1823 المشمس ، لم يكن ليستطيع أن يقطع الطريق من «النعامة الذهبية» إلى «الأسد الذهبي» وحده دون الغراف . لم يتشبث بهذا الرجل الطويل الجميل على نحو يدعو للثناء ، ولكنه مدّ إليه ذراعه اليسرى حتى يتأبطها . سارا في توازن . شعر بهذا . لم يكن عليهما أن يثرثرا حتى يحميا نفسيهما من العابرين . كان غوته يشعر بذلك

ويعلم أن الغراف أيضاً يشعر بذلك: لن يكون بمقدور أحد أن يضايقهما. بل إن غوته شعر بأن العائلة الواقفة خلف النافذة ناظرة إليهما ستتفرج عليهما من دون تعليق. قبل أن يصعد إلى عربته الأنيقة قال للغراف: مرحباً بك دوماً عندي. ثم أضاف: إلى النهاية. إيماءة بالرأس من كليهما. لا تلويح باليد.

كان الطقس كأجمل ما يكون. اختار شتادلمان خير الطرق للسير فيها. ولأن الطقس جاف منذ أيام فقد أثارت العربة غباراً تصاعد محمراً بنياً في أشعة المساء، ثم هبط خلفهم وتجمع.

أي الأفكار يسمح لها بالنفاذ الآن وأيها يمنع؟ وكأنه يستطيع أن يقرر ذلك! ولكن على الإنسان أن يتظاهر أن بإمكانه ذلك، وإلا كان الإنسان محض عربة تنطلق على هوى الجياد الجامحة، ونحن نعرف كيف تكون النهاية.

بمجرد أن تركا المدينة خلفهما عاد بفكره إلى المشهد الأخير. استحضر المشهد غير مرة، لا لشيء إلا ليسمع أولريكه تقول له في كل مرة: إذاً. أكثر جسارة وإيماناً بالمستقبل. أكثر حسماً وسحراً. شعر بالخجل من ذاته للكلمة كسيرة الجناح التي نطق بها: إذاً. كم تبشر «إذاً» التي قالتها أولريكه بالمستقبل! كلما استحضر هذه الكلمة شعر بأنها تطالبه بأن يصنع المستقبل، أي أن يكتب. بدأ على الفور في العربة، في عربته الرائعة، المهتزة والمزودة بلوالب جيدة. كتب بقلم رصاص في دفتر سفرياته الذي كانت صفحاته ممتلئة حتى المنتصف بالتواريخ والأرقام. عرف أنها ستكون مرثية بمجرد أن كتب البيت الأول.

مرثية مارينباد - هكذا يجب أن تسمى .

عندما نزل من العربة في إيغر أمام منزل غرونر كان قد كتب الأبيات الستة الأولى . لم يعرض الأبيات الستة على صديقه غرونر . من هذه الأبيات الستة ، ومن محطة إلى أخرى ، كانت مرثية مارينباد تنمو حتى اكتملت . من إيغر عبر غيفال وشلايتس وكالا وبوسنيك وصولاً إلى يينا . المرثية لم تكن بريد الروح السريع بل عملية استحضر ، حتى لا يقل حضور أولريكه أثناء الكتابة ، ناهيك عن أن تغيب .

لدى الوداع في الصباح التالي صاح غرونر عندما كان غوته يجلس في العربة وعلى وشك الانطلاق :

إنني أتجرأ وأعقد الأمل على العام القادم . ما زالت أماننا رحلة إلى صخور المينيليت . كان التلويح هنا مسموحاً به لكليهما . لم يستطع غوته أثناء ذلك أن يتغلب على شعوره بأن التلويح يقلل من الوداع ويصل به إلى حده الأدنى . ولكن ربما كان هذا هو معنى التلويح .

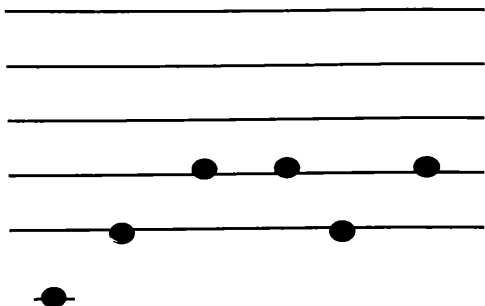
لبرهة ظل غرونر غارقاً في أفكاره . لام غوته نفسه على نفاذ صبره . كان عليه أن يقف في متحفه ليتأمل المعادن والآثار المتحجرة التي وصلت لتوها من مناجم الفحم الحجري في انكلترا . سيهتم الغراف شترنبرغ بذلك ، قال غوته بعصية بعض الشيء . زاد الطين بلة . عندما لاحظ غرونر أن صديقه لا يبدي اليوم أي اهتمام بالمعادن شرع يصور المجاعات الفظيعة في منطقة جبال الإيرتس . جاهد غوته حتى يضع على وجهه ملامح

مشاركة وجدانية. ماذا، وكيف؟ العالم شنيع، نعم ولكن، ماذا  
يجلب التعاطف؟

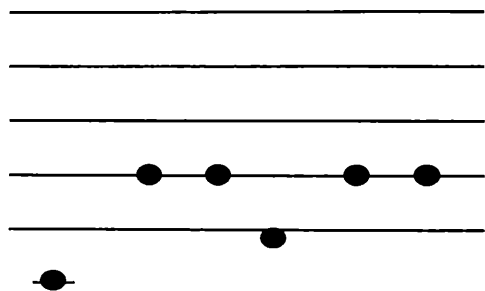
في تسفوتا ووصله الخبر التالي: مدينة هوف تحترق.  
النيران تلتهم هوف. كارثة فظيعة. على الفور قال لشتادلمان:  
عليك المرور بجوار هوف وتجنب المرور بها. خذ أكثر الطريق  
بعداً عن هوف. يكفي أن العربة المحملة بخمسة صناديق من  
عينات المعادن وستة صناديق من ماء النبع والتي أرسلت  
أمامهم، يكفي أنها قد تكون وصلت الآن إلى هوف، وربما  
انقلبت وسط الرعب من الحريق. سيفقد عندئذ العينات  
وزجاجات نبع كرويتس. شد الستائر. كان يريد العودة إلى  
المرثية.

تحتم عليهما المبيت في غيفيل حيث لم يسبق لهما ذلك  
من قبل. لذا سار شتادلمان أولاً إلى الفندق وتفحص أبواب  
غرف النوم ليرى ما إذا كانت المفصلات مُزَيّنة. إذا لم تكن،  
سيصب عليها من الزيت الذي كان يحمله معه دوماً. لم ينادِ  
على سيده إلا بعد تأكده من أن الأبواب تنفتح من دون صرير.  
في اليوم التالي واصلا السفر حتى شلايتس. هناك كانوا يعرفون  
هذا الزائر والحوذي المرافق له. غير أن غوته استيقظ نحو  
الخامسة صباحاً على هديل الحمام فوجد نفسه مجبراً على  
الإصغاء، لأنه لم يسمع من قبل أبداً هديل الحمام بمثل هذا  
القرب والوضوح. رسم خطوط نوتة موسيقية، ثم رسم ما  
سمع:





كان هذا هو الرجل.



كانت هذه هي المرأة.

كان الذكر موجوداً على شجرة تلتصق تقريباً بالنافذة أما الأنثى فبعيدة. استمر الحال هكذا طوال ساعة. ثم اقتربت الأنثى. سار الذكر لملاقاتها. رفرفة عالية، ربما من الأجنحة الأربعة، ثم خيم الهدوء. ولكن لربع ساعة على الأكثر، ثم بدأ الهديل ثانية. هو بالقرب من النافذة، وهي بعيداً عنها. أغلق

غوته النافذة. أصبح الهديل خافتاً ولكن لا يمكن أن يخطئه السمع. لو كتب الآن رسالة إلى أولريكه، لو حكى لها ما رآه هنا على هامة الشجرة أمام النافذة لأضحى كل شيء على ما يرام! والآن، إلى المراثية.

عبرا بوسنيك إلى كالا. ها هي مدينة بينا تقترب مهددة. تثبت بالمراثية وكأنها حصن منيع قادر على حمايته وحماية أولريكه من بينا ومن كل ما سيأتي من بينا. بينا تعني العمل المعتاد الموجه الآن ضده. ضد أولريكه وضده. في هذا اليوم الأخير قبل بينا اجتاحه الشعور - أثناء انغماسه في الكتابة في العربية المهتزة دوماً - بأنه يكتب راعماً. عندما يتوقف عن الكتابة ولو للحظة كان يسمع نفسه يصرخ تلك الصرخات القصيرة. كانت رفيعة الصوت جداً. صرخات صغيرة بائسة. غير أنه كان بحاجة إليها.

صاح شتادلمان أنهما وصلا إلى كالا. شد الستارة مرة أخرى وهبط من العربة ثم سار وراء الخادم الذي قاده إلى غرفته. جلس إلى المائدة وراح ينقح المقطع الذي نظمه اليوم. أخبره شتادلمان أن عربة النقل وصلت بسلام إلى هوف، وأنها كانت بالأمس هنا ثم واصلت السفر صباح اليوم إلى فايمر.

في اليوم التالي وصلا بينا. كان ابنه أوغست في انتظاره في بيت المفتش، عند حديقة النباتات التي أمر بإنشائها، حيث أثن شقة لإقامته في بينا. ارتعب غوته. في ذاكرته لم يكن ابنه بديناً إلى هذا الحد. كان يود لو بدأ الحديث بالإشارة إلى النظام الغذائي لهانيمان الذي يتبعه غوته. غير أنه كان يعرف أن

ابنه يفتخر بأنه يستطيع كافة أنواع الطعام. كان أوغست يحتقر الذواقة، أما النظام الغذائي فهو في رأيه اختراع خبيث ابتدعه الأطباء الجشعون. من العبارات التي كان يحب أن يرددتها: أنا أستهجن كل ما هو معقد. نابوليون لم يكن معقداً. كان أوغست من عشاق نابوليون.

رتب الابن لكليهما دعوة للعشاء عند صديق غوته الحميم «كنيبل». أسعد ذلك الأب. كان كنيبل وتسلتر الصديقين الوحيدين اللذين يتحدث غوته معهما من دون أي تكليف. حوالى خمسين عاماً مرت على لقائهما الأول في فرانكفورت، حيث عرّفه كنيبل - الذي كان يعمل مربياً للأمرء في البلاط الملكي - إلى كارل أوغست. أصبحتا وظلا صديقين. غير أن غوته لم يستطع أن يرد عن صديقه ذلك الداء اللعين الذي يدفعه إلى توجيه النقد واللعنات إلى كل شيء. إلى كنيبل إذاً. كان شيئاً رائعاً أن يقضي معه أمسية واحدة. ولكن عندما يلتقيه في أمسية تالية ولا يتوقف الصديق عن الاعتراض على كل شيء، عندئذ يهجره غوته لبرهة من الوقت. غير أن كنيبل قال هذه المرة محياً ضيفه: ماذا فعلت بنفسك؟

غوته: جعلوني سعيداً.

كنيبل: كنتَ حتماً لدى الفنان الذي يعيد المرء إلى شبابه، والذي وظفته في قصتك «الرجل ذو الخمسين عاماً».

غوته: من يحبني يلاحظ ذلك.

كنيبل: سيكون العكس أفضل: من لا يلاحظ ذلك لا

يحبك.

غوته : أوافقك .

كنييل : غوته متفق معي في الرأي ! ستكون أمسية رائعة !

ثم بدأ الحديث في موضوع هذه الأمسية : نظم الطلبة مسيرات احتجاج ضد غوته لأنهم سمعوا أن غوته سيأتي لبضعة أيام إلى بينا . أمسيات بأكملها وهم يهتفون : اللعنة على غوته ، يسقط غوته ! قال أوغست إن التحقيقات بدأت لتحديد هوية المحرضين على هذا الشغب .

كنييل : إنه ينبع من التساهل والليبرالية . يجب طرد كل من يشارك في هذه المسيرات إلى خارج حدود الولاية .  
سأل غوته عن أسباب الاحتجاجات .

كان أوغست قد استقصى وعرف أن المحرضين هم من غلاة القوميون الحمقى الذين يكرهون غوته ويحتقرونه لأنه تقابل مع نابوليون .

كنييل : الغباء طويل العمر .

كان من الممكن أن تكون الأمسية بالرغم من ذلك لطيفة . غير أن أوغست أذاع خبر الدكتور ريباين وأنه انطلق في الخامسة فجراً إلى مسقط رأسه إيغر ليُحضرَ العروس ، وبعد ذلك سيتزوجها فوراً .

أصاب الخبر غوته في مقتل . كال المديح للعروس بأجمل الكلمات ، لكنه سمى الزواج السريع «مزحة غبية» . حفل خطوبة مستعجل ، رائع . ولكن زواج مُرتجل ، هذا شيء بشع . شرارة الحب تنطلق في ثانية . ولكن الزواج هو التوافق بين

المستحيلات. على المرء أن يمعن التفكير في ذلك جيداً.

استولى الحنق على غوته. ألح على الانصراف. بعد ذلك جلس مع أوغست في منزل المفتش. لم يكن ممكناً التغافل عن رغبة أوغست في مواصلة النقاش عن موضوع الزواج. شعر غوته بأن أوغست ينتظر الآن جملة عن أولريكه فون ليفتسو.

طيلة الصيف سمعوا كلاماً كثيراً، بدأ أوغست حديثه. أوتيليا أيضاً عانت من هذا الكلام. بالنظر إلى العلاقة الخاصة بينه وبين زوجته لن يشير ذلك عجب الأب، أليس كذلك؟

من ناحيته شعر غوته باستحالة أن يقول لابنه شيئاً يقوم على الفور بنشره وإرساله هذه الليلة إلى فايمر. عندما لاحظ أوغست أن الأب لن ينطق باسم ليفتسو استغنى عن بقية أسئلته المتصيدة للأخبار.

عندئذ أعلن الابن برنامج الأيام الثلاثة القادمة. كان على غوته أن يزور كل ما أسسه يوماً في هذه المدينة: متاحف، مكتبات عامة، مدرسة الطب البيطري، الحديقة النباتية، المرصد الفلكي والمبنى الجديد للمصحة البيطرية. ثم سلمه أوغست، وفقاً للتعليمات، الرسالة التي أرسلها الدوق الأكبر متمنياً لغوته رحلة عودة سعيدة. انتهت الرسالة برغبة ملحة لسيده. على غوته أن يتولى فوراً رئاسة جامعة بينا. إنه يأمل ألا يرفض صديقه غوته رغبته هذه. بعد الاضطرابات الطلابية الأخيرة ليس الدوق بحاجة إلى توضيح أهمية تولي غوته رئاسة الجامعة في بينا.

طوى غوته الرسالة قائلاً إنه في غاية الإنهاك. إلى الغد  
إذاً، عزيزي أوغست.

غير أن أوغست كان يريد أن يعرف: نعم، أم لا؟  
لم يقل غوته شيئاً، لكنه هز رأسه نافيةً بحدة لم يعتدها.  
في غرفة المكتب التي تخلو من كافة وسائل الراحة جلس  
إلى مكتبه. من المستحيل أن يذهب الآن إلى غرفة النوم.  
يقشعر بدنه عند رؤية الفراش. ليس لأنه كان سيئاً كفراش  
جندي، بل لأنه فراش. عليه أن يكتب. تأخر الوقت ولم يعد  
بإستطاعته العمل على المراثية. كان منهكاً. طالما أنه لا يستطيع  
أن يتوجه إلى أولريكه عبر القصيدة. فليكتب إذاً إلى السيدة فون  
لِفِتسو. لقد نظمت المرأة الأيام والليالي في كارلسباد تنظيمًا  
جعله يشعر في حركاته وطعامه أنه كالسجين. ولكن عندما  
يكتب إليها، فلا بد من أن يتوجه إليها بالشكر. لا يمكن أن  
يكتب لها شيئاً آخر.

أيًا كان ما كتبه فقد كان يظهر عليه جلياً أنه يكتب. على  
الكاتب ألا يتظاهر بأن ما يكتبه يُدون من تلقاء نفسه على  
الورقة. عندما لا يقوم بالإملاء أو عندما يكتب بخط اليد، فلا  
بد من أن نتحدث عن كتابة الكاتب. إذا كانت الضرورة للكتابة  
ملحة على هذا النحو الجلي، كما حدث له في بينا في تلك  
الليلة، من الثالث عشر إلى الرابع عشر من أغسطس، فإن  
الكاتب يستشعر الأمان في هذه الضرورة. من الممكن أن نطلق  
على تلك الحالة التي وجد نفسه فيها: البراءة، أو خلو البال،  
أو الحرية.

على الفور اعترف لوالدة أولريكه بصراحة تامة أنه يريد أن يبوخ بالكثير، غير أنه لا يستطيع أن يقول إلا القليل. يريد أن يشكرها كثيراً على هذه العطلة، لا سيما اليوم الأخير. لا يستطيع أن يكتب ذلك لأنها - وهذا شيء يعرفه - على علم به. كتب إلى الأم ما كان يود كتابته إلى الابنة، من دون أن يكون مسموحاً له ذلك. حالته مع الابنة لا تختلف كثيراً عن حالته مع الأم. تعرف الابنة حالته الداخلية خير معرفة. تعرف باطنه عن ظهر قلب. أي أن باستطاعتها - عندما يرد على بالها بين الحين والآخر - أن تقول كل شيء على نحو أفضل مما يستطيعه في حالته الحالية.

... في حالتي الحالية... هكذا كتب. غير أن الجملة باحت بأكثر مما يود. لذا أضاف كلمات تشي بالرعونة والخفة. إن من الجميل أن يُحِب الإنسان. هذا شيء تعرفه الابنة، حتى وإن كان الصديق يتعثر أحياناً في مشيته. أينما حل، يسمع أنه يبدو في مظهر طيب وصحة جيدة، وأنه مرح. سر العلاج معروف، لي ولكنّ.

أتى على ذكر برتا وأماليا على نحو يرضيهما عندما تُقرأ الرسالة عليهما. يشعر بالامتنان والشكر العميق تجاه العائلة من خلال ما حكته السيدة فون لفتسو له عن حياتها. مثلاً عن لقاءها بمدام دو ستيل في جنيف. وإلى الابنة قال: كلما زاد معرفة بها زاد حباً لها. يود البرهنة لها شخصياً على أنه أصبح يعرف ما يعجبها وما يثير استهجانها. إنه يأمل إذًا، في النهاية كما البداية.

الوفي المخلص، غ.

ثم لاحظ أنه لا يستطيع التوقف. كانت الكتابة إلى والدة أولريكه الآن الإمكانية الوحيدة للتحدث مع أولريكه. اعترف إذاً على ورقة جديدة أنه يلاحظ أنه لا يستطيع التوقف عن الكتابة إليهما.

ما خطر على باله فوراً: أن يبعث بتحياته إلى الغراف كليبلسبرغ، وأن يوجه إليه الشكر على زاد الطريق المتنوع الحافل بالمفاجآت الذي أعطاه إلى شتادلمان ملفوفاً في عناية. ثم توقف، ولم يستطع التوقف. بدأ ثانية. لم يودّع الجدة والجد بروسيكه في مارينباد. عليها هي، لطفاً، أن تسلم عليهما نيابة عنه، وأن تقول لهما إنه - إذا شاء حظه - يود أن يكون في العام المقبل ضيفاً عليهما. وبذلك ألمح إلى رغبته في السكن مرة أخرى في القصر. توقف عن الكتابة ثم شرع مجدداً. نقطة أخرى مهمة، كتب. إنه يلح في الرجاء بأن يخبرنه إذا غير آل لفتسو مكان الإقامة. لم يكن في حاجة إلى إبراز هذه النقطة على هذا النحو بعد المشهد المسرحي الذي قدمته الأم عند الوداع وقولها: «ل ت ف م ا د ا». ولكنه لم يكتب ذلك لهن من قبل.

حتى الآن كتب أربع إضافات. وفي كل مرة كان يوقع أسفل الورقة وكأنها المرة الأخيرة.

ثم شرع يكتب من جديد: أمامه الآن الكأس المحفورة عليها الأسماء الثلاثة، وفرع اللبلاب يلتف حولها. يوم السر



العلني الجميل . دقق في ما يعنيه : إن مرأى الكأس يسعده من  
دون أن يمنحه العزاء .

ما زال الفراش مستحيلاً . لم يعد ممكناً مواصلة الكتابة .  
ستكون هذه هي الصعوبة الرئيسية التي ستواجهه . طالما يكتب ،  
حتى وإن كان يوجه كلامه للأم ، فهو في حضور أولريكه . إذا  
كان منهكاً لدرجة لا تسمح له بالكتابة فأين هو إذا؟ يوماً بعد  
يوم كان يواصل في العربة كتابة المراثية . في الصباح المبكر  
بقدر الإمكان كان يكتب فور الانطلاق بالعربة . أحضر الآن  
دفتر سفرياته وقرأ الأبيات التي دوّنها من دون أن يستطيع  
تضمينها المراثية .

اسمعي كلمة تحيط بك كأجمل ما يكون :  
كما هجرتني ، ستأتين !

وتعجبَ من أن الشمس  
لا تتوقف - حين مرآها - في كبد السماء

حتى بعد القبلية الأخيرة ، أسرع  
وطبعت على شفتي قبلة الختام

ما كان لنا - إلى أين ولى؟  
وما هذا الذي لدينا الآن؟

في الغد، وبمجرد وصوله إلى فايَمَر، سينسخ المرثية،  
ويعدل فيها حتى تكون معه. لن يعرضها على إنسان. أولريكه،  
نعم، على الفور. لا يقدر على إرسال المرثية إليها، وهي  
المكتوبة إليها وحدها. لا يستطيع أن يرسل إليها شيئاً من دون  
أن تراه الأم. لن يرى النورَ إذاً ما بدأ ينمو داخله. وسوف  
يحتال على العالم حتى لا يُظهر ما تمور به نفسه.

عندما تنساب أفكاره هكذا كان يعرضها على الفور كاملة  
أمام أولريكه. عليه أن يعرف دوماً رأيها في ما يفكر فيه الآن.  
ولحسن الحظ كانت حاضرة في فكره حضوراً قوياً، فإذا أسر  
إليها بشيء لم يبق أبداً من دون رد.

## الجزء الثالث

# 1

فايمر، تحريراً في 7 أكتوبر 1823

عزيزتي أولريكة،<sup>(1)</sup>

عندما سألتك ما إذا كنت تسمحين لي بالكتابة إليك عندما يتحتم عليّ ذلك، أجبتي:  
نعم، بالطبع.

عندما تقولين نعم، تعنين نعم. لو لم أشعر بذلك لما استطعت الكتابة إليك. يساعدنني أنني لا أعرف ما إذا كنتُ سأستطيع إرسال ما أكتبه إليك على الفور. إنني أخشى أن تكون أوتيليا قد أحكمت سيطرتها على ساعي البريد بيننا، أو أن تكون سحرته أو رَشته أو هددته حتى لا تغادر رسالة واحدة فايمر قبل أن تُعرض عليها. ستصادر على الفور أي رسالة أوجهها إليك. منذ أن عدت من بوهيميا وهي مريضة. على ما يبدو وصلتها من مارينباد أشياء لا يمكن أن نتخيلها. ما كدنا

---

(1) هذه الرسائل كتبها فالزر بأسلوبه ولغته (العصرية) على لسان غوته. (م)

نتبادل التحية والسلام حتى أصبحت طريحة الفراش . قال لي ابني المدلل أوغست : غير مسموح لي بزيارتها، لأنني أنا هو الداء الذي تعانیه . الدكتور ريباين أضاف قائلاً إن هناك طريقة علاج جديدة ربما تكون واعدة، تقضي بأن يُداوى الداء بالداء . استطاع الطبيب أن يحصل لي على إذن بالزيارة . كم مضى على زيارتي الأخيرة لها في مملكتها بالدور العلوي؟ حتى الابن أوغست يسخر في بعض الأحيان قائلاً إنه - في الدور العلوي - ليس إلا عابر سبيل . كانت تبدو بشعة وهي راقدة على الفراش . النظرة على السقف، والوجه المائل دوماً إلى التوتر كاد يتمزق توتراً . الأنف الذي يُعتبر بالنسبة إلى هذا الوجه الضيئل بارزاً سيّد الوجه الآن على نحو وحشي لأن الوجه كاد أن يتلاشى . الشفتان اللتان لم تلتفتا النظر من قبل أبداً، اختفتا تماماً . كل ذراع كانت هامة بجانبها، غير أن اليد تخشبت على شكل قبضة . لم تجد علي بنظرة من عينيها السوداوين . لحسن الحظ، معتاداً أنا على عيون أخرى . بقينا فترة طويلة صامتين . لم أقدر على التلفظ بحرف . حاولتُ مرة أن أضع كفي على قبضتها غير أنها صرخت، صرخة ألم، صرخة دفاع، صرخة تعني : دعني في سلام . وعلى حين غرة انفجر سيل الكلمات الموجه ضدك أنت يا أولريكه . لم تترك صفة بشعة إلا وألصقتها بك، أنت وآل لِفِتسو جميعاً . وصفتكن بعصاية من الطمّاعات الجشعات اللواتي يحتلن المنتجعات الصيفية، ثم تحاول الإيقاع بأسمن الضحايا . وصف لا يمكن أن ينطبق عليّ . ليس في استطاعتي أن أكرر هنا الصور اللغوية التي وصفتكن بها .

ليس بعد . ربما تبادل رسائل تسمح لي في ما بعد بأكثر مما هو مسموح به الآن . من المعروف على نطاق أوروبا كلها، هكذا قالت، أنك، يا عزيزتي أولريكه، عاهرة جشعة . أكتب لك كل هذا حتى تعرفي ما أواجهه هنا . منذئذ وأنا أعودها كل يوم . يقول الدكتور ريباين إنها كانت قبل ذلك راقدة لا تتكلم ولا تأكل . لا أصدق الشطر الثاني من الجملة . إن نشر تلك الشائعات جزء من الحرب التي تشنها عليّ . غير أن الحرب لم تنشب يوماً من طرف واحد . لنشوب حرب لا بد من طرفين . طيلة الأعوام السابقة كانت أوتيليا تشعر وكأنها تزوجتني أنا . هذا هو الذنب الذي أتحملة في نشوب الحرب . لقد تغاضيت عن ذلك وسايرتها، بل تسببت في ذلك . تعاملت أوتيليا مع ابني المدلل أوغست باعتباره عقبة لا بد من اجتيازها للوصول إليّ . كنا بالطبع نتبادل المزاح، غير أن هذا المزاح كان زياً تنكرياً يخفي وراءه مشاعر غير لائقة، مشاعر كانت تنمو وتكبر كلما حاول المرء إخفاءها . لم يحمل الابن المدلل أوغست الأمر على محمل سيّئ، فبذلك اكتسبت مغامراته العاطفية شرعية كاملة .

كنت أسافر إلى بوهيميا هارباً من تلك الأوضاع، فإذا بي أقابلك أنت وأختيك ووالدتك . عائلة تواجه العالم بخفة ومرح . لستُ الإنسان الذي ينفجر دوماً بالضحكات . هذا أمر قد لاحظته، غير أنني لم أضحك في حياتي مثلما ضحكت معكن . اعترف أنني لا أتخيل نفسي مبتهجاً من دونك، أو وسط عائلة أخرى . لقد سمعتِ عن فيلاند، الشاعر والحكيم . كان

لدى فيلاند استعداد دائم لما يطلق عليه «المرح». بحنكته المعهودة راح طيلة ساعات يلقي عليّ تعاليمه العظيمة عن المرح. لذا أعرف أنني لستُ مرحاً. مَنْ يتحل بالمرح - وأنا لا أعتقد مُطلقاً أن بإمكان الإنسان أن يتحلى بالمرح - يتظاهر بالمرح فحسب. المرح يحتال على جدية الحياة. جديتها البشعة. الابن المدلل أوغست قال ذات مرة: غوته هو الروكوكو. نعم، كانت حياتي قبل أن أتعرف إليك روكوكو. الجدية التي عرفتها حياتي من خلالك - أنتِ الضحك - تجعل كل ما سبق يبدو وكأنه روكوكو. لو كان فيلاند ما زال على قيد الحياة - وقد لقي المسكين نجهه لأنه خالف نصيحتي عندما جاء يزورني في الشتاء، وخرج من عندي بحذاء رقيق وجوارب حرير وسروال مخملي ومعطف خفيف، ثم سار عبر الثلوج والجليد من فايمر إلى أوسمانشتيد فأصيب بالتهاب رئوي - لعلمته قائلاً: إن الإنسان المَرِح مخادع أعظم من ذلك العصر الذي دخل التاريخ تحت اسم الروكوكو. يأخذ المَرِح نفسه مأخذ الجد، إلا أنه ليس جاداً، لذا فإنه الاحتيال بحق. ها هي نزعتي التربوية تتضخم من جديد. أرجوكِ المعذرة. كل ما أريد قوله إن حياتي عرفت من خلالك جدية لم أعرفها من قبل. لا يمكن مواجهتك بالروكوكو.

في بوهيميا اعترفتُ بذلك علناً. تناقلت الألسنة خبر حبي العظيم لك، وشوّهته الألسنة الخبيثة إلى أن وصل إلى هنا مسخاً. هذا ما حوّل أوتيليا إلى امرأة مولعة بالشجار، وهي أساساً مولعة بالشجار. كل منا قد يتحول إنساناً مولعاً بالشجار

إذا كانت الظروف ملائمة. والظروف هنا ملائمة الآن. ربما يكون القول التالي قانوناً عالمياً: سعادة إنسان تعني تعاسة آخر، وعلى قدر سعادته تكون تعاسة الآخر، للحفاظ على توازن العالم. عليّ أن أعودها في فراشها بانتظام - هذا ما يطلبه د. ريباين - وعليّ أن أسمعها تصرخ في وجهي بأني عجوز متصاب يلهث وراء المتع واللذات ويعبث بالفتيات وينتهك حرمة الأطفال وأشياء أخرى أسوأ كالقول إنني حيوان فقد إنسانيته، وإنني أعرّضُ على العالم واجهة نبيلة، ولكني في الحقيقة أعامل أقرب أقاربي بوحشية تفوق وحشية نيرون تجاه أعدائه. معاناة أوتيليا عظيمة. من الممكن أن أقول: معاناتي أيضاً. عندما أزورها لا أستطيع أن أنفوه بحرف. حقاً، ولا بأي حرف. لا أستطيع أن أقول - وهذا على الأقل أريد قوله بل ويتحتم عليّ - إنني أحب أولريكه. لا أقدر على القول كيف أحبها، وكيف أنني لا أستطيع حيال حبي شيئاً، مطلقاً، مطلقاً، مطلقاً. عليّ أن أظهر غير ما أبطن. عليّ القول: مارينباد، كارلسباد، لم يكن كل هذا إلا تسلية صيفية. كل إنسان بحاجة إلى تسلية صيفية. عليّ أن أحاول إدخال مثل هذا الهراء في رأسها. عليّ أن أكون مهتماً بنهوضها من فراشها. إنني أمارس حياتي كصاحب شركة. أتعرفين كم عدد العاملين لدي؟ شتادلمان ويون وماير وريمر وكرويتز وإكرمان. بصورة شبه يومية يأتيني صديقي الحميم المستشار فون مولر الذي سيسرف يوماً ما على تنفيذ وصيتي. إنني أضع كل ثقتي في شخصه العزيز الوفي. عبر فريق العمل تأتي إليّ فايمر، وفايمر هي



العالم. ولكن هذا الفريق ينقل إلى الخارج ما يحدث هنا. فضلاً عن هذه السلسلة التي لا تنقطع أبداً من الأشخاص والشخصيات التي لها الحق في زيارتي. هل ينبغي عليّ ألا أبالي، عزيزتي أولريكه، بأن أظهر في مظهر العجوز المتصابي - هذه هي المسبة التي تؤلمني غاية الألم - والمتوحش؟ أم أنا حقاً كذلك؟ صارحيني، من فضلك، من فضلك، من فضلك. لن أبالغ عندما أقول إن ثقتي في رؤيتك وحكمك على الأمور لا حدود لها. إذا كانت هناك شعرة واحدة من الصدق في هذه النعوت فمن فضلك قول لي. المرعب في الأمر أنك إذا أطلقت عليّ ذلك، إذا تحتم أن تطلقني عليّ ذلك، فلن أتأثر مطلقاً. لن أشعر بالإهانة أو الغضب. لا، بل ولن يتعكر مزاجي. وأنت تعرفين أن مزاجي يتعكر بسرعة. لقد عايشت ذلك في بوهميا. من فضلك، جربي، أن تطلقني عليّ ما شئت من شتائم.

سمح لي بالكتابة إليك. بمجرد وصولي إلى فايمر بدأ صراعي مع هذا الإذن بالكتابة. يوماً بعد يوم كنت أبدأ طيلة أربع وعشرين ساعة كل جهدي حتى في أحلامي كنت أصارع رغبتني لكي لا أكتب إليك. اجتزت أكثر من نوبة فجائية كانت تصيبني وتدفعني إلى الكتابة دفعاً. كنت أخرج منتصراً وإن مصاباً على الدوام بجراح. معنى هذا أنني ألزمت نفسي بما يلزم: لا رسالة. ما الرسالة إليك إن لم تكن استمراراً للوهم والخداع؟ لا أستطيع الوصول إليك. إنني أطيل فحسب مد ذراعيّ تجاهك فلا أجنبي غير الألم. هل سأتحلى بالشجاعة

وأرسل لك ما ينبغي علي أن أكتبه؟ كيف؟ لقد أحكمت أوتيليا بالتأكيد قبضتها على ساعي البريد ليزر وسكرتيره شتيفاني في ألكسندر هوف. يمكنني أن أكلف شتادلمان بأن يلقي بالرسالة في صندوق بريد كرانشفيلد أو بلانكنهايم أو بوتلشتيت. هذا إذا لم تكن أوتيليا قد أحكمت سيطرتها على موظفي البريد في المنطقة بأكملها. أشعر بأني مُلاحق حتى إذا لم تكن رسائلي قد صودرت بعد من سلطة عليا تراقبني من آلاف الجهات. الأخلاق والآداب والعادات والتقاليد والنظام، كلها اتحدت مكونة سلطة رقابية عليا تقول لي بكل شكل من الأشكال إنني أسلك سلوكاً غير معقول، لأنني أحبك يا أولريكه. لقد تجمعت كل هذه السلطات الشرعية ضدي، وهو ما أطلق عليه اسم «الإخراج المسرحي». في مسرحيات كهذه لا يتواعد الأشخاص على فعل شيء، لكنهم يعملون جميعاً للوصول إلى هدف واحد. هذا الهدف هو أنا، أو بالأحرى البرهنة على لا معقولية ما أفعل. الفارق - وهو فارق حاسم فاصل بيني وبين سلطة المخرج العليا - هو أن المتحالفين ضدي تحالفاً طبيعياً يحاربون اللامعقولية التي أجسدها بكل الوسائل الثقافية والاجتماعية. إنني أعترف بسلوكي غير المعقول وتمسك به، أما هم فيحاربونه بكل السبل. لا أقاوم سلوكي غير المعقول بل أفعل كل ما في وسعي كي أظل أمارسه. من الممكن أن نقول في نبرة هي قمة الدرامية: إنها مسألة حياة أو موت.

عزيزتي أولريكه، لا أبوح بذلك إلا لك، ولك وحدك، فهذا شيء لا أستطيع البوح به إلا لك، لأنني لا أعرف ما إذا

كنت سأرسل لك يوماً ما كتبتة في هذه الرسالة. مريضٌ أنا. لا ينبغي أن تلاحظ أوتيليا ذلك أبداً. مريضٌ أنا أيضاً، عشقاً لك. لا أقدر على البوح بذلك إلا في رسالة لن أرسلها إليك أبداً! يا له من عالم! بعد آلاف السنين من التمدن والتثقف! ولكن الطبع في النهاية يغلب التطبع، ورغم أنني لن أراك قريباً، رغم أنني بالتأكيد لن أستطيع أن أرسل لك هذه الرسالة غداً، ورغم أنني ربما لن أرسل لك هذه الرسالة أبداً، فإن للكتابة إليك معنى. طالما أنني أكتب إليك فأنا أحادثك. أراك وأنتِ تصغين إلي. أتوهم أنني أعرف كيف سيكون رد فعلك على هذه الجملة أو تلك. في رسالتي أستقبل بمشاعري رد فعلك وأعقب عليه. أقرأ على وجهك المصغى موافقة قلبية، بل ومشاركة في ما أكتبه. تتذكرين ولا شك أن رواية «فرتر» ليست إلا رسائل. أنا لا أقدر على الانتحار. إلى هذا الحد ما زلتُ أبالغ في تقدير قيمة العالم، وقيمة الأشخاص المحيطين بي. لا أريد لأولئك أن يهنأوا بالتهكم عليّ في صحفهم كما يحلو لهم، وأن يكتبوا: انتحر أخيراً. العنوان: آلام العجوز فرتر. ربما يتضخم سلوكي المستحيل إلى درجة تجعلني عما قريب لا أبالي بالمحيطين بي. عندئذ سأفعلها يا أولريكه. والآن عليّ أن أقول أكثر الأشياء جديّة. أنا لا أقدر على ذلك إلا إذا كنت موافقة. لا تتسرعي وتجيبي: مستحيل! انتظري لتري. هل أستطيع أن أصور لك استحالة حياتي على نحو يجعلك تقولين من أجلي، وحتى تنهي المعاناة والألم: نعم، افعلها. سيكون ذلك عودة إلى المنطقة الحميمية التي استمتعنا بها أربع ساعات. وبسرعة

سأجدهك بجوار قلبي . ألم نتحدث مرة في مارينباد عن ذلك ،  
وقلنا إنه سيكون تشبهاً بالهمجية لو تركنا نهاية كل كائن حي لما  
يُسمى الطبيعة؟ وهل تبالي الطبيعة بمعاناتنا؟ لكننا نبالي بذلك .  
علينا في هذه الحالة الدقيقة ألا نخفي ما لا يُطاق تحت قشرة  
ثقافية حتى يظهر في صورة محتملة . وليكن ما يكون!

لو سيطر اليأس على قلبي - وهو ما أحاول منعه ليلَ نهار  
- لتحتّم عليّ أن أنهي حياتي . عندئذ لن ينتقدني نابوليون أو  
أي شخص آخر بسبب ضعف في حبكة الرواية أو خلط بين  
الدوافع . حتى لو تمكن السيد س أو السيد ص من تقليد  
روايتي «سنوات التجول»، وربح مالا أكثر مما ربحت أنا من  
الأصل ، فلن يرى نابوليون أو غيره في انتحاري - إذا حدث -  
رد فعل على ما لحق بي من إهانة أدبية . سيحدث الانتحار  
عشقا ، دون أي سبب آخر . نعم ، بذلك أعترف بأن الأمل لا  
يزال يحدوني . غير أنني أعرف أن الطريق مسدود . أعرف أن  
عليّ العمل على الجزء الثاني من «فاوست» ، وعلى الطبعة  
الثانية من «سنوات التجول» . ولكن ما الواجب أمام حب يائس!  
اليأس إلهٌ مستجيب ، لحسن الحظ . معه أتحدث ليل نهار . إنه  
إله ماكر ، غير أنني لا أخلو من المكر أيضاً . لا أفكر كل لحظة  
فيما أستطيع التفكير فيه . ليس على المرء أن يسدي هذا الصنيع  
إلى اليأس . عزيزتي أولريكه ، ما زلت في البداية . ما أحدهس  
الآن : ألا أطلب شيئاً من الذات . بدايةً . قد يكون كل شيء  
وهماً . إذا كان لا بد من اعتبار جملة أكثر أهمية من أخرى ،  
فلتكن الجملة التي لا تبوح إلا بأقل القليل . بدايةً يعلو الإنسان

على ما يعترض طريقه عندما يعترف بالضرورات والحتميات .  
هذا هو كل شيء . بدايةً قلتُ بإعجاب إن نابوليون ذو طبيعة  
حتمية . أواه يا أولريكه ، انظري إذاً إلى طبيعتي الحتمية ! .

ما زلتُ في البداية . الرسامة يوليا فون إغلوشتاين ،  
وأختها المغنية لينشن ، آديله شوبنهاور الذكية والجميلة معاً ،  
أولريكه فون بوغفيش شقيقة أوتيليا التي تتعثر دوماً بسبب نهمها  
إلى الحياة والتي لا أطلق عليها - إذا تسللت إلى أفكاري -  
سوى بوغفيش ، كل أولئك يردن أن يحطن بي ويخففن عني .  
لقد ثرثر البعض كثيراً عن فتاة أخاذة الجمال كانت للمستشار  
أكثر الناس إصغاء وسرعة بديهة ، وأكثرهم تعلقاً به . لم ينفصلاً  
ليلاً ونهاراً . نعم ، نعم ، نعم ما زال صدى هذه الثرثرة يتردد .  
أكثر الناس تطرفاً في هذا الشأن هو المستشار فون مولر الذي  
أثق به ثقة لا حد لها . إنه يفضل أن يجلس معي عن أن يؤدي  
في القصر دور المستشار . اقترب مني المستشار فون مولر  
اقترباً شديداً حتى أنني بحثُ له بكلمات قد تُستخدم ضدي  
كاعترافات . لن يتمرد فون مولر عليّ أبداً ، أما الآخرون فقد  
يصبحون خونة إذا حرضتهم عليّ أوتيليا أو حرضهم الابن .  
الرجال فقط يفعلون ذلك بالطبع . ليس الرجال كلهم . ولكن  
كل الرجال الذين يقرضون الشعر . وكل الرجال حولي يقرضون  
الشعر . كل مَنْ ينظم الشعر ، ينظر نظرة تقديس إلى قصائده ،  
أما شعر الآخرين فهو نظم عادي . في هذه الحالة أيضاً هناك  
استثناءات : المستشار فون مولر ينظم الشعر ، لكنه لن يخونني  
أبداً ، ولن يشي بي أمام أحد . أما ريمر ويون وشتادلمان

وإيكرمان وكرويتير فينبطق عليهم ما قلت . إذا ترفقت أوتيليا بقصائد هؤلاء ففي إمكانها أن تفعل بهم ما تشاء . لكنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً مع عزيزي ماير، يوهان هاينريش ماير، اللاشاعر بامتياز . لذلك، لا يمكن إغواؤه مطلقاً . آه يا أولريكه، سيكون صديقاً لك إذا جئت . تعالي يا أولريكه! المستشار القيصري ماير الذي يُدعى «ماير الفنون»<sup>(1)</sup> - كنتُ معه في فراش واحد في روما، ثم زينتُ له المجيء إلى فايمر . رسامٌ هو، يا أولريكه، لكنه لا يرسم . أن يكون سويسري في فايمر، إذاً فهو يائس . إني أقسمُ أصدقائي إلى يائسين وآملين . المستشار فون مولر هو رفيق الأمل رقم واحد . أما اليائس الأول فهو ماير . لست بحاجة إلى أن أبوح له بحرف واحد، فهو يعلم كل شيء . سأقتات على يأسه .

رابطة الوفاء تجمع بيني وبين أديله شوبنهاور والدوقيتين فون إغلوشتاين . وجهت دعوة عامة للثلاث . يمكنهن المجيء إليّ كل يوم ابتداءً من الخامسة، ويبقين ما شاء لهن البقاء . ثم أشعر بالمعجزة الرقيقة: أنا سميرٌ عظيم . كنت دوماً أحسن مسامرة البنات . ولكن الآن لا يفوقني أحد . لا تنقصني الزائرات، ولذلك ألاحظ التأثير الطيب لبرنامج السمر الذي أقدمه . تبدو المعجزة الرقيقة كالتالي: منذ السابع عشر من سبتمبر تعلمت أنه من أعظم المصائب أن يُعبر الآخرون تجاهي عن شعورهم بالشفقة، سواء صدرت عن عطف أو تهكم . لا

---

(1) اسم ماير يعني أيضاً العمدة أو الحاكم أو السيد، أي هنا: «سيد الفنون» . (م)

بد من أن أبقى خارج أطر الفهم. ليس عليّ أن استعرض بين عشية وضحاها سلوكاً لا يفهمه أحد. لكنني تعلمت أن أسلك أمام النساء والبنات سلوكاً جذاباً. هذا هو جوهر المعجزة الرقيقة. كي أتحدث عنها ينبغي عليّ أن أثقل عليك بتلك المقدمة، القوة والثراء في سلوكي إنما ينبعان منك أنت. ولهذا أنجح أيضاً أمام النساء والبنات. حتى إذا تقابلت اليوم مع هذه الكارولينا أو تلك فإنها ستعتبرني بعد نصف ساعة نموذجاً للمُعجب اللطيف. أستطيع ذلك لأنني أراك وأشعر وأعجب بك في كل فتاة وفي كل امرأة. منذ أن استقبلك قلبي أعرف أن كل ما شعرت به تجاه الفتيات والنساء، وكل ما قلته يوماً، لم يكن سوى تكرار. شخص يتلو نصاً. الآن فحسب أنا من يشعر ويتحدث.

هل تسمحين الآن ليدي أن تشعر بالألم؟ منذ أن دونت «فترت» لم أكتب بيدي مثل هذه المدة الطويلة.  
تصبحين على خير يا أولريكه.

فايمر، تحريراً في 10 أكتوبر 1823

عزيزتي أولريكه،

بالأمس جاءوا إليّ بعد عرض أوبرا «القناص». جلسنا نتناول الطعام معاً، وقمت بنفسي بتقطيع اللحم المحمر. أوتيليا

- التي قامت من تحجرها - وقفت بجانبى ناظرةً إلي أثناء التقطيع، وكأن عليها أن تراقب ما إذا كنت أفعل كل شيء على النحو الصحيح. ثم امتدحتني بصوت عال، وعال جداً. لا تعرف أبداً القدر المناسب. لفت صوتها انتباه الابن أوغست، فقال لها مباشرة: ليس أبي خادماً من خدمك. «إن من لا يحبني، لا يستطيع أن يحكم عليّ». هكذا أنهت آيدله شوبنهاور هذا السجال القصير على نحو ملتبس، مقتبسةً جملة مما كتبه يوماً. بالمناسبة، هذا إنجاز آخر من إنجازات قيادتي للحرب الدائرة الآن: عندما أُدعى إلى الأوبرا أعلن بابتهاج قبولي الدعوة، ثم في اللحظة الأخيرة أقول إنني أشعر بوعكة. لو رفضتُ على الفور سيتوجب علي التذرع بالحجج لكي أخفي أنني لم أعد أطيق الموسيقى من دون أولريكه. لا بد إذاً من اتباع تكتيك الرفض على أقسا. أطلقتُ على الشابات تسمية «أرانب برية»، وهو ما أثار سرور الجميع. لقد أحكمت سيطرتي عليهن إلى حد أن عيونهن لم تعد تبحث عن آثار أولريكه في ما أفعله أو أقوله، باستثناء أوتيليا بالطبع. جلسنا إذاً وتناولنا الطعام، ومعنا نيكولوفوس، وهو فتى رقيق الحس ويستحق التشجيع. وماذا حدث؟ استدارت الشابات مثل زهور عباد الشمس ناحية الشاب الساحر. لم يبق لي سوى ظهورهن. كانت أوتيليا أيضاً هي التي فعلت كل ما في وسعها حتى يظل نيكولوفوس الفتى في مركز الاهتمام. شعرتُ بأنها أرادت أن تستعرض أمامي أنني لا أثير اهتمام أحد بمجرد أن يلوح شاب في الأفق. هذا ما أفسد عليّ الأمسية، عزيزتي أولريكه. ولكن



أحداً لم يلاحظ ذلك. هذا ما جعلني فخوراً من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يعد أحد يلتفت إليّ بنظرة، لأن الشاب نيكولوفوس الرائع، وبتوجيهات أوتيليا، كان يستحق بالفعل كل الاهتمام. انسحب رب البيت إذاً من الوليمة واختبأ في غرفته. حضر شتادلمان وأشعل لي خمس شموع حتى أستطيع القراءة. يعرف شتادلمان أي الآثام يرتكبها سيده عندما يختفي عن الأنظار. السيد يقرأ، غير أنه يقرأ المراثية. لا يقرأها مرة أو مرتين، بل يقرأ وبكل دقة مرات ومرات لا تُحصى. عزيزتي أولريكه، اسمحي لي بأن أستخدم الضمير الغائب في الكتابة. إنني محتاج إليه حتى أصل إلى كينونتي. ما أكتبه أنا إليك يختلف عما يكتبه هو إليك. ليس هناك أي ذرة تردد داخلي عندما أختار بين الأنا والهو. منذ أشجار الجوز في «فرتر» وأنت تعرفين من أنا. هو ليس إلا واجهة. يأمل المرء أن تكشف هذه الواجهة عن الباطن. أنا اعترف متجسد بأن الواجهة لا تفيد شيئاً. منذ السابع عشر حتى السابع والعشرين من سبتمبر كتب هو المراثية ونقحها، ثم نقلها بخط جميل على أفضل ورق استطاع يون أن يقتنيه. لم يفكر ثانية واحدة في أن يسمح ليون بأن ينقل المراثية بخط يده. هنالك شيء آخر: لم يعرض المراثية على إنسان حتى اليوم. بالطبع يشعر الآن بأنه تصرف تصرفاً غير ناضج بعض الشيء عندما راح يقرأ المراثية في غرفته وكأنه يرتكب إثماً، عالماً أن عليه أن يمنع نفسه عن الإتيان بأشياء كهذه. غير أنه شعر بحيوية كافية جعلته يقول: لم يتحتم عليك أن تمنع نفسك عن شيء ينعش الروح؟ رويداً رويداً

حفظ المراثية عن ظهر قلب تقريباً. لكن ذلك لم يجعله يمر على النص بعينه مرور الكرام. كان يقرأ كل بيت بالعين والروح. بالجسد والروح. والآن يا أولريكه أعود إلى ضمير المتكلم وأعترف: ما أكثر ما تحدثت عن أسباب ما نشرته على الناس. مدارس عديدة تبحث عن خلاصها في اعترافاتي التي تقول بأن في مقدور الإنسان أن يتغلب بالكتابة على كل ما قد يقتل الإنسان لو لم يكتب. حدث ذلك منذ فرتري. والآن، عزيزتي أولريكه! كتبتُ المراثية. لأول مرة لا يفيدني أن أكون كتبت شيئاً. لا يفيد سوى فعل الكتابة. ولكن من أنا بدون المراثية! إنها تتهجي حنيني إليك حرفاً حرفاً. فخورة هي. فخورة بذاتها. أريد أن أنهل من هذا الفخر. أريد أن أغدو كالمراثية ومتماسكاً مثلها. المراثية لك. لنا. قبل أن تحصلي عليها، لن يقرأها أحد. ليس لها وجود، هذه المراثية، طالما أنك غير موجودة. إذاً، فأنا أيضاً غير موجود. اسمعي كيف تصطك الروح كما تصطك الأسنان. أكتبها الآن لك هذه المراثية، وهذه الرسالة سأرسلها! حتى لو تحتم على شتادلمان أن ينقلها إلى كالا أو بوسنيك. ها هي يا أولريكه مراثية مارينباد:

ماذا آمل من اللقاء الآن؟

من زهرة يوم لا تزال مُقفلة؟

الفردوس والجحيم مفتوحان أمامك،

أي اضطراب يهيج في أعماقك!

دع الشك وانظر! إنها تدنو من أبواب السماء،  
وإلى ذراعيها ترفعك .

هكذا استقبلك الفردوس،  
وكأنك جدير بحياةٍ أبديةٍ الجمالِ؛  
لُبيّت كل أمانيك وآمالك ورغباتك،  
ألم تكن تصبو من أعماقك إلى هنا؟  
وحين رأيتَ الجمال النادر  
نضبت على الفور دموع الشوق في المآقي .

يا للنهار الذي طار على أجنحة السرعة  
كأنه يسوط الدقائق سوطاً!  
قبلة المساء، عهد الوفاء الأكيد:  
سيبقى حتى شروق الشمس من جديد .  
الساعات تشابهت في التجوال العذب  
كأنها أخوات، وإن لم تكن واحدة تماثل الأخرى .

القبلة الأخيرة حلاوتها مرعبة باترة  
تضافرُ رائعٌ لصبابات متعانقة  
القدم تهول، تتوقف وتتفادى الدخول،

كأن شاروبيم يدفعها باللهيب،  
العين تحملق ضَجْرَةً على الدرب الكئيب،  
ناظرةً إلى الوراء - لكن البوابة منغلقة.

والآن، منغلقةً على ذاته، يبدو هذا القلب  
كأنه لم يفتح أبداً ساعات عذبة،  
تبارى فيها مع كل نجمة في السماء،  
مضياً إلى جانبها.

سخطٌ وندمٌ وتأنيبٌ وهمومٌ جسيمة  
تثقل عليك الآن في هذه الأجواء الخانقة.

ألم يظل العالم كما هو؟ وجدراً الصخور  
ألم تعد متوجة بالظلال القدسية؟  
ألا تنضج الثمار؟ والحقل الأخضر  
ألا يمتد منسبطاً على النهر بين الشجيرات والحشائش؟  
والعظمة اللاأرضية ألا تتكور  
غنيةً بالأشكال؟ ألن تغدو عما قريب من غير شكل؟

يا للخفة، يا للرقّة الممزوجة بالنعومة والصفاء  
تحوم كأنها سيرافيم من كورال الغيوم المتجهمة

كأنها هي، في الأثير الأزرق هناك،  
كيان رشيق، يرتفع من شذى مشرق،  
هكذا رأيتها تتمايل في رقصة بهيجة  
هي الأعذب بين أعذب الكائنات .

للحظات فحسب تتمالك نفسك،  
وتمسك بكائن أثيري بدلاً عنها.  
عُد إلى القلب، فالأفضل لك أن تجدها هناك،  
هناك تتحرك في أشكال متبدلة،  
الواحدة تتشكل في صورة عديدات،  
بالآلاف، كل صورة أكثر عذوبة من أختها.

تريثت عند البوابة وكأنها تستقبلني،  
ومن هناك غمرتني سعادة في كل درجة ارتقيناها،  
حتى بعد القبلة الأخيرة أسرع  
وطبعت على شفتي قبلة الختام،  
هكذا صافية حية تبقى صورة الحبيبة،  
بخط من لهيب انحفر في القلب الوفي .

القلب الثابت كسور عالٍ منيع  
لها حفظ نفسه، وهي في صدره محفوظة،

لأجلها يفرح بعمره المديد،  
لا يعرف ذاته إلا حينما له تتجلى،  
في تلك الحواجز المحبوبة يشعر بالحرية  
قلبه يستمر في الخفقان، كي يشكرها على كل شيء.

القدرة على الحب، الاحتياج  
أمحى واختفى حين نال تجاوباً  
وعلى الفور استيقظ في داخلك الأمل،  
ووجدت الرغبة في نسج الخطط البهيجة، في الحسم  
والفعل.

إذا كان الحب يلهب حماسة المحب  
فحماستي قد توهجت في ألطف شكل

من خلالها! - كم جثم القلق  
على الروح والجسم. ثقل كربه  
من كل صوب تحاصر النظرة صورُ الرعب  
في قفر القلب الخاوي الثقيل.  
الآن يبزغ الأمل من مكان أليف  
وهي تلوح في بهاء شمس ودیعة

سلام الله الذي يبهجكم  
أكثر من العقل في هذي الحياة الدنيا - هكذا نقرأ -  
أقارنه بسلام الحب المفرح  
في حضور الكائن الأحب إلى قلبي  
هنا القلب يستريح، لا شيء يقوى على المساس  
بأعمق المعاني: معنى الانتماء إليها.

في صفاء صدورنا تموج رغبة،  
أن نهب الذات طواعيةً،  
عرفاناً للأسمى والأنقى والمجهول  
أن نبوح بأسرارنا للذي لا يحيط به اسم،  
نسميه: ورعاً! - هذا العلوّ البهيج  
أكاد أصلُ إليه حين أقف أمامها.

أمام نظرتها: أتريد أن تظهر أمام الشمس؟  
نفسها: نسائم الربيع،  
ما كان دهرًا ثلجياً وصلباً يذوب،  
جموح الذات القابعة في مغاور شتوية  
لا استمراراً لمنفعة ذاتية أو إرادة شخصية  
والكل ينزاح حين هي تحضر.

وكانها تقول: «ساعة بعد ساعة  
ستقدم الحياة نفسها لنا في دعة.  
لم يترك لنا الأمس سوى أخبار مبتسرة،  
الغد؟ ممنوع علينا أن نعرفه.  
وحين أشعر بالوجل لاقتراب المساء،  
تشهدُ الشمس الغاربة ما يدخلُ البهجةَ إلى قلبي.

لذا إفعل مثلي، أنظر، وتأمل مبتهجاً،  
واجه اللحظة! لا تتوان!  
قابلها بسرعة، في رغبة وحياة،  
في الفعل، سواء للبهجة أو الحب  
حيثما كنت، كن كل شيء، في طفولة دائمة،  
هكذا تغدو كل شيء، ولا يفوقك أحد».

ما أسهل الكلام، فكرتُ،  
منحكِ الرب السعادة في كل لحظة  
وكل إنسان يشعر في حضوركِ العذب  
أن القدر اصطفاه للحظات.  
تفزعني فكرة أنني عنك أبتعد،  
ولكن هل يفيدني تعلم هذه الحكمة السامية؟



والآن أنا بعيد! هذه اللحظة  
ما الذي يناسبها؟ لا أعرف!  
على طريق الجمال تقدم لي بعض الخير،  
وهذا يثقل فحسب وعليّ أن أعرض عنه .  
شوق لا يُقهر يدفعني إلى أن أهيم على وجهي  
ما من نصيحة سوى ذرف الدموع من غير نهاية .

تنفجر وتسيل من غير توقف!  
لكنها لا تلتف أبدأ من وهج الجمر داخلي،  
ينهمر الدمع ويتساقط، يمزق صدري تمزيقاً،  
حيث الموت والحياة بضراوة يتصارعان .  
لآلام الجسد أعشاب تهدئه،  
لكن الروح يعوزها العزم،

يعوزها الفهم: كيف له أن يفتقدها؟  
يكرر صورتها آلاف المرات  
تردد في المجيء حيناً، وحيناً تمّحي  
إنها غائمة الآن، ثم حاضرة في أكثر الأشعة بلورية،  
أتى له أن يوهب أشحّ العزاء؟  
المد والجزر، الذهاب كما المجيء؟

اتركوني هنا، يا رفاق الدرب الأوفياء!  
دعوني وحدي عند الصخرة، عند المستنقعات والطحالب،  
هيا! العالم لكم!  
الأرض واسعة، والسماء رحبة وسامقة.  
تأملوا وابحثوا وتعمقوا،  
واكتنوها أسرار الطبيعة.

أما أنا فالكون لي، أنا يا من ضاعت ذاته،  
أنا الذي أحبتني الآلهة يوماً.  
اختبرني، ثم أغدقت علي بالبلايا.  
مثقلُ أنا بالخيرات وأكثر ثقلاً بالأخطار،  
دفعني الآلهة إلى الفم المعطاء.  
ثم فصلتني عنك - ودمرتني.

فايمر، في 15 أكتوبر 1823

عزيزتي أولريكة،

أُرسلت المرثية. ثلاثة أشياء لا يقدر المرء على الاحتفاظ بها لنفسه: النار والحب والشعر. لمدة طويلة مثلتُ دور المتحكم في مشاعره! والآن رشوت شتادلمان، وقلت له إنها رشوة. أفقده النطق المبلغ الذي نفحته إياه. عندئذ انحنى كلاعب سيرك. اقترح أن يرسلها من بادبيركا. وهكذا شقت المرثية طريقها إلى العالم. القوة التي دفعتني إلى تجشم مشقة ذلك استمددتها من الضعف الذي اعتراني أمس الأول وطرديني من الغرفة الزرقاء طرداً. ينبغي أن نمنع إطلاق تسميات كهذه على الغرف يا أولريكة. سُميت هذه الغرفة بالزرقاء لأن جدرانها زرقاء. بجانبها الغرفة الصفراء كزهرة أرنیکا يا أولريكة. صممها «ماير الفنون» المتحدر من بحيرة زيورخ، اليائس الأول، الذي أجرى من أجلي تغييرات على المنزل قبل ثلاثين عاماً. درجات هذا المنزل هي الأكثر رحابة في العالم كله، لذا يمشي المرء

عليها ببطء بالغ . هذا الدرج صممه بنفسه قبل أن أعرف عنك شيئاً، غير أنه أضحى لا يذكرني إلا بطريقتك في السير . هذه الخفة التي تسيرين بها، خطواتك دائماً إلى الأمام، حتى عندما تقفين . هذا الدرج لا يقود على نحو عادي من الباحة الخارجية إلى داخل البيت بل يمر في البداية بالفناء . عندما تصلين إذاً بخطواتك الأمامية إلى الدرجة العلوية ستقرئين على العتبة بحروف داكنة محفورة على الخشب الفاتح : لك التحية! أخبرك بذلك الآن لأنني أعرف أنك لا تسيرين أبداً وبصرك على الأرض بل إلى أعلى، حيث أهدافك السامية . سوف تدخلين عندئذ وتتعجبين، وربما سوف تزمين فمك الحيوي القادر على كل شيء عندما ترين رأس الإلهة جونو التي تفوق الحجم الطبيعي، ثم كل تلك التماثيل النصفية: لكاتبك شيلر، ثم لهردر وفينكلمان . قد تتصالحين مع الجمال الفني للمسكن عندما تعرفين أن هناك غرفة زرقاء، أو بالأحرى بنفسجية الزرقة، وهي الأجل بين الغرف . أما ثاني أجمل غرفة، عزيزتي أولريكه، فهي صفراء، صفراء كزهرة أرنیکا .

إذاً، مساء أمس الأول رب البيت ينسحب في هدوء . يمكنهم أن يواصلوا النسيمة الهامسة مرة أخرى : مارينباد، العجوز فرتير . . . يا له من شيخ سافل! والآن أقول لرب البيت إياك أن يتكرر ذلك! عليه أن يكتب ما حدث . سوف يعد قوائم، يعدك بذلك . القائمة رقم واحد: قواعد لتجنب كل شبهة .

1 . لا رفض على أقساط بعد اليوم . المشاركة في كل

حفلة موسيقية. أوتيليا وأوغست يريدان بالطبع أن يقدماه على شرفة مسرح الرأي العام. انظروا: ها هو قد عاد! لقد ساعدناه على النهوض! كان عليه الظهور. عليه أن يلتفت يمنة ويسرة بملامح تقول: لقد تجاوز الأزمة. حتى الموسيقى التي تؤثر في مزاج الإنسان لا تخرجك عن طورك.

2. إذا أبدت مجموعة إعجابها بشاب فعليك أن تفوقهم في إبداء الإعجاب. عليك إغراق الشاب بالمديح. عليك أن تتولى دفعة المديح. من المؤكد أنك ستعقب على كل ما يقوله بأشياء أكثر روعة، وستفوق في ذلك المستشار فون مولر والأستاذ ريمر ومدير قطاع البناء كونرادي وأمثالهم. لن يزعجك أنهم سيسخرون منه عندئذ. العاشق منيع، إلا إذا أصابه سهم الحبيبية. إنه يحيا تحت سماء أخرى. موجود ظاهرياً فحسب. عندما يتحدثون عن الطقس وعن كانط تكون فوضى الحب المقدسة قد ملكت عليه نفسه.

الشاب نيكولوفينوس، الأثر المؤدي إلى دو رور. أعتقد بأنني سأشعر بالراحة إذا اعترفت بضرورة تعاقب الأفكار على ذهني فيما يخصه، وهي أفكار لا يمكن تجنبها. ينبغي عليّ أن أمنح عديم الاسم اسماً. سأطلق عليه «صاحب السرعة الشيطانية». عزيزتي أولريكة، لقد حجبني عني اسم هذا الرجل. بذلك أوقعك في فخ الثقة. وأنت تركت نفسك تقعين. أنت الآن في الفخ. وعلى صاحب السعادة أن يبحث عنك. سافر ذو السرعة الشيطانية إذاً إلى باريس. حتى يُهدي ملكة فرنسا ماسة هي أئمن ماسة موجودة على الأرض. بعد

عدة أيام من حفل الخطوبة - وكنيت قد ذهبت لقطف الزهور مع أخواتك - حكيت لي والدتك ما عرفته عن عديم الاسم من الغراف كليلسبرغ. كلمة «بيع» لا وجود لها في قاموسه. كل قطعة أئمن بكثير مما يطلبه. لذلك - وعن حق - يُطلق على كل عملية بيع صفة «هدية».

أما زلت ترين عينيه أمامك؟ أما أنا فأراها. لا أرى شيئاً في وضوح عينيه. حدقة سوداء تقريباً، تحيط بها دائرة رمادية. هذا شيء لم أره إلا في عيون الطيور. قد نصف الطيور بصفات جميلة ولطيفة، غير أن نظرة الطيور باردة ونافذة. ها أنا أتحدث عنه كما يتحدث الناس عن نابوليون. كان عليّ أن أقول، كي لا أسيء إلى الطيور: هذه الهالة لا نعرفها إلا حول كوكب زُحل الذي هو كوكب المخاطر. طول الشاب 187 سم، هكذا قالت والدتك من دون أن أسأل عن طوله ثم أضافت أن أسفاره لا تنقطع بين باريس وفيينا. لم يكن إذاً توهماً مرضياً من جانبي أن أتخيله يسافر إلى ستراسبورغ ويجد المدرسة الداخلية الفرنسية. شعره القصير النابوليوني، الكثيف والداكن، يمنحه مظهراً عسكرياً جميلاً. لو لم يكن يرتدي بدلة بنفسجية . . .

آه يا عزيزتي أولريكة! من الأفضل أن أغير الموضوع. لقد اشتعلت حباً لك. سرعته شيطانية إلى أقصى حد. ليس لدي أدنى فرصة لو دخلت معه في منافسة. لكنني لن أسمح لنفسني بأن أئمنى ذلك من أجلك. أبواب المستقبل مفتوحة أمامه، لا بل هو المستقبل. إنني أهرب من هذا الطريق المسدود عبر أمنية وحشية: لو كان في الاستطاعة خداع الروح مثلما يمكن خداع

العين. لكي لا تفكري فيه ثانية واحدة بعد الآن. إذا أُجبتِ علي وقلتِ - لا أستطيع أن أدع هذا الوهم - ، قولي جملة أخرى تعقيباً على آخر جملة نطق بها وهو يودعك على نحو متداول ومتملِّك. هذه الجملة ذكرتها لي في مارينباد، عندي في «العنقود الذهبي» بكل ابتهاج، وكأنك لا تأخذين شيئاً بجدية:

Il y a quelque chose dans l'air.<sup>(1)</sup>

هل قال: Je sais qu'il y a ...<sup>(2)</sup>

أم: je pense qu'il y a<sup>(3)</sup>

أم أنه قال: je sens qu'il y a<sup>(4)</sup>

لقد أضاف، إذا كنتُ أتذكر كلامك جيداً: Entre nous il y a<sup>(5)</sup>

أم أنه قال في الختام: Il y a quelque chose dans l'air entre nous<sup>(6)</sup>

أم أن الجملة كلها كانت على النحو التالي:

Je sens, qu'entre nous il y a quelque chose dans l'air<sup>(7)</sup>

(1) هناك شيء ما في الهواء.

(2) أعرف أن هناك ...

(3) أعتقد أن هناك ...

(4) أشعر أن هناك ...

(5) بيننا شيء ...

(6) هناك شيء ما في الهواء بيننا.

(7) أشعر بأن هناك شيئاً ما في الهواء بيننا.

سأكون ممتنا لك حقاً إذا أخبرتني بما قيل بالضبط في مشهد الوداع. أعتقد بأن عليك، أن علينا أن نبنّي توقعاتنا بخصوص ما سيحدث وفقاً لما قيل. إذا عرفتُ منك أنك استطعت قراءة المرثية فأرسل لك ما سأكتبه الليلة. لا أستطيع أن أظل مكتوف الأيدي هكذا. سألتمس العزاء إذاً من لعبتنا المحبوبة وسأكتب رسالة إلى السيدة في المدرسة الداخلية في عصر ما بعد الثورة.

لا يتبقى لي في الختام إلا رجاء مهذب. هل ستتعلم علي صاحبة السمو والسعادة بالرحمة الدائمة؟ هل ستتعطف علي في المستقبل القريب وتفكر بي وهي في دائرة أحب الأقرباء؟ هل ستحين الفرصة وترد علي؟

ملحوظة: أعرف أنني دقيق دقة مضنية. ولكنني سأشعر بأني مُهمل إذا لم أخبرك بما يدور في رأسي عندما أفكر في ذلك الذي لم يعد عديم الاسم. هذا العام، في يونيو، قبل السفر إلى بوهميا السعيدة بفترة ليست بالطويلة، أرسل صاحب السمو يطلب مقابلي. كان عليّ باعتباري خبيراً بالأحجار أن أتفحص قطعاً من الماس. مسيو سوريه، مربّي الأمير في البلاط، وهو عالم طبيعة تربطني به علاقات وثيقة من خلال قناعاتنا المعادية لنظريات نيوتن؛ هذا السيد وجه الدعوة إلى زجل من مسقط رأسه جنيف يعمل كيميائياً وفيزيائياً ومهندساً. أمامنا - أي وشخصي المتواضع والمستشار فون مولر ومدير البناء كودراي - فتح الرجل صندوقاً من خشب الماهوغني حيث كانت قطع ماس رائعة تخلب النظر من كل حجم وشكل



ترقد على مخمل داكن. كان علينا أن نفحص ونختار أما الشراء - إذا نصحننا به - فسيتولاه صاحب السمو والرفعة. أمهلنا السيد القادم من جنيف - الذي يميل بطبيعته إلى التحفظ - وقتاً طويلاً. كلُّ منا نصح بشراء ما استحسنه، قطعتين ربما أو ثلاث. عندئذ أعلن القادم من جنيف: أن لا قطعة من هذا الماس حقيقية. لقد قام بتصنيعها كلها. ثم راح يلفت نظرنا إلى الشوائب التي أصبح بإمكانه الآن أن يزيلها. ولأن ثمن الأحجار لم يصل إلى نصف ثمنها لو كانت حقيقية فقد اشتراها صاحب السمو والرفعة كلها. وعدنا القادم من جنيف أنه سيعود قريباً بقطع أفضل صنعاً. ألا يتحتم عليّ إخبارك بهذا؟ ألا يعني هذا أن المستقبل الزاهر لذلك الرجل الذي «يهدي» قطع الماس قد أصيب في مقتل؟ على كل حال إنني أخبرك بذلك ليس إكراماً له، بل لك. تصبحين على خير.

قد لا أرسل لك هذه الرسائل، وهو ما لا أستطيع تخيله في هذه اللحظة. عموماً أنا لا أستطيع إرسالها لك إلا خلال إقامتك في ستراسبورغ. إن ما يبقيني على قيد الحياة هو أنني أعرف أنك ستقرئين ما أكتبه لك. ولكن، إذا فكرنا في حدوث المستحيل، لو لم تقرئها، أو إذا قرأتها بعد موتي. فالبعض يراقب حياتي هنا وقد ينشر الأخبار عن ذلك أيضاً وإذا قرأت ما يعتريني في النهار وفي المساء عندما أخط لك الرسالة، وهي أيام ليس بها إلا الوحدة، أو إذا شئنا الدقة: ليس بها إلا الشعور بالهجران؛ إذا حدث ذلك، فمن فضلك لا تصدقي ما تقرئينه عني، بل صدقي رسالتي. مرة أخرى، تصبحين على

خير . بالمناسبة : بالأمس وصلني على أفخم أنواع الورق الخبير  
التالي : صديقي كنييل الذي يكبرني بخمس سنوات تزوج ، مرة  
أخرى ، تزوج امرأة تصغره بثلاثة وأربعين عاماً . إني أهنته  
بالطبع ، وأي تهنته . إني أتميز غضباً وحسدأ .

فايمر ، تحريراً في 16 أكتوبر 1823

عزيزتي أولريكه ،

أستعيد على الدوام تلك اللحظات التي كنت مقصراً فيها .  
إني أعتبر من حسن الحظ أن أستطيع استدراك ما قصرت فيه .  
هل تتذكرين قولك لي : تبدو جميلاً . اندهشتُ . وقلت أنتِ :  
اليوم ! أي أن جملتك كانت مزحة . بكلمة اليوم أردت أن  
تقولي : لا تتظاهر بهذه الدهشة الغريبة ، وكأنك لا تعرف أنك  
تبدو في معظم الأحيان في مظهر جيد . إذاً ، أقلل أنا من  
مديحي وأقول : اليوم ، لا تخف ، اليوم فحسب . غير أن  
الجملة الجميلة وقعت على أذني موقعاً مزعجاً . كان ينبغي أن  
تكون إجابتي هكذا - ولكي أعلمك بالإجابة التي أخطأت ولم  
أقلها أكتب إليك الآن : وأنتِ ! هكذا كان عليّ أن أهتف في  
مجون وخفة . وأنتِ ! وأنتِ ! وأنتِ ! إني أجري معك حديثاً  
باطنياً مستمراً . هكذا كان عليّ أن أقول آنذاك أن أقول كم هو

مجهد أن أكبت دوماً ما يريد أن يرى النور. تملكني دائماً الرغبة في أن أضح وأهمل. عزيزتي أولريكه، إن طريقتك اللاموضوعية التي بها تتحدثين أحياناً عن نفسك تؤثر في نفسي وتثير استفزازي معاً. سألخص ما قلته خلال تسعة وأربعين يوماً صيفياً عن مظهرك: الأذنان أكبر من اللازم، الشعر أخف من اللازم، لون العينين غير محدد، الأنف مكسور، الفم أصغر من اللازم. والآن، إليك ما لا حظته أنا ودرسته خلال تسعة وأربعين يوماً صيفياً: الأذنان: ورقتا زهرة ثمرة ثمينة. الفم: على الدوام في خدمة حيوية لا تعرف الكلل. لا يمكن أن يكون أصغر أو أكبر من اللازم لأنه يعمل من أجل ذاته. غير أنه يمثل في حد ذاته تجسيداً لأرق قوة أسطورية ملتزمة. لم يرد أنفك أن يكون مستقيماً وعليك أن تكوني ممتنة له. أما شعرك، يا عزيزتي، فمستقل عنك تماماً، شعرك لا يحتاج إليك، ولكنك أنت بحاجة إليه لأنه يغطي برقة وإنسيابية رأس فتاة مفعمة بأحكام ولدت لتدوم وتلمع كالنجوم. عينك، أوها يا أولريكه، إنهما الحتمية مجسدة. نظرتك لا تقاوم، ولا يستطيع أحد أن يصدّها. كالبحر يأخذ لون عينيك لون السماء. ولكن ما ينقص البحر تستكملينه أنتِ بسلطة اللون المنعكسة من سمائك الباطنية. كفى! أسمعك تصيحين. أقل من ذلك قليلاً سيكون مدعاةً للصدق، هكذا تقولين لأنك تريدين أن تلجمي طبيعتي الجموح. تصبحين على خير، يا نجمي الوليد الساحر.

من فضلك، اجلسي حيثما تريدين. آه، تريدين الرقص وحدك؟ آه، أمامي! لا أحب إلى قلبي من ذلك. أنتِ رأيتِ نور

العالم كراقصة أبدعت الطبيعة في تدريبها. يموج جسمك ويميد أثناء الرقص بدقة ومجازفة. جيدك يقود رأسك من كتف إلى آخر، وسرعان ما تجد يدك طريقها فوق رأسك. عندئذ لا تقوى الموسيقى على التردد فترة أطول. طائر أبيض جميل يقود بجناحيه أوركسترا من الريش. تسيرين وكأنك تخطين فوق مستنقع جميل. ها أنت تتفافزين وكأن الأرض لا تستحق أن تمسها خطواتك الرنانة. بجدية تامة تقلدين كافة أشكال الحركة الإنسانية والحيوانية. تسقطين وترتفعين، لكن ارتفاعك أعلى من سقوطك. بلا مشقة تصلين إلى أعلى الدرج غير المرئي بدرجاته الرنانة كخطواتك. عندئذ تصنعين من كل قدم مضرباً رقيقاً للطلبل، ثم تهزينها على شيء غير مرئي. غير أنه يشرع عبر هزك له في إصدار نغمات. أوركسترا الطيور، ومعظم آلاته وترية، يهبط بنغمات متنهدة في حدة ثم يصعد إلى أعلى الذرى ليهبط من جديد. تُفرد الأجنحة غير أن المايسترو يبقى في مكانه، ومعه كل الطيور. يقول لك مايسترو الطيور: لا نريد العودة. الجمهور - الذي لم يلحظ أحد وجوده حتى الآن - يجاوب المايسترو بحماسة. لا أحد يريد العودة إلى بيته. ثم يطفئ البوّاب الأنوار ويصيح بمرح في القاعة: الصباح رباح. تصبحين على خير إذاً، عزيزتي أولريكة. سيكون من دواعي إحباطي إذا اعتقدت أنك لن تقرئي أبداً ما أكتبه لك، ولك وحدك.

ملحوظة: مرة أخرى أتحدث عن رفع التكليف بيننا. معذرة يا أولريكة. لا أستطيع الذهاب إلى الفراش. منذ أن تعرفت إليك لا يصعب عليّ شيء كالاستغراق في النوم. دائماً

هذه الرغبة المجنونة: ألا أقع في قبضة النوم أبداً. هل عدتُ إلى الطفولة؟ لم لا يريد الصغار النوم يا أولريكه؟ لماذا نحتال عليهم بكل الحيل لا نتزاعهم من حالة اليقظة العبقرية التي لا يشبعون منها؟ لا أعرف. في كل ثانية يستقبل الأطفال آلاف المعلومات. العالم بالنسبة لهم جذاب جاذبية فريدة، وهم ينساقون وراءها بكل الحواس. سيقتاتون على ما يستقبلونه حياةً بأكملها. لكننا نجبر الصغار على نوم لا يجلب لهم سوى الحرمان من الألوان والأصوات. لا، هكذا يصرخون ويرفضون بضراوة الذهاب إلى الفراش. غير أنهم في النهاية يرضخون للنظام الروتيني الذي يضعه البالغون. هل أنا طفل؟ من فضلك، أجيبيني غداً على هذا السؤال. أريد على الأقل أن أشير إلى السبب الذي يجعل الغفو أو النوم أمراً غير مقبول. إنني أسمع نفسي أصرخ الآن تلك الصرخات القصيرة التي صدرت مني للمرة الأولى في الليلة التي أعقبت ظهور عديم الاسم. إنه لأمر مؤثر أن يكون الإنسان وحده في الليل، ثم يسمع تلك الصرخات القصيرة الصغيرة تخرج منه. عندما أكثر من قول: مؤثر، دون أن أستطيع تحديد الأثر، فالسبب هو أنني أريد أن أتجنب أن تشي الكلمات الصغيرة بمشاعر كبيرة. رأسي ساحة قتال، وعلى هذه الساحة أهزم ليلاً ونهاراً. أما سبب الهزيمة الأبدية فهو أنني أسمح لنفسي بالنجاة رغم كل الظروف. إن سبب كل هزيمة هي التبعية التي لا يمكن التخلص منها. الآن يزداد الأمر جدية يا أولريكه. لو لم أمر نفسي برفع التكليف بيننا لما استطعت أن أفسر لك إطلاقاً سبب جدية الأمر. إن تبعيتك

لي أقل من تَبَعِيَّتِي لك . لو كانت تبعيتك لي تماثل تبعيتي لكِ لكنتِ استعرتِ من زميلتين من زملاء الدراسة مفرشين من الكتان، ثم تعقديهما مع مفرشك الكتاني، ثم تربطين المفارش الثلاثة جيداً في قضبان النافذة . لقد ذكرتِ لي غير مرة أنك لن تمارسي أبداً مهنة تميل إلى العمل النظري، فالمهنة العملية فقط هي التي تثير اهتمامك . على اليد أن تعمل أيضاً، هكذا قلتِ . ستربطين إذاً كل مفرش مع الآخر صانعةً منها حبلاً قماشياً ثم تتشبثين به وتهبطين من النافذة، تصاحبك أمنيات زميلاتك المفعمة بالحسد، ثم تهربين . معك من النقود ما يكفي كي تصلي إلى فايَمَر . ولمَ لا تنزلين عند مكتب البريد ثم تمشين خمس دقائق حتى ساحة «فراون بلان»، ثم تلقين بحجر على النافذة فأظهر على الفوز من ورائها أنا الذي أجلس هنا والنوم يجافيني، أنا الذي لا أتحرق إلى شيء مثل تحرقي شوقاً إلى هذا الحجر . عندئذ أراك في الشارع، وعلى الفور سأكون لديك وأعانقك وأقبلك، ثم أصحبك إلى الأعلى، إلى منزلي، إلى الأبد . لماذا لا يحدث هذا بالحرف الواحد، يا عزيزتي أولريكه؟ في رأسي تدور جملة لا أستطيع طردها: في أي وقتٍ قد تغادر ستراسبورغ إلى دريسدن . هناك أسباب كافية للذهاب إلى العائلة فجأة . ومن ستراسبورغ إلى دريسدن يمر الطريق بالقرب من فايَمَر . وإذا لم ينتبه المرء قليلاً فإنه يمر عبر فايَمَر . هنا يمكن أن يستبدل المرء بالخيال المتعبة خيلاً مرتاحة . الإقامة هنا ولو لساعة . إذا خطوت فوق أرض فايَمَر لتتناولي شيئاً منعشاً عند مكتب البريد ثم واصلتِ السفر من دون أن تريني

... هذا شيء لا أستطيع تخيله . ولست بحاجة إلى التفكير فيه . ولكن ماذا إذا سافرت في شأن عائلي مُلح من ستراسبورغ إلى فايمر؟ ما يعقب الآن ليس لوماً، بل هو تحديدُ لسبب تحتمه قوانين الطبيعة وتباركه المجتمعات منذ آلاف السنين .  
تبعيتك لي أقل من تبعيتي لك . عندما تقرأين هذه الرسالة - أمل أن يحدث ذلك قريباً - فلتتذكري متى وكم مرة ولأي مدة فكرت في مساء السادس عشر من أكتوبر إلى - لنقل - الساعة الثالثة من فجر يوم السابع عشر من أكتوبر، وبغض النظر تماماً عن نوعية تفكيرك بي . ربما تتذكرين أنك نبهتني في القاعة الكبرى أثناء حفل خطوبة د . ريباين إلى أنني ألف منديلي عندما أكون عصيباً، ثم أمسك بهذه اللفة في يسراي، وأجذب طرفها باليمنى مرةً من الطرف الأيمن ومرةً من الأيسر، ولكن دون أن أسحبها تماماً من يسراي . ماذا أعني بكل ذلك؟ سيساعدني أن أعرف كم مرة تفكرين بي، وأي شيء يدور في رأسك عندما تفكرين بي . الساعة الآن بالفعل الثالثة فجراً . سأستلقي، وسأترك ضوء المكتب مشتعلاً . سأحملك في السقف وأفكر فيك . في الغد سأعد قائمة بكل الأشياء التي قد تمثل خطراً عليّ . داخلي وحواليّ قائمة بكل ما عليّ تجنبه . تصبحين على خير يا حبيبتى .

ملحوظة: سيكفيني إذا كتبتِ التالي: إن والدتي، التي تفكر دوماً في كل شيء، تكتب لك بين الحين والآخر يا صاحب السعادة . ستكتب لك أن عليك ألا تكتب لي . لديها خطة . لذا اكتب لي في السر .

قائمة الاحتياط والحذر. ما المواقف التي تمثل خطورة لأنها تثير نوبات أو أزمات؟:

النظر من النافذة يستدعي نافذة «العنقود الذهبي». الإمساك بالكأس في اليد يُذكر بالتنزه في منتجع مارينباد. ذكر اسم نابوليون. ذكر ترجمة القصائد. كلمة «الاسم الأول». وكذلك الكلمات: قصر، نبع، كرويتس، شوكولاته. تجنب أن تقول إن رحلات التنزه تثير الملل حتى لا يلاحظ أحد أنني أفتقد شخصاً لا أشعر معه بالملل.

معرفة مواعيد قرع أجراس الكنائس مسبقاً حتى لا تصيبك نوبة شوق تجعلك ترتعش ارتعاشاً. دوماً في السادسة كنت أعود من طريق التنزه ما زلت على الشرفة، ثم فجأة تُقرع أجراس الكنائس فترى بعضنا بعضاً، صامتين. طالما الأجراس تدق. عند زخات المطر المفاجئة حذارٍ من التفكير في أنكما تعرضتما مرتين، على الطريق من نبع «كرويتس» إلى قصر كليلسبرغ في مارينباد، لزخات المطر إلى درجة أن ملابسكما كانت عند الوصول تقطر ماءً.

عند الحديث عن الرقص إياك أن تكظم غيظك وتنتقد الرقصات التي تراها لأن أولريكه ترقص أفضل من كل الراقصات اللواتي تراهن.

احذر من أي حكم تصدره حول اللون الأزرق.



إياك أن تبدأ جملة أمام يوليا فون إغلوفشتاين بالكلمات  
التالية: لو كنتِ ابنتي . . .

الحذر ثم الحذر عندما يقول شخص إن أحداً توقف في  
فايمر في طريقه من دريسدن إلى باريس، كما فعل مؤخراً  
الموسيقيار ليسرف .

الحذر ثم الحذر عند الحديث عن الموسيقى وعمّا إذا  
كانت تشفي المواجه الروحية أم تزيد الألم . قبل أمس فعلت  
العكس تماماً، عندما توجهت بالشكر إلى مدام تشيمانوفسكا  
على الكونسير العظيم الذي عزفته على البيانو، ووصفته بأنه  
شفاء لمواجه الروح . عندئذ تبادلت أوتيليا نظرات ذات معنى  
مع أوغست .

بالأمس ارتكبت خطأ محرراً على العشاء عندما هتفت  
السيدة الوالدة إغلوفشتاين: لنشرب نخب هذه الذكرى . قالتها  
السيدة من دون أن تقصد شيئاً . غير أن غضبي انفجر بسبب  
كلمة «ذكرى» . وكأننا ننسى شيئاً! أليس كل شيء داخلنا؟ ألا  
نستبطن كل ما يمر؟ يا لها من كلمة حمقاء: الذكرى! وشت  
نوبة غضبي بكل ما حاولت أن أخفيه بعناية . تبادل الجميع  
النظرات .

كن متحفظاً كل التحفظ عند الحديث عن الحلي . لا  
تهاجمها ولا تدافع عنها . مرت لحظة خطيرة مؤخراً . قرأ الشاعر  
الشاب بلاتن فقرة من «سنوات التجول»: المسافر ذو الاسم  
المستعار . أعجبتة الفقرة بالرغم من أن شيئاً كهذا لا يحدث في  
الواقع أبداً . لم أستطع أن أتحاشى التفكير في عديم الاسم

الأول، مع أن لا علاقة له بالأمر مطلقاً. المستشار فون مولر كان الوحيد الذي ربما يكون قد خمن شيئاً. أما الآخرون فقد استولى عليهم التعجب.

بمجرد أن يبدأ أحد الحديث عن المطروقات النحاسية عليك الابتعاد فوراً عن المكان، لأن والدته أولريكة كانت قد قالت بكل وضوح إن أجمل شيء في نظرها هو عندما تقف أولريكة بجانبها وتتفرج معاً على مطروقات نحاسية من عصر رافائيل.

بالأمس قال ريمر: أن تكون متأكداً من حدوث شيء ثم تستعد له، هذا أمر فوق طاقة الإنسان. كانت الكلمة موجهة ضدي. حاولت أوتيليا على الفور أن تستدرجني. تحاشيتها. ليس الإنسان بهذه البساطة. الإيمان يقود خطواتنا أكثر من المعرفة. زمت أوتيليا بفمها الضئيل حد الانعدام.

إنه لأمر خطير: عندما يحط الضباب فوق هامات أشجار الغابة كما حدث في مارينباد بعد ليالي المطر. كيف لا أتذكر أنني قلت لأولريكة: وكأن ذؤابات أشجار التنوب تسكر من بحر الضباب. لم تسمع أولريكة في حياتها كلمة «ذؤابات» من قبل. كنتُ توقعت ذلك. عليّ الحذر إذاً عندما يحط الضباب بعد ليالي المطر.

احذر من إظهار الاشمئزاز من ثنائيات المحبين.

عندما ترد كلمة «وسادة» عليك بكل قوتك تبديد ذكرى عصر ذلك اليوم، تلك الذكرى التي تكتسحك بمجرد سماع الكلمة: جلوسها على الأريكة، وكيف امتدت ذراعها اليسرى

في الهواء بحركة واسعة لا ضرورة لها، ثم هبطت على الوسادة الكبيرة الصفراء .

احذر من الفم! في كل مرة أمر أمام مرآة أرى فمي متشنجاً. زاوية الفم اليسرى ممتعضة. شفتي تتحرك بانتظام. لا بد من أن تسترخي منطقة الفم كلها. لا شيء يتعارض مع المظهر النبيل المتسامي مثل هذا الفم المعوج ناحية اليسار.

عليك بالاحذر عندما يصل خبر له علاقة بالزواج! انظر ثلاث مرات حتى لا تمر بموقف محرج كما حدث لك مع كنيبل! ليس كنيبل الذي يكبرني بخمسة أعوام هو الذي تزوج، بل ابنه!!!

فايمر، 19 أكتوبر 1823

عزيزتي أولريكة،

رجل عاشق.

عندما سرنا معاً في حميمية قطفت لك من مروج الغابة أزهار الترمس التي كانت في انتظارنا. بين كل الأزهار الزرق والحممر قطفت لك تلك الزهرة الحمراء. أحب حُمرَة أزهار الترمس المتوهجة في قتامة. قبل أن أتمكن من إهدائها لك كنت قد خرجت إلى المروج. عندما تسيرين فوق الحشائش تسيرين بخفة لا تطأ ولا تدهس شيئاً. رحت أتطلع إليك، إلى

انحنائك بخفة، إلى جمالك وأنت تنحنين وتقطفين زهورك المفضلة. ثم عدتِ بباقة الأرنیکا وأفسحت مكاناً في الباقة المزدحمة لتستقبل زهرة الترمس التي أعطيتها لك. اختفت الحمرة القاتمة وسط موجتك الصفراء وضحكنا ضحكة ليست عالية. كانت لنا وجوه الضاحكين عندما سرنا عائدين إلى العالم المسمى كارلسباد.

ماذا في استطاعتي أن أفعل سوى أن أروي ما حدث؟  
أعرفين - ولكن أنى لك أن تعرفي؟ - عليّ أن أكتب لك ما يقوله القس الناطق بلساني التربوي في روايتي «سنوات التعلم»: كل شيء نسبي. سترين يا أولريكة أن بعض العاقلين سيعودون إلى هذه الجملة متأملين فيها، بعد أن ينقضي زمن أتباع المذهب المطلق أو المذاهب الدوغمائية أو القومية أو الهومانية. غير أن الجملة ناقصة، وإن كان ذلك لا ينتقص منها. مَنْ يدرك قصورها عليه أن يتكلم، وإلا كانت الجملة صحيحة أكثر مما هي في الواقع. كل شيء نسبي ما عدا الحب. هذه خبرة يمر بها الإنسان. خبرتي من خلالك. عليك أن تقبلي أن أقولها لك. إنك فريدة، وبفرادتك تملكين عليّ نفسي نهائياً وليلاً. هناك آلاف البنات والنساء، من كافة الأشكال، يضحكن أو يسرن أو يرقصن أو ينظرن. نعم ينظرن، على هذا النحو أو ذاك. هناك نظرات رائعة لفتيات، هناك عيون نساء هي بحار عميقة من الحكايات الأسطورية تنتظر العاصفة كي تُظهر على العالم كنوزها. ربما، ربما، ربما. لكني لا أرى واحدة بينهن تتمتع بالفراة. ربما أكون الوحيد الذي يعيش

فراذتك . لا يمكن تخيل ذلك . ومع ذلك أفكر في الأمر كثيراً .  
إذا كنتُ الوحيد الذي يعيش فراذتك فأنت ، إذًا ، لي . هذا هو  
أجمل تصور أسطوري ، وأكثر التصورات أفلاطونية . كل إنسان  
فريد ، ولكنه فريد في عين إنسان واحد فحسب . أنت هو هذا  
الإنسان في عيني . لستُ بحاجة إلى ذكر صفاتك أو لون  
شعرك . إذا كنتُ الوحيد الذي يعرف فراذتك فلا يتبقى سوى  
السؤال : هل أنا فريد في عينيك؟ كلا ، لستُ كذلك ؛ وإلا كنتِ  
حضرتِ إلى هنا منذ فترة طويلة . وإلا كنتِ كسرتِ الأبواب  
وتسلقتِ الجبال ، في المطر والعواصف ، ضاربة بكل اللوائح  
والتعليمات عرض الحائط . بالرغم من ذلك أنت فريدة في  
عيني . هذا الخلل هو مقياس التعاسة . ولكنني أعرف ما الحب .  
لقد تعجلتُ وكتبتُ في «ديوان الشرق والغرب» عن دخول  
الفردوس . جعلتني الحياة ضيق الأفق . بكلمات طنانة كتبتُ :

كلا! لن تختاري الأدنى!

أعطني راحتك ودعيني

على أناملك الرقيقة

أحصي يوماً بعد يوم : الأبدية

هذا اليقين اللعوب تلاشى من بين يدي الآن . إنني أصب  
اللعنات على تلك الأمانى الثقافية . ولكن المدينة الفاضلة ، هل  
كانت وهماً وسراباً؟ عندما يزداد غيابك ويتكشف من جديد أجد

نفسى مرة أخرى لدى «إلويز الجديدة»<sup>(1)</sup> وما شابهها. أهمس  
لنفسى قائلاً: عند أقدام الحبيبة سيجلس ويكسر عيدان القنب  
اليوم وغداً وبعد الغد، بل كل حياته.  
هل سيفعل؟ قل له: قريباً

الفردوس: لقاء عاشقين. الجحيم: إذا غاب أحدهما.  
عزيزتي أولريكه، إنني أُنقلُ عليك بما لا أستطيع أن أثقل  
به على أولئك المساكين من حولي الذين خدرتهم التقاليد البالية  
المنافية للطبيعة. في كارلسباد، حيث كنا نسير متقاربين على  
طريق التنزه، قال أحدهم مازحاً حين رأنا نمشي متلاصقين:  
إنكما تجربان، ولا شك، الخلود. هذا لغو ثقافي. لك أنتِ،  
أيتها المفكرة التي لا تقلد أحداً، أقول ما خبرته وأدركته بعد  
انتباه: هناك قوى طبيعية تشهد حالات متكررة من المراهقة،  
وهناك أخرى تعيش شبابها مرة واحدة فحسب. ليس هذا امتيازاً  
للفنانين. ليس هبةً من الطبيعة. إنه شيء يُكتسب عبر بذل  
الجهد. وهذا الجهد لا علاقة له بالأخلاق. إنه مثل العضلات  
وقوة الإبصار والسمع والصوت وخفقان القلب. يطلق هوفلاند  
على ذلك «القدرة على الحياة». هذه هي رسالة الحقيقة.

---

(1) رواية لجان جاك روسو، عنوانها الأصلي: Julie ou la Nouvelle Héloïse. نُشرت عام 1761 وكانت من أنجح الروايات في القرن الثامن عشر. وهي تعتمد على الرسائل بين العاشقين إلويز وأبيلا. وربما كانت هذه الرواية أحد المصادر التي ألهمت غوته في روايته «آلام فرتر» التي صدرت عام 1774. (م)

رسالة من أولريكه .

انزلت رسالة أولريكه من يديه . لم يستطع قراءتها حتى النهاية . الرسالة ملقاة أمامه الآن على الأرض . رسالة على ورق أزرق مصقول ذي حواف على شكل مستطيل يمكن الكتابة داخله . ليس مسموحاً له أن ينحني . شتادلمان . جاء فوراً . أشار غوته إلى الرسالة . التقط شتادلمان الرسالة وانصرف بهتذب واضح . كان قد أحضر الرسالة البنفسجية مع بريد اليوم . كثيراً ما أحضر في مارينباد وكارلسباد رسائل بنفسجية . رأى غوته يديه ترتعشان . قلبه يخفق بعنف . لا بد من التنفس المنتظم . لم يتنفس بشكل طبيعي . لم يتنفس إلا بعد فوات الآوان . كان يصارع لالتقاط الأنفاس . ثم يتوقف . إلى أن يلاحظ أنه يكاد يختنق . راح يحاول التنفس قبل أن يتحتم عليه أن يصارع لالتقاط الأنفاس . لم يقدر إلا على التقاط أنفاس قصيرة . أخذ يروح ويجيء . نعم ، أخذ يروح ويجيء . بسرعة . بخطوات متعجلة . كان عليه أن يقرر ما إذا كان باستطاعته أن يقرأ رسالة أولريكه حتى النهاية . قرأ حتى الجملة التي تخبره

فيها أن السيد دو رور سيصل إلى ستراسبورغ يوم الحادي والثلاثين من أكتوبر. بأسلوب أولريكه: جمل قصيرة مقتضبة، دون زخارف. كانت قد كتبت قبل ذلك عن الظروف التي أدت إلى هذه الزيارة. حرص الغراف كليلسبرغ والأم على ألا ينقطع الاتصال بالسيد دو رور. الآن كتب دو رور - إما مباشرة للأمم أو عن طريق السيد وزير المالية - أن لديه مجموعة تخلب اللب من البرازيل. أحجار نفيسة لم تر أوروبا لها مثيلاً من قبل. هل عليه أن يعرضها عليهما في باريس أم فيينا أم دريسدن، أم - ولم لا؟ - في ستراسبورغ؟ الأم والغراف كليلسبرغ، أو كلاهما، ربما كلاهما، يقولان: ستراسبورغ. بعد ذلك تم إخبار أولريكه بالقرار. بالتأكيد لن تعارض في لقاء قريب. السيد دو رور يرسل تحياته القلبية إلى الجميع. وخاصة بالطبع إلى الجمال المسمى أولريكه. لا يزال يأمل في أن يوظف في نفس أولريكه رغبة اقتناء الحلبي. إنه لذنب عظيم أن تهمل عنقها الأفرودي وحلمتي الأذنين المكتنزتين . . .

عندئذ وقعت الرسالة من بين يديه. رفع شتادلمان الرسالة، وانتظر ثانية ليقرر ما إذا كان عليه أن يضع الرسالة بين يدي سيده أو على الطاولة، ثم قرر بسرعة أن يضعها على الطاولة. ها هي هناك الآن. أفاده بأن يذرع الغرفة بسرعة ذهاباً وجيئة. عاد يتنفس تنفساً طبيعياً من جديد. هدأ من سرعته. بالرغم من محتوى الرسالة، قال لنفسه عندما كانت لا تزال على الأرض: هذه هي أولريكه. كما كتبت في مارينباد. لغة تخلو من زخارف القول. وها هو السيد قد عاد إلى عنقها



وحلمتي الأذنين . عنقها الأفرودي . وجد غوته هذا الوصف أكثر سخافة من «حلمتي الأذنين المكتنزتين» . بالطبع تكتشف نظرة بائع المجوهرات ما ينقص المرأة . أما ما لا يفهمه السيد ذو السرعة الشيطانية فهو أن أولريكه تعارض التزيّن بالحلي لأن أمها تسير دوماً وكأنها معرض متجول للحلي .

كان لا بد من السير ذهاباً وجيئة . تحتم عليه أن يزيد من سرعته ثانية . تحتم عليه أن يسير بسرعة تجعله ينشغل عن التقاط أنفاسه . وعندما كان يعدو هكذا عرف أيضاً لماذا يقرع قلبه جدران صدره ، ولماذا يضرب النبض عنقه . قلبه حيوان سجين . السجّان هو . بأي ساعة عليه أن يحصي الشواني من اليوم حتى الحادي والثلاثين من أكتوبر؟ اليوم هو الرابع والعشرون من أكتوبر . لن يقرأ الرسالة اليوم حتى نهايتها . مشى إلى المكتب . كان الجزء الثالث من معجم آديلونج للغة الألمانية الفصيحة موضوعاً عليه . دون وعي مد يده إلى الكتاب الضخم السميك ووضع الرسالة تحته . هل يستطيع أن يتنفس الصعداء؟ نعم . تنفس الصعداء . يا للسخافة! لكن الإنسان يحيا على هذه التصورات . كاد يشعر بالراحة لأن الرسالة الآن مدفونة تحت الكتاب الضخم السميك . كاد يشعر بالثأر . المهم هو أن اللون البنفسجي اختفى . من الغرفة . من العالم . لاحظ سخافة أفكاره . أضحى معجم آديلونج الضخم نصباً تذكاريّاً للرسالة أسفله . لم يكن باستطاعته أن يؤكد حضور الرسالة في الغرفة بشكل أوضح من وضعها تحت الكتاب العملاق . ربما لا يُذكر المعجم بشيء إلا بهذه الرسالة البنفسجية . ولكنه ليس الرسالة

البنفسجية. لا يهم بَمَ يُذَكَّر: إذا لم ير الرسالة البنفسجية، سيسهل عليه ألا يقرأها حتى النهاية. إذا تناول الرسالة ثانية، وعثر على الفقرة التي توقف عندها، فسيعيد قراءة غير جملة من تلك الجمل السيئة، أو على الأقل ستقابله كلمات أثناء القراءة الخاطفة، مثل: حلمتي الأذنين المكتنزتين، العنق الأفرودي، الجمال المسمى أولريكة.

قبل أن يستطيع حتى لمس الرسالة، توجب عليه أن يفهم كيف كان بإمكان أولريكة أن تكتب له رسالة كهذه. بداية الرسالة عادية، بل لطيفة. تبدأ الرسالة بداية أخاذة. شرع قلبه يخفق خفقاناً أسرع عندما قرأ وصف أولريكة لمشاعرها أثناء قراءة المراثية. كان هذا نبض القلب المنعش الذي يشعر على الفور بعمق الحياة. شعر بخفة لم يشعر بها من قبل عندما قرأ كيفية قراءتها للمراثية! قرأتها وقرأتها ثم قرأتها إلى أن حفظتها عن ظهر قلب. كتبت أنها لم تقرأ المراثية بعيونها فحسب، بل بكل جسدها. بالقلب والروح قرأتها. شعر بسعادة لم يشعر بها طيلة حياته عندما قرأ ذلك. لم يكن يوماً بمثل هذه الخفة، بمثل هذه الحيوية. قادرٌ هو على ارتقاء كل ذروة. راحت تتلو المراثية - هكذا كتبت - من بدايتها، من منتصفها، من آخرها. كتبت: لا يقدر المرء على قراءة هذه القصيدة. ينبغي أن يحتفل بها. كما يحتفل بالعيد. ليس هناك قصيدة، وليس هناك لغة تمس شغاف القلب وترسم المصير كله مثل هذه القصيدة. رغم ثقل ما يحدث في القصيدة، بل ما يحدث عبر القصيدة، فإن القصيدة تجعله جميلاً. عبر هذه القصيدة يغدو كل ألم جميلاً

إن أسمى ما يمكن أن يحدث للألم هو أن يغدو جميلاً. إنها تحب كل بيت. الأبيات المرححة والحزينة. كلها بالقدر نفسه. إنها تعترف بشعورها بالفخر لأن هذه القصيدة كتبت لها. وتشعر بالفخر لأنها تعرف أن لا أحد، ولا حتى بعد آلاف السنين، سيقدر على فهم هذه القصيدة بهذا العمق مثلها. هي قصيدتها، حياتها، مصيرها، قصيدتها.

بالطبع، كان على قلبه أن يخفق أسرع! كيف لهذه السطور من أولريكه ألا تجعله يحلق فوق كل ذروة. ثم تأتي نقطة التحول: السقوط، الأم في ستراسبورغ. في اليوم التالي سيأتي الغراف. وفي الحادي والثلاثين من أكتوبر السيد دو رور، بسبب الأحجار الكريمة من البرازيل. لو كان يستطيع قراءة الصفحات الأولى من الرسالة دون أن يتمها! مستحيل أن يطلب من شتادلمان. قد تخطئ في أي شيء تفعله الآن. لا يستطيع سوى السير رانحاً غادياً، بأسرع ما يمكن. أو الخروج من الغرفة ركضاً، وإصدار الأمر بتهيئة الخيل للانطلاق. على شتادلمان أن ينطلق بالعربة بسرعة غير مسبوقة. أخرج من هذا البيت الذي يضم هذه الرسالة، حيث يتوقعون منه أن يتقبل كل ما يحدث له. ركض إلى الطاولة. رفع الكتاب. تناول الرسالة. ركض إلى غرفة النوم. شعر على الفور بأن قراره كان صائباً. نادى شتادلمان وقال له: لا إزعاج! ثم ترك نفسه يهوي في الفتية الذي أهده إياه الدوقة إغلوفشتاين، دون أن يخامرته ذلك الاحتجاج في داخله على تسمية «كرسي الجد» الذي كان عليه دوماً أن يتغلب عليه عندما يهرب إلى هذا الفتية. أهدي

له هذا المقعد لدى مولد الحفيد فالتر، ولهذا بقيت تلك التسمية التي لا يحبها. وربما حرصت أوتيليا على أن تبقى هذه التسمية. آه، نعم، يوم 31 أكتوبر، يوم السيد دو رور، هو أيضاً عيد ميلاد أوتيليا الثامن والعشرون. هذا هو الإخراج المسرحي! سيكون يوماً مثيراً، على الأقل ظاهرياً، وطالما بقي خارج نطاق التصور.

أخذ الرسالة. مر بنظره بسرعة على الصفحات الجميلة والمرعبة. ثم وجد الفقرة: يوم الجمعة إذا، 31 أكتوبر. ثم قرأ الرسالة إلى آخرها ووضعها على الفراش. شرع قلبه يدق بعنف مرة أخرى. الروح عضو من أعضاء الجسم. هذا ما عرفه الآن. قد تميكت الروح. أخذت رسالة أولريكة تدور كالدوامة في رأسه. يريد رجل الحلبي الجامح أن يبيع. الأم متشوقة للغاية إلى رؤية الأحجار الكريمة المستوردة من أعالي البحار. تريد أولريكة أن تسأله هذه المرة ما إذا كان مسموحاً لها أن تخبر صديقها غوته باسمه. لن تدخل أبداً غرفته في الفندق. لا تهمها الأحجار البتة. نعم، هي لا تريد إهانة الرجل الجامح، ولكنها لن تصبح زبونة أبداً. هكذا رتبت الأم، وربما يكون دو رور نسي تلك الليلة في الصيف إنه بالتأكيد جموح على الدوام. لينس كما شاء. إذا ذهبت معهم فلا بد من أن تعود إلى المدرسة الداخلية قبل التاسعة مساء. تريد الأم الحصول على إذن خاص، لكن أولريكة لا تريد. ولم؟ سيكون مثيراً بالطبع، إذا ذهبت معهم، أن تعرف ما إذا كان سييوح بالاسم نفسه فيما لو تجاوزا للمرة الثانية منتصف الليل معاً. إذا قالت لغوته

الاسم الأول فسيفهم الآخر على الفور ما تعني . ربما كان له اسم في تلك الليلة ، وفي الليلة التالية سيكون له اسم آخر . قد يفسر ذلك كونه لا يحمل اسماً . وعندما يتزوج يوماً سيبقى اسمه الذي أعطاه لنفسه أمامها في الليلة الأولى . ألعاب أطفال! بالطبع . إنه تاجر مجوهرات . كل شيء عنده هدية ، حتى اسمه . هو مترجم آلاف القصائد . لا يمكن مقارنة واحدة منها ، مجرد واحدة ، بمرثية مارينباد . المرثية يا صاحب السعادة تربطنا معاً ، تحميننا وتوحدنا . إنها تحيا ، ونحن معها . المخلصة أولريكه .

الذهاب إذأ ، والبقاء حتى منتصف الليل ، ودراسة الاسم الجديد لمعرفة ما إذا كان ربما هو الاسم النهائي الذي ستحمله في ربوع أوروبا كالماسة . جلس وظل جالساً فترة طويلة . تصاعدت دقات القلب إلى العنق : على ما يبدو يتحتم عليه ألا يتنفس . اضطراب قلبه لا يسمح له بالتفكير في شيء آخر إلا في اضطراب قلبه . التنفس . لا يطلب أكثر من هذا . راح يقطع الغرفة الآن ذهاباً وجيئة . لا يمكن الوصول إلى النافذة . ليس إلا جسد منهار . ما أبعد التنفس . ثم تلك الرغبة في جعل النَّفْس التالي ممكناً . أن يتلاشى ارتعاش اليدين . تسري الارتعاشة في كل العروق ثم تتلاشى . تُمسي تعباً مؤلماً . هذا التعب يعوق أي حركة . عليك أن تجلس إلى الأبد وتنتظر أن يمر هذا التعب المؤلم عبر العروق إلى أن يتلاشى . لم تكن ذراعاك بهذا الثقل يوماً ، ولا رأسك . لم تشعر أبداً بهذا الثقل .

نادى شتادلمان عندما أرخى الليل سدوله ، وقال له بصوت

خافت تماماً أن يحضر له بيرة «كوستريتسر». سأله شتادلمان: من النوع الفاتح أم الداكن؟ من كليهما، أجب. كمية كبيرة وشطائر كبيرة الحجم. عليه أن يضع ذلك كله فوق المائدة. ولا إزعاج! أوما شتادلمان برأسه. كان غوته يود أن يقول: كمية كبيرة جداً، ولكن ذلك كان سيفضح مشاعره. كان شتادلمان سيذيع الخبر ربما بعد أن يسأله الآخرون عن ذلك. وستسمح أوتيليا لنفسها بأن تستنتج ما يحلو لها، وكذلك سيفعل أوغست. على الإنسان ألا يقرأ هذه القصيدة. عليه أن يحتفل بها كما يحتفل بالعيد. ولكن، العنق الأفرودي! حلمتا الأذنين المكتنزتين. الجمال المسمى أولريكه.

الجمعة، 31 أكتوبر 1823

هكذا تم إعلان يوم الإعدام. فالطبيب البارح يمكنه أن يحدد مسبقاً يوم الوفاة. كان لدى غوته أسبوع لتهيئة نفسه. جلس وانتظر مهيض الجناح. الانتظار، هذا ما فعله منذ عودته. كان يعرف تماماً أنها لن ترسل له شيئاً كان يعرف ذلك أكثر من معرفته بأي شيء آخر. غير أنه كان يعلم منذ أمد بعيد أن العلم وحده لا يفيد بشيء. إذا كنا محكومين بالإيمان. من الممكن أن نقول: إذا أصابتنا لعنة الإيمان. ما الإيمان؟ إنه القلق الخالص. الأمل الدائم في إمكانية حدوث شيء. أي: الإحباط الدائم، التدمير الكامل واللعبة نفسها مع الأمل. منذ

أسابيع وهو يأمل أن تجيء. بعد كارلسباد سافرت العائلة إلى دريسدن. ل ت ف م ا د ا<sup>(1)</sup>، ثم إلى ستراسبورغ. ألا تمر طريقها عبر فايمر؟ لا خبر. إذاً فهي لم تمر بفايمر. ظل يأمل في أن تمر بفايمر عند رجوعها إلى المدرسة الداخلية إلى أن جاءته بطاقتها من ستراسبورغ تخبره بوصولها. لم تمر بفايمر إذاً. في كل يوم كان يأمل في أنها ستتجشم بالطبع مشقة الطريق من مكتب البريد إليه، إنها ستمر عبر البوابة المفتوحة، ستنادي، ستناديه، ويسمعه. بتينا فون أرنيش، تلك الشحرة المفعمة بالأفكار المجنونة، دخلت عليه أكثر من مرة دون سابق إنذار. كانت مزعجة. هذا هو القانون الذي يعلو فوق كل القوانين. المزعجون يأتون من دون سابق إنذار لأنهم لعنة. أما الذين يشاق الإنسان إليهم فلا يأتون.

درب نفسه على أن يفكر في غيابها ويعيشه كنوع من الحضور. حرر فكره من كل ما قد يبدو متناقضاً. كانت حاضرة في كل ثانية من غيابها. عاقبة ذلك هي إضعاف ثواني الحاضر التي يعيشها. كل ما فعله أو شارك فيه في الأسابيع التي أعقبت عودته كان يفعله أو يشارك فيه ظاهرياً فحسب، يفعله أو يشارك فيه واعياً أن أولريكه غائبة، وأن حضورها وحده هو الذي سيجعل ما يفعله أو يشارك فيه حقيقياً لا ظاهرياً. كل شيء كان بديلاً، لا يزيد المُستبدل إلا حضوراً: أولريكه. إنه الحضور السلبي، إذا شئنا الدقة.

(1) أي: لا تغيير في محل الإقامة من دون إخطار. (م)

استيقظ يوم الجمعة، الحادي والثلاثين من أكتوبر، على الصرخات القصيرة التي صدرت في ما يبدو عنه خلال النوم. بمجرد استيقاظه أغلق على الفور عينيه. في مارينباد كان يقفز كل صباح من الفراش. كان يقوم بتمريناته الرياضية، بل وكان يغني. اعترف لنفسه بأنه يمجد مارينباد ويحيطها بهالة من القدسية. ماذا في استطاعته غير ذلك؟ مَنْ لا حاضر له يتحتم عليه أن يمجد الماضي. هل يلعنه؟ ليس بعد. على كل حال شعر بالراحة عندما أغلق عينيه. فتحهما للحظة فأحس أن الرؤية تؤلمه. أغلق عينيك، وستشعر على الفور بالراحة، لأنه لا يتحتم عليك أن ترى شيئاً. حتى غرفة نومه التي اعتاد رؤيتها منذ عقود لم تعد له. إنها تنتمي إلى عالم الرؤية. أسوأ ما يمكن أن يتصوره أن يرى الناس. كان يعلم أن عليه مقاومة إغراء أن يبقى راقداً. لم تكن هذه هي المرة الأولى. الأمر في غاية البساطة: لو أنه يعرف متى سيرى أولريكه لما تحتم عليه أن يظل راقداً، ولما كانت رؤية العالم تسبب له هذا الألم. نهض بالرغم من ذلك، دون أمل في رؤية أولريكه. على العكس. يوم 31 أكتوبر هو اليوم الذي سيدخل تاريخه. كيف؟ لا يعلم بعد.

نادى شتادلمان كي يساعده على أن يبدأ يومه. ماذا قال شيلر الذي لا يُضاهى في التعبير عن العادي تعبيراً نفسياً؟ قال: من الوضاعة خُلق الإنسان، والعادة يُطلق عليها القابلة.

لم يعتذر، عمداً، عن الزيارات والأعمال اليوم. على جدول الزيارات كان مسجلاً لاحتساء الشاي معه «السير»



فيلمسن، الكابتن الاسكتلندي الذي قاد كتيبة «دراغون» التي نالت شهرة كبيرة في معركة واترلو. أعلن المستشار فون مولر زيارة «السير» قائلاً إنه يجمع في شخصه بين هرقل وأنطينوس<sup>(1)</sup>. لم يكن فون مولر يعلم بالطبع أن والد أولريكه، فريدريش فون ليفتسو، لقي حتفه في تلك المعركة، وفي يوم جميل من أيام يونيو، كما قالت السيدة فون ليفتسو بصوت حزين. لم تمر على ذلك سوى ثماني سنوات قصار. في برنامج المساء: رباعية للأمير لويس فرديناند. سيكون المستر ستيرلينغ الذي أتى لزيارته في مايو حاملاً إليه تحيات صديقه اللورد بايرون حاضراً انبهرت أوتيليا به. لم تكن تمل من أن تقول لكل إنسان إنها أضحت على الفور عشيقة ذي الثمانية عشر ربيعاً. من أجلها، أو كي يلتمس العذر لها، أطلق غوته على المستر ستيرلينغ في مايو «الشاب العفريت». إنها في الثامنة والعشرين وتعدو وراء شاب في الثامنة عشرة. هل يجعلها هذا تفكر على نحو ألطف وتتقبل الفوارق في العمر؟ لا أثر لذرة من التفهم. كلُّ منا لا يفهم إلا نفسه.

كان يون في انتظاره عندما دخل غرفة المكتب مرتدياً زي الاستقبالات. لاحظ على الفور أنه لن يجيب اليوم على رسالة، ولن يستطيع أن يُملي حرفاً. في تلك اللحظة لم يكن قادراً على

---

(1) هرقل في الميثولوجيا الإغريقية أحد أبناء الإله زيوس، وهو نصف إله ونصف إنسان. أما أنطينوس Antinous (110 - 130) فكان غلاماً جميلاً عشقه القيصر هادريان، ورُفِع بعد وفاته إلى مصاف الآلهة؛ والمقصود هنا أن الزائر يجمع بين القوة والجمال. (م)

التخيل أنه سيذرع الغرفة يوماً جيئةً وذهاباً في مشيته المعهودة، يفكر ويملي كما كان يفعل في الأيام الخوالي. قال للكاتب بنبرة حاول قدر الإمكان ألا تلفت الانتباه: لا شيء اليوم. هذا ما قاله بالحرف الواحد. بتلك الكلمات أخطأت النبرة - التي أرادت ألا تلفت الانتباه - هدفها. لم يحاول يون أن يخفي عجبه. بدلاً من أن ينحني بأدب أمام سيده متمنياً له يوماً سعيداً ظل واقفاً بإصرار، مبدياً رأيه النقدي - وإن باقتضاب - حول سير اليوم. في تلك اللحظة استرجع غوته تاريخ يون معه. عمل في البداية سكرتيراً له. والده أيضاً كان سكرتيره. ولكن منذ أن جاء كرويتز اقتصر عمل يون شيئاً فشيئاً على الكتابة فحسب. كان يُشعر سيده بذلك كلما واتته فرصة وقد واتته الآن. عندما استدار يون عند الباب لينحني الانحناء الأخيرة أمام سيده لوّح له غوته بلطف بالغ، كما لم يفعل منذ وقت طويل. أخيراً أصبح بمفرده. بالتأكيد وصل السيد دو رور الآن إلى ستراسبورغ. وصل بالتأكيد مساء أمس. ربما يتمشى الآن مع أولريكه في الأزقة التي يعرفها غوته جيداً. ربما تقترح عليه أولريكه رحلة إلى زيزنهايم. تحدث غوته معها ذات مرة عن القُبل، معطياً لها لمحة سريعة عن أهم قبلة، لا لشيء إلا ليرهن لها أنها هي العظمى بين مانحات القبل. ليس في ذلك ذرة مبالغة. لم يكن يتحدث بنبرة تعليمية كعادته. لقد اصطحبها معه في أفكاره. تلك الأفكار التي أثارها هي في نفسه: كيف يحدث التقبيل؟ ليس للقبلة علاقة بالشفاه بل بالأشخاص وحدهم. لم توافقه أولريكه على رأيه فحسب بل زادت وقالت

بحيوية: إذا لم تقبل الأرواح بعضها. ماتت الشفاء. آه يا أولريكه، صاح، أو بالأحرى تنهد. على كل حال احتفى بدرجة التوافق بينهما. في عديد من الأحاديث والمواقف كان هذا هو إسهامه: أن يحتفي بالتوافق الذي يعيشانه في تلك اللحظة. عندما فعل ذلك للمرة الأولى قالت أولريكه: ما أشبع الانسجام! إنه مقبرة العواطف. أما التوافق، هكذا أضافت، فهو اللحظة التي يختبر فيها فجأة شخصان، لا تقودهما سوى الفطرة وهما يسرعان في متاهة الأفكار، لقد وصلا إلى بعضهما البعض من دون أن تتشتت أفكارهما. أولريكه، صاح، أولريكه. وهي صاحت: صاحب السعادة، كم هو لطيف منك ألا تلاحظ أنني أقلدك! لكني أعترف بأن هذا يسرني.

والآن هي في زيزنهايم مع السيد دو رور. وفجأة عرف اسم هذا السيد: جوان دو رور. طبعاً، دون جوان دو رور. وفي الليلة التالية سيضحى الشاب بـ«جوان» ويوح لأولريكه باسمه الحقيقي. آدم دو رور. وبهذا الاسم سيطلب يدها عبر راعيه، مستشار البلاط ووزير مالية النمسا فرانتس غراف فون كليلسبرغ تومبورغ الذي سيغدو عما قريب زوج أم أولريكه. بالطبع، لولا أنها تريد تأمين مستقبل البنات الثلاث لوافقت أماليا فون ليفتسو منذ وقت طويل على الزواج. أولريكه دو رور - هذا تأمين باهر للمستقبل. بعد ذلك يأتي دور أماليا وبيرتا. أي خلال عامين أو ثلاثة من الممكن أن تحتفل أخيراً بحفل زفافها. عندئذ ستتزوج أماليا فون ليفتسو زواجاً مجرياً يفيض حياة وصخباً، لا زواجاً وفق التقاليد البروسية الصارمة. ربما

تكون أولريكه الرائعة، هذه الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً، آلة حساب على درجة عالية من الدقة لذلك الشيء الذي يدعونه المستقبل. ينبغي عليها، إذا لم تكن تريد أن تذبذب عانساً بعد تخرجها من المدرسة الداخلية، أن تقتحم ما يُسمى الحياة. وها هو الشرقي المزيف، السنيور ذو السرعة الشيطانية، سيد الماس في العالم كله يأتي شخصياً من باريس وفيينا. يتهمونك بالجنون الشعري. لا بد من أن السيد دو رور مصاب بداء العشق. هذا هو القدر. حلمة أذنها المميزة ستحصل على قطعة رائعة متألثة من حجر السيلان وهي قطعة تتمناها كل أذن في العالم. خذيها، يقول السنيور دو رور. خذي ما كان مملوكاً لك قبل أن يجيء إلى الأرض. لكل شيء في الكون غرض. هذه الجملة يتجلى معناها كأوضح ما يكون على أذنيك. عندما يرى المرء أذنيك يتخلى عن ذاتيته ولا ينساق وراء غضبه. هذا أمر مفهوم. كل هذا يُزرع اليوم ويُحصَد غداً. أما أنا، يا من لم يعد له مستقبل، أنا الذي لم أعد أستطيع سوى إمداد الأرامل بالحلي، فعلي أن أهني أولريكه. مدام دو رور.

Je vous félicite cordialement. <sup>(1)</sup>

لو لم يكن متمتعاً بهذه الصحة! لماذا يتمتع بهذه الصحة؟ لماذا لا يتقلب على الأرض ويصرخ من آلام المرارة أو الكلى. منذ أن سقطت الدوقة لا تسير خطوة واحدة دون آلام مبرحة. آلام مبرحة في أي مكان، المهم أن يتقلب صارخاً حتى يغلق

---

(1) أهنتك من كل قلبي. (م)

الجيران الأبواب والنوافذ ويكتموا صرخاته بالأبسطة حتى يهجر الجيران منازلهم لأنهم لا يتحملون صراخه. أن يبقى وحيداً، صارخاً في هذا العالم. هو وصراخه فقط. هذا الصراخ الذي يشعر به الآن ولا يستطيع إطلاقه لأن الألم ليس سببه حصوات في المرارة أو الكلي بل الروح. الروح عضو من أعضاء الجسم أيضاً. إنها تؤلم. لا يصدر عنها إلا الألم. وقف في منتصف الغرفة. شعر فجأة أن الأرضية ساخنة وتزداد دوماً سخونة. رفع قدماً ثم تحتم عليه أن يرفع الأخرى، ثم القدم الأولى مرة أخرى. الأرضية قطعة من الجمر. لم تعد قدماه تستطيعان أن تتحملا الجمر مدة طويلة. بسرعة أكبر كان عليه أن يقفز من قدم إلى أخرى. أينما قفز كانت الأرضية جمرأ. في كل أنحاء الغرفة، في كل مكان الجمر نفسه. انقطعت أنفاسه من كثرة القفز. بسبب الرعب الذي أصابه في اللحظة الأولى قفز ربما من قدم إلى أخرى بسرعة أكبر من اللازم. كان عليه أن يخفف من سرعته. ربما اعتادت قدماه جمر الأرضية قليلاً. لكنه لم يكن قادراً بأي حال من الأحوال على التوقف. إنها رقصة، قال لنفسه. لو لم يتوقف الجمر عن التوهج سيسقط ويتلظى فوق الجمر. ركض خارجاً، هابطاً إلى غرفة النوم. أنقذته الغرفة مرة أخرى. انخرط في البكاء. شعر بالراحة. سيبقى راقداً.

عندما أنجز برنامج اليوم وجد أنه كان مصيباً عندما ألزم نفسه ببرنامج.

إذا لم يثر شيء اهتمامه كان يستمع وكأنه مهتم بما يُحكى له. فاقه الكابتن الاسكتلندي في عدم الاكتراث. لم يأت إلى

فايمر من أجل غوته، بل من أجل مدام تشيمانوفسكا. لقد سافر إلى بطرسبورغ لأنه اعتقد بأن تشيمانوفسكا تقدم حفلاً موسيقياً هناك، ثم قيل له إنها حالياً في فايمر. إلى فايمر إذاً. ولكن هل من الممكن أن يكون في فايمر من دون أن يحاول رؤية غوته؟ ليست خطيئة ولكنه خطأ أليس كذلك يا صاحب السعادة؟ لم يستطع أن يهدر الفرصة دون أن يستشهد بالجملة التي تتردد في دوائر معينة منذ سنوات، وهي جملة تُنسب إلى فوشيه، وزير شرطة نابوليون. عندما أمر نابوليون بخطف الدوق فون إنغين ثم إطلاق الرصاص عليه قال فوشيه إن ذلك ليس جريمة، لكنه خطأ. أظهر غوته لضيفه أنه يعرف تلك الجملة وأنه يعتبرها مناسبة تماماً لهذه اللحظة. ثم اعترف غوته، ليضيف شيئاً يستطيع أن يتباهى به الزائر عندما يعود إلى بيته: يسعدني أن أكون الاختيار الثاني. إنها تجربة مهمة. إنها من التمارين التي تمنح المرء شرفاً أكبر، كلما كان نصيبها من النجاح أقل. اعتبر الكابتن هذه الجملة من الحكم التي يصل إليها الإنسان عندما يتقدم به العمر. إلى اللقاء إذاً عند تشيمانوفسكا. عندما لم يعد غوته يصغي إلى الكابتن الاسكتلندي، وعندما راح يفكر في والد أولريكه الذي قضى نحبه في واترلو، تحاشى أن يدير الإبهام الأيمن حول الإبهام الأيسر. تحاشى ذلك وهو يفكر في أولريكه. في الأمسية الأخيرة التي أفسدها الغراف تاوفكيرشين بشرته كان يدير أحد الإبهامين حول الآخر. قالت أولريكه له ذلك وهما على الطريق إلى «كوخ ديانا». أولريكه - التي توفي والدها في يوم جميل من أيام يونيو في معركة واترلو - أخذت

تقرأ حزن فترتر حول أشجار الجوز. هل انقضى هذا إلى الأبد؟  
إلى الأبد؟. أواه! في حصن ستراسبورغ، هناك غلبني الحزن  
وسمعتُ عازف البوق يبدأ العزف .

كان عليه قبل الحفل الموسيقي أن يشرب الشاي مع  
أوتيليا. طلبت ذلك بمناسبة عيد ميلادها: أن تكون وهو  
وحدهما. كانت مهتاجة المشاعر وفاقدة السيطرة على نفسها  
على شكل نادر الحدوث. في عيد ميلادها وفي حفلتها  
الموسيقية كانت قد دعت ضيوفاً. أما أوغست فكان في برلين  
يستمتع بوقته هناك. لم تُذكر برلين مرة دون إضافة جملة أن  
الإنسان يستمتع بوقته هناك. أحضرت معها الحفيد فالتر. كان  
فولفغانغ مصاباً بنزلة برد ولم يكن مسموحاً لغوته باستقبال  
المصابين بنزلة برد، حتى أحفاده. أحضر فالتر معه كراسة بها  
رسوم عليه تلوينها. أحضر الألوان أيضاً. يحب غوته حفيده،  
لكنه يكره أن يمثل دور الجد المحب. كان يشعر بأن لدى  
حفيديه الإحساس نفسه. أرادت أوتيليا التوصل إلى اتفاقية  
السلام الكبرى. لقد مرت فترة طويلة وهما يتجنبان بعضهما  
البعض كأنهما أغراب، وكان كلاً منهما يكن مشاعر الكراهية  
للآخر. أوماً غوته برأسه موافقاً. لم يهتم بما تقول. كان يعرف  
ما يتوجب عليه قوله، وكيفية ذلك. لقد عاد. هذا هو بيته! لم  
يفكر يوماً في شيء آخر. ليس مسؤولاً عن كل تلك الشائعات  
التي أطلقتها هذه الكارولينا أو تلك. يشعر بالأسف لأنه سبب  
القلق للعائلة بسبب هذه المجاملة أو تلك. لم يكن ذلك في  
نيحه أبداً! عليها إذاً، من فضلها، أن تسامحه على كل شيء

يمكن أن يكون له علاقة باسم هذه العائلة، . وعلينا ألا نذكر ذلك في ما بعد! هذا هو كل شيء. لم يكن يكذب. تلا هذا النص بكل سرور. ولأنه تلاه بسرور كان النص حقيقياً بشكل من الأشكال. إذا أراد أحد أن يسميه أكذوبة فليفعل. إنه يفضل دوماً أن يقول للآخرين ما يودون سماعه.

عندما نهض وسار ناحية الباب قالت أوتيليا إن عليها - ويؤسفها ذلك - أن تنبهه إلى وقفته. لقد كلفها بملاحظة الأثر الذي يتركه لدى الآخرين. ثم توقفت عن الكلام.

هو: وإذاً؟

قالت: قامتك المنتصبة، التي تفرض على نفسك السير بها، لا تبدو طبيعية. المرء يلاحظ أنك لا تريد الاعتراف بأن جذعك ورأسك وعنقك تميل قليلاً إلى الأمام. أنت تصارع ضد ذلك. بشكل أوضح من اللازم. هكذا أرى. معذرة. لا، أشكرك، قالَ وشدَّ قامته ليسيير باستقامة أكثر مما فعل.

ثم بدأ الحفل الموسيقي. لأنه لم يستطع أن يفهم الموسيقى راح يتطلع إلى الحاضرين، لا سيما لينشن فون إغلوفشتاين. ولكنها لم تكن تصغي كأولريكه. بعد ذلك، أثناء العشاء، حاولت أوتيليا أن تجذب الاهتمام. الشاب العفريت إلى جانبها. ربط شعره الأسود الطويل على شكل ضفيرة خلف رأسه برباط حريري ذهبي ضخمة. بعد ذلك أظهر الاثنان جوهرهما الحقيقي عندما يطلق المرء لهما العنان. انفجار أسود. ما قالته أوتيليا وفعلته، كانت تقوله وتفعله من أجله هو،



أي لتحتفي به . كانت تتفاخر بأنها تترجم «دون جوان» لبايرون .  
غداً ستقرأ فقرة لكل من يريد الاستماع . تشارلس ، صديق  
بايرون ، الشاب ذو الأعوام الثمانية عشر ، هو بالطبع المستمع  
المرغوب . كان بتعليقات لمّاحة يبدي إعجابه بكل شيء .  
ويجمع ما يُلقى أمامه على نحو هزلي جميل . إنه تقليد ساخر ،  
لكن أوتيليا لم تلاحظ ذلك . رأى غوته أوتيليا مجوفة ، فارغة ،  
جامدة المشاعر ومدمنة على إحداث تأثير ، دون قدرة على  
ذلك . أما أوضح شيء : فكان ما تستعرضه على شكل حب  
مزيف ، ولا شيء غير ذلك . ربما كان الحب غريباً عنها . كان  
عليه أن ينصرف . خفق قلبه الذي أراد الانصراف أيضاً . ليس  
بمقدور المرء أن يمنع القلب عن شيء . إنه موجود قبلك .  
أعجب غوته بنفسه لأنه نجح في تحويل قلقه الباطني وتعبه  
وعوّزه إلى وداع لطيف . عندئذ جلس وانهمك في الكتابة :

### رجلٌ عاشق

الآن حان الوقت . كم من مرة عانيت ، بل تظاهرت  
بالمعاناة ، ولكن السيدة بيرليش كانت هي التي تعاني حقاً  
ودوماً . لك أنت قال الرب كيف وماذا تعاني . هكذا كانت  
المرثية . ألق بها طعاماً للنيران . إنها خدعة ثقافية وتزوير حاذق .  
الآن ، حان الوقت . ستقضي الليلة مع الاسم الجديد أو القديم .  
على كل حال مع الاسم النهائي . ستحملة بعدئذ دُرّةً . أخيراً  
تتزين بالحلي . تتزين للأبد . الآن حان الوقت . في هذه اللحظة  
يحين الوقت . يفعلان الآن وفي هذه اللحظة ما لا تستطيع فعله

ما منعوك من فعله، ما منعك العالم كله بالسخرية والاستهزاء  
 من فعله هما يفعلانه الآن، حان الوقت. لم تتخيل ذلك بل لم  
 تستطع التخيل، كأغبي ذبابة تظل تطير وتصطدم بجدار زجاجي  
 شفاف، وتسقط ثم تعاود الطيران، وتصطدم بالجدار الزجاجي  
 المسمى المستحيل. لم تستطع الاعتراف بذلك. إنهما يرقدان  
 بجانب بعضهما البعض، على بعضهما، فوق بعضهما، تحت  
 بعضهما، في بعضهما، نعم في بعضهما البعض يرقدان الآن  
 وفي سورة حب مسعور. الآن، حان الوقت. لم تستطع أن  
 تتخيل، وفجأة تستطيع أن تتخيل ذلك. ينبغي أن تتخيل. لا  
 تستطيع سوى أن تتخيلهما في سورة حبهما المسعور. أخيراً،  
 حان الوقت، الآن. إلى أي قمة سوف تدفعك هذه الوضاعة؟  
 زلزال، زلزال، على طول نهر الراين. ستراسبورغ تتحطم.  
 الكاتدرائية حيث بدأ كل شيء. كل شيء لم يكن شيئاً. كل  
 شيء لم يكن سوى مناوشات وتلاعب وتظاهر وادعاء كاذب  
 دون احتياج، دون إرغام. قدر. ثم هذه وتلك، الأولى  
 والوحيدة. الآن، حان الوقت. ما زالوا يفعلونها في هذه  
 اللحظة. من يتوقف أولاً؟ هما، هناك، أم أنت هنا؟ عليك أن  
 تواصل التدوين إلى أن تعجز. إلى أن يجيء الزلزال.  
 ستراسبورغ، هناك غلبنى الحزن. ستراسبورغ تتحطم. الراين  
 يُغرق ما تبقى منها. دون كارثة لا يمكن تقديم العون لك. فات  
 وقت البكاء. سيأتي وقت اللعنات. يمكنك أن تذرف الدمع  
 ساخناً، أن تسب وتلعن. لا تكثر الوحدة بك باكياً أو لاعناً.  
 ليس للوحدة صدى. ألقِ بالمرثية بعيداً، الوحدة المزيفة، ألقِ

بها إلى النيران، حتى تنطهر من الأكذوبة الثقافية، من المظهر النبيل ومن التظاهر. كفاك خداعاً للآخرين. كفاك تزييفاً للحياة على الورق. الآن، حان الوقت. انفضحت المرثية. ثرثرة لا طائل من ورائها. أكذوبة بلا سيقان. تتظاهر القصيدة بالرقص بينما هي في الحقيقة تعرج. الآن، حان الوقت. لم تبلغ المرثية شيئاً غير الهراء. البكاء دون دموع. كلمات، كلمات، كلمات. الآن، حان الوقت. إنهما الآن مع بعضهما البعض أنت وحدك. كان عليك أن تعرف كل شيء كنت تعرف كل شيء. إنك خادع عظيم للذات. إنك تغوي الآخرين إلى خداع الذات وإلى تجميل البؤس. ثم يحين الوقت. عندئذ تصرخ طالباً الكارثة. والآن جاء دور المرثية. أين أنت وماذا تفعل؟ لا شيء، لا شيء، لا شيء. إنهما يرقدان معاً دون مرثية. الحياة لا تحتاج إلى مرثية. الحياة تحتقر المرثية. الآن، حان الوقت. إلى أين وصل الآن؟ نعم، أريد أن أعرف، أن أرى، أن أسمع، أن أشعر وأن أشم. إلى أين وصلتما الآن، في هذه اللحظة، وفي هذه اللحظة تحديداً؟ إياك أن تحسب أن ما يحدث هناك يعينك. هما لا يستهزان بك. لا يتحدثان عنك، لأنهما لا يعرفان بوجودك. أنت حقاً غير موجود. الآن، حان الوقت. ليس موجوداً إلا الذي يرقد معها في الفراش. في عنفوان يمارس معها أرق أفعال اللامبالاة في العالم. الآن، حان الوقت. الآن ليس هناك سوى أكبر ألم ممكن. وجودي في حد ذاته أكبر ألم ممكن. زاد ضعفي يوماً. قد تفيدني أكذوبة من ستراسبورغ. هل ستكون الأكذوبة أكثر فائدة من الحقيقة؟

الحقيقة هي التالية: تلك التي في ستراسبورغ لا تعرف شيئاً عني. قد أدعوك كما يدعو الإنسان إلهاً ليس له وجود أيضاً. كثيرون استمدوا عوناً من دعائهم له. يشبه وجودك غياب الإله. جربت أن أقاوم بشتى السبل، ثم في لحظة تُظهرين جانباً لم تظهره من قبل. رغباً عني ينقضّ عليّ تصوّر: سأواصل العيش رغم كل الظروف. هذا هو سبب الهزيمة التالية التي سوف تسجلها. لا تتعجب. لن تقرأها. لم تتبق لك سوى قارئة واحدة، أم الشيطان! إنها أرق امرأة في الخليقة البائسة. عشيقة من ضاع منه المستقبل، من يعيش وحده. الذباب الغبي الذي يصطدم بالحائط الزجاجي المسمى المستحيل. يسقط الذباب ثم يعاود الطيران. العالم هراء لا طائل منه. أم الشيطان هي الكائن الوحيد المستعد لأن يتولى فوراً إدارة العالم. أم الشيطان تسخر من المراثيات. المراثيات تدفعها إلى التقيؤ. الآن، حان الوقت. ها أنت تكتب أخيراً إلى مَنْ كان عليك أن تكتب له دوماً: إلى أم الشيطان، أكثر نساء الأرض حناناً. تعيش أم الشيطان على جملة يتيمة. تقول أم الشيطان: جسدي وروحي يعيشان على الجملة التالية: لا شيء يبقى دون أثر! الضمان هو الذي يسعى إليه الخاملون، أولئك الذين صرعتهم ضربات عالم الأخلاق ونخزاته. لو كتبت واحدة إليك الآن بطاقة بنفسجية من منتصف الليل عليها جملة واحدة، بل كلمة واحدة، لا تحمل إلا اسمها وبخط يدها، هذا يكفي. لو تكلف ساعياً يمتطي صهوة جواد تلو الآخر حتى يصل إلى هنا قبل الظهيرة ويسلم البطاقة قبل أن يلقي مصرعه فوق الجواد الرابع، عندئذ . . .

لا، لن أعقد الأمل عليك من جديد. لن أخدع نفسي مرة أخرى. إذا انتظرت مرة ثانية فأنت تستحق أن يُطلق عليك الرصاص، بل أن تُطلقَ على نفسك الرصاص. قل لنفسك: إذا انتظرتها مرة أخرى، أو انتظرت شيئاً آخر منها، فأنت تستحق الموت. تستحق الإعدام. دون جلبة أو ضوضاء، في الغابة ليقتلوك هناك. الآن، حان الوقت. لن يحدث شيء. الآن، حان الوقت. بصورة نهائية. لم أعد أنتظر شيئاً. لستُ سيد نفسي. أعدُ بكل شيء، حتى لا أفي بشيء. أم الشيطان تأخذني إلى أحضانها وتقول: لا تهتم بثررة العالم الذي يريد البرهنة على كل شيء. افعل ما لا يليق، ما لا يفهمه أحد ولا حتى أنت نفسك. وصلت أم الشيطان إلى مستوى عال. إنني أتعجب. إلى مستوى رفيع لا يعرفه هذا العالم، مع أنه في أمس الحاجة إليه. دون أم الشيطان سأكون صعب الاحتمال كما أنا الآن. سوف أتسبب في موتي كما يتسبب مرض من الأمراض في وفاة الإنسان. أنا هو المرض الذي لا شفاء منه. لا تصدق أم الشيطان كلمة واحدة مما أقول. لذلك لم أستطع سوى الكتابة. لا تعرف أم الشيطان الألم. إنها تقول: لا شيء يبقى دون أثر. هذا يكفي. إنها لا تعرف معنى أن يرقد اثنان في ستراسبورغ، دائماً ودائماً في الفراش نفسه. أنا أعرف. أم الشيطان لا تعرف. إنها لا تعرف إلا شيئاً واحداً: لا شيء يبقى دون أثر. لو كان الأثر زلزلاً يضرب ستراسبورغ لرضيت. إذا لم يحدث ذلك فسأبقى هنا ولا أعلم كيف . . . .

فايمر، في 17 ديسمبر 1823

عزيزتي أولريكة،

لا عقد ولا ميثاق مع الذكريات . باستطاعتك أن تتفاوض معها نهاراً وليلاً . يمكنك أن تتفق على ألا تسمح إلا بصور وتصورات غائمة، ضبابية، تأتيك من مناطق أو أزمنة معينة . ستشعر أنه يمكنك أن تتعايش مع هذه الدرجة من الضبابية وعدم الوضوح . وستعتقد أن هذا هو السلام، ثم تلتفت إلى الورا، وينغلق الباب، وتسمع وترى كيف ينغلق الباب في كارلسباد عندما ركضت أولريكة من الغرفة بعد أن وجهت لأمها أكثر الجمل إهانة . كل شيء يحضر بكل الوضوح . كل شيء يُدمي من جديد . الاستراتيجيات التي تستخدمها لتتحاشي الذكريات تنكشف عن كونها خداعاً للذات .

يسعدني أنك كتبت إليّ، وأرجو ألا أكون قد حصلت على رسالتك لا لشيء إلا لأنني ما زلت على قيد الحياة .

إذا سيطر المرض على البدن، فهل يهم كيف أحكمَ سيطرته؟ إنه يبدأ هيناً ولكن في البداية فقط. ليس هناك مرض يصيب الإنسان للمرة الأولى. هذا السعال الخفيف الذي يبدو سهل العلاج، بعد يوم واحد تكون له السطوة. عندئذ لا يفيد سوى الجلوس والقامة منتصبه. كلما كانت القامة مستقيمة صَعُبَ على السعال أن يتسلق لأعلى. مثل حشرة تتسلق في داخلك، وعندما تقبع في الحلق وتبدأ أنت في السعال تهدأ الحشرة. يهزك السعال هزاً. يرجك رجاً. يطوح يديك إلى أعلى، ويلقي برأسك إلى الخلف. لم لا يمزقك تمزيقاً؟ يا لها من عملية عبثية تقوم بها الطبيعة: إطلاق عاصفة من السعال الذي لا يأتي بشيء. سعال جاف وقاطع وحاد. ثم الجلوس بركبتين مضمومتين. سواد الليل حالك. صدرك قطعة من السخونة. درع ساخنة. لا بد من التنفس. لكن الدرع الساخنة لا تتأثر. هكذا كان الحال في صقلية قبل 2000 عام عندما قام الطغاة بحرق أعدائهم في مواسير حديد متوهجة. وضعك أفضل. ثم تبدأ قطرات الماء تنساب منك، تحت الإبطين وعلى الصدر، وسرعان ما تغطي جسمك وتغدو حقلاً شاسعاً به آلاف من الينابيع الضئيلة التي تفجر ماءً ينساب على بدنك هابطاً في جداول صغيرة. بدنك يبكي، أو هكذا تعتقد، لساعتين أو ثلاث ساعات. ثم تتوقف. الضغط على الجرس

---

(1) مرضي ليس في الجسد فحسب. (م)

لاستدعاء شتادلمان الذي يأتي ويجففك. الشعور بالراحة الكاملة. ما يكاد شتادلمان يغادر الغرفة حتى تُحکم الدرع الساخنة قبضتها عليك. ثم تعيد الكرة. كل ليلة ثلاث مرات، أربع مرات. التنفس لاستقبال اليوم. بمجرد أن يحتل الضوء غرفتك يتوقف عرقك الفظيع عن السيلان. لكنك لا تسعل. طالما أن العرق يتفصد منك فأنت لا تسعل. بمجرد أن يتوقف يبدأ السعال الذي يريد أن يمزقك تمزيقاً. لكنه لا يستطيع. لا نتحمل ذلك إلا لأننا نستطيع أن نفكر في شخص ما. أهديك كل ثانية. لستُ وحدي إذأ. الدكتور ريباين يعودني نهاراً وليلاً. الزيارات ممنوعة، إلا زيارات السيد فون هومبولت. من فضلكم، قال استدعى الطبيب فون هومبولت وحذره: لا أحاديث. الكلام يهيج السعال التشنجي. أمرتُ بإحضار المرثية. أعطيتها لهومبولت قائلاً: غداً. لهذا فقط أكتب إليك يا أولريكه. قال هومبولت إنه سيتكلم، أما أنا فغير مسموح لي بالكلام. قرأ المرثية، مرتين في الليل وتعجب، وتعجب، وتعجب. قالها ثلاث مرات. هذه المشاعر الفتية. قوة الروح وقوة الخيال. عنفوان الحياة. قال إنه ليس هناك ما هو أكثر سمواً من شعيرٍ ليس إلا شعوراً خالصاً. قلتُ له إنني لم أطلع إلا إنساناً واحداً على المرثية. أحسبُ أنه تخيل من هو هذا الإنسان. لم يستطع أن يبوح باسمه، ولا أنا استطعت. اللعنة على استعباد التقاليد لنا. عندما رأى هومبولت أن كلامه أنعشني قال للرقيب الأعظم، الدكتور ريباين، إنه يحتاج إلى زيارة من يوافقه في المشاعر. لا تجعلوه يغرق في كآبة فايمر



ورتابتها. بدا كلامه صارماً للغاية. أراد الدكتور ريباين أن يدافع عن نفسه، عندئذ انفجرت نوبة السعال التالية. انتظر هومبولت حتى انقضت، ثم أوضح بإشارة من يده أن عليه أن ينصرف الآن. صافحني قائلاً: قصيدة ربانية. حتى أنت لم تكتب شيئاً أجمل. فقلتُ وقد تحررت من سعالي تماماً: علينا أن نجعل القراء يحدسون عمر الشاعر. ولكن إجابتهم لن تُطبع، أضفتُ، ربما لن تطبع أبداً. عندئذ صاح د. ريباين: لا أستطيع أن أنصرف بعد هذه الجملة. رجوت الطبيب ألا يتدخل، وضممت إلى صدري القصيدة التي أعادها لي، وقلت دون سعة واحدة: أعترف بأنني قرأتها مراراً، ولذلك أحفظها عن ظهر قلب. مضى هومبولت وانقض علي السعال، ثم تدهورت حالتي. هومبولت مرة في اليوم، هذا هو الدواء الشافي. أما أن أجلس أربع عشرة ليلة في الفوتيه بين حمى ولا حمى وفصد الدم حتى لا أعود أستطيع، حتى أصرخ: أعيديوا لي نبع «كرويتس»، أعيديوا لي مارينباد! لكنهم كانوا يصيحون: هذا تحديداً ممنوع. أصرخ: لا أريد إلا هذا. ولن أتناول بعد اليوم دواءً يحوي اليانسون المقيت. أما الشاي من زهور الأرنیکا فسأشربه فوراً. إذا كنت سأموت، فأريد الموت كما أريد. أحدثت كلماتي التأثير المطلوب. أطاعوني. شربت في جرعة واحدة زجاجة من ماء نبع «كرويتس». ثم فنجاناً من شاء الأرنیکا. ونمت في الليلة الأولى. بعد ذلك كنت أشرب يوماً من ماء الينبوع. في ما بعد قالوا لي إن نبأ وفاتي أذيع يوم الأحد، حتى بالفرنسية.

أمل ألا يكون هذا الخبر اللطيف المتعجل قد وصل إلى أولريكه. سمعتُ أن سلوكي أثناء المرض كان لا يُطاق. لم أكن بطلاً. لم أتوقف عن الشكوى. عاملت الدكتور ريباين معاملة سيئة. لم يسمح الطبيب بأن يزورني صديقي صاحب السعادة السيد كارل أوغست. إلى هذه الدرجة كانت حالتي سيئة. غير أنني أرسلت إلى القصر رسولاً بالنبأ التالي: لو أنني كنتُ صاحب السمو الملكي لتجاهلت كل مقاومة وذهبت إلى صديقي. من يعرف، كان من الممكن أن تكون تلك هي المرة الأخيرة. ثم بدأتُ حالتي في التحسن، غير أنني كنتُ معرضاً للنكسة في كل لحظة. في تلك الفترة جاءني تسلتر من برلين أخيراً. أخبروه بالأمر. جاء مسرعاً. ياه، ما زلتُ على قيد الحياة! هكذا صاح. وعبر مرحه وعبر حبه أعادني كليةً إلى الحياة. سمحت له هو أيضاً بأن يقرأ المرثية أثناء الليل. وطلبت منه أن يقرأها عليّ. لبي رغبتني، وبحذر. ثم بجسارة. ثم كان يعاود القراءة بحذر. كان مبهجاً أن أرى كيف تقوده المرثية إلى هذه القراءة. بعد أن قرأها علي للمرة الثالثة - وهو الذي طلب أن يقرأها علي ثلاث مرات - قلتُ له: إنك تجيد القراءة أيها العجوز!

رد قائلاً: إنها قصيدة حب من جمر ودماء، من شجاعة وغضب. ألقيتها جيداً لأنني كنتُ أفكر في حبيبتني في كل بيت.

---

(1) مات فولتير ألمانيا. (م)

من بين قبلاتها المئة، هكذا قالت، لك خمسون. علي أن أخبرك بأنها كانت معك في سكرة حب لم تبلغها من قبل أو بعد.

أشعر بذلك، أقسم. لدي القدرة على ذلك، هكذا قلت. يقولون إنني حالياً لا أريد أن أسمع إلا ما يدغدغ مشاعري. ما عدا ذلك لا يؤثر في.

تساءل تسلتر: وهل هذا صحيح؟

نعم، قلت.

إذاً، فكل شيء على ما يرام يا عزيزي. لا ينبغي علينا أن نكون ضد أنفسنا أيضاً.

مر تسلتر بيده على وجهي. عندما انصرف لم يكن للسعال أو الحمى أو آلام الصدر والكلية أية فرصة.

هذا الداء! مارينباد بالطبع، كارلسباد، آل ليفتسو! قرأت ذلك على كل الوجوه. أخفقت في استعراض زهدي. إنه يعاني إذاً من س أو ص أو ع، وإلا فكيف يمكن تفسير مرضه المفاجئ هكذا بعد 49 يوماً من الراحة ثم الراحة ولا شيء غير الراحة؟ الدكتور ريباين - الذي علمته أن يقرأ فن إطالة الحياة البشرية لدى كريستوف فيلهلم هوفلاند - أراد أن يدخل السرور إلى نفسي بأقوال هوفلاند. أقوال قد تسعد صديقتي المحبة للماكينات. راح د. ريباين يقول بنبرة من يستشهد إن عملية التفكير كما تحدث في الماكينة البشرية عملية عضوية. بهذه الجملة، أضاف، يريد أن يوقظ القدرة على الحياة في داخلي، وهي قدرة عظيمة.

يمكننا أن نتلاقى حول جمل كهذه، عزيزتي أولريكة. أتتذكرين هوفلاندا؟ في ذلك الصيف الذي أفسده المطر كانت هذه اللعبة لعبتنا المفضلة في قاعة القراءة: تلاوة جملة أو بيت شعري ثم التساؤل عن العام الذي ولد فيه صاحب هذه الجملة أو تلك القصيدة. عندئذ قلتُ الجملة التالية: الحياة حلوة! وما الحياة؟ هذه العادة الجميلة واللطيفة الوجود والتأثير. أعلي رغم ذلك أن أفارقك؟ كانت الأم والأخوات في غاية الحيرة. أما أنت فقلت بكل بساطة، وكأنك كنت تتمنين شيئاً أصعب: 1749. تساءلت الأم: هل هذا صحيح يا غوته؟ أوضحت لكم، ليس دون فخر، أن هوفلاندا العظيم صَدَّر كتابه «فن إطالة الحياة البشرية» بهذه الجملة التي اتخذها شعاراً. آه يا أولريكة! عندما أفكر فيك تجتاحني نوبات من الضعف والقوة. لسنوات طويلة كنت فخوراً بتوازني. لكنني فقدته. أعترف بهذه النوبة الفظيعة من الضعف: الرغبة في الفعل.

إذا لم تحصل على كل شيء فبأي قدر سترضى؟ إنك لا تعرف ما هو القدر الذي ستحصل عليه. طبعاً أقل من كل شيء. ولكن ما مقدار هذا «الأقل»؟ ما أقل ما يمكنك أن تقبله دون أن تشعر بأنك سخيّف إلى الحد الذي يجعلها تحجم عن عرضه عليك؟ ليس لديك إلا نفسك. عليك أن تستخدم نفسك في الفعل.

أولريكة، إنني بحاجة الآن إلى طريقتك في قلب العبارات الحكيمة. على الإنسان أن يتجاوز العوائق باعترافه بضرورتها. إنني أعترف إذاً بوجود أن تكوني في ستراسبورغ. أعترف أن

هذا ضروري لك . لكن الاعتراف بحتمية الأمر لا يقلل من إحساسي بعدم القدرة على الوصول إليك . على العكس إنه يزيد من إحساسي بها . من فضلك ، اقلبي هذه الجملة إلى أن تصبح محتملة بالنسبة لي . إنني أمثل هنا دور مَنْ تغلب على كل شيء وتجاوزته بجسارة بطولية، وأحياناً بعاطفية . الأمر يسير سيراً حسناً . ألعب دور الزاهد . أنت تتذكرين : «سنوات التجول» أو «الزاهدون» . أنا لا أكذب . الكوميديا لا تكذب . إنها غير مهتمة بالحقيقة ، هذا هو كل شيء . من ناحية أخرى يقولون لي إنني انفعالي على نحو مَرَضِيّ . لقد تجاهلتِ سؤالِي عما إذا كان سيد الأسماء الأولى قد فكر بشيء أو أحس بشيء أو عرف شيئاً . نعم ، كيف لا أكون إذاً انفعالياً؟ أنا منزل من ورق يدعي أنه حصن حصين . لم يُسَمَح لي معكِ إلا بالقراءة والتفرج على لوحات نحاسية تحت الرقابة . كان هذا كل شيء! .

سألني د . ريباين ما إذا كان علينا أن نعد لرحلة بوهيميا في العام المقبل . قلت له نعم . ولكن هل هذا محتمل؟ لا أستطيع تصور غابات الشربين المحيطة بالمنتجع الجميل بدونك . 450 خطوة قلت إننا سرناها معاً بدءاً من صف الأعمدة حتى ينبوع . اعتقدتُ أنك أصغيت لي بعض الشيء عندما قلتُ إنني لن أستطيع أن أكتب بريشة جديدة - عندما يحضر لي شتادلمان واحدة - إلا لو كانت صورة طبق الأصل من الريشة القديمة . أنا أحكي لك عن الكتابة وعن أنها تدريب على الوفاء . وأنت تحصين خطواتي ، بل وتقولين أيضاً إننا

نحتاج في المتوسط إلى 450 خطوة وأحياناً 430 وأحياناً 470 .  
قلتِ بحدة إن هذا يتوقف تماماً على ما إذا كنتِ توافقين على  
ما أقول أم تعارضينه .

كيف ذلك إذًا؟ أردت أن أعرف .

قلتِ : عندما أعارض أمشي بخطوات أسرع مما إذا كنتِ  
أوافق .

قلتُ : لأنك تعارضيني دوماً فإننا لا نحتاج أبداً إلى أكثر  
من 450 خطوة .

أنتِ : لدي انطباع بأنك لم تلق طيلة حياتك معارضة  
كافية .

عندئذ تحتم علي أن أذكرك بأعداء دراستي عن الألوان .

فقلتِ ناخزة: معذرة يا صاحب السعادة لأنني طيلة لحظة  
بكاملها لم أفكر في دراستك عن الألوان .

صحْتُ وقد انتقلَ إلي مجونك وخفتك : هذا شيء لا  
يمكن قبول العذر فيه .

فقلتِ بلهجة تتظاهر إصدار الأوامر: لنغير الموضوع!

وقلت أنا باللهجة نفسها: جبانة!

كدت تتوقفين عن السير، واستدرتِ إلي قائلة: هذا إذا  
كنتِ تريد أن تجعل مني مدمنة على الخضوع لك .

آه يا كونتريس أولريكه، قلتُ عندئذ .

آه، آه، آه، آه، قلتها أربع مرات، ثم أضفتِ : نستطيع إذًا  
أن نتجنبها اليوم أربع مرات .

كيف لا يسعدني حديث كهذا يا أولريكه؟ لقد كانت تلك  
الفترة أجمل فترة استجمام في حياتي. عدتُ إلى الحياة، كتبتُ  
لتسلتر، الشخص الوحيد الذي أبوح له بكل شيء تقريباً.  
بخصوص دراسة الألوان أضيفُ: أنت الإنسان الوحيد يا  
أولريكه الذي جعلني أبقى مرحاً خلال الحديث عن هذه  
الدراسة.

فايمر، في 18 ديسمبر 1823

عزيزتي أولريكه،

أزعجوني بالأمس أيما إزعاج. ما كادت أوتيليا تطرق  
الباب حتى ركضت إلى غرفتي ثم قلبت مجموعة من قصاصات  
الورق على الطاولة. قصاصات مكتوبة، وخلفها الصغير فالتر  
يصرخ باكياً لأن أمه انتزعت منه لعبته. بعناية كان الصبي قد  
قطع الورقة ليصنع منها أشكالاً. سفينة مثلاً، أو شجرة أو  
كنيسة أو بيتاً. أراد أن يلصق هذه الأشكال ثم يلونها. هذا ما  
قاله متحجاً شاكياً أمه. لم أكن بحاجة إلى وضع القصاصات إلى  
جانب بعضها البعض. نظرة واحدة كانت كافية. هناك قصيدة  
صغيرة كتبتها قبل عدة أيام. بحثت عنها وكنت آمل أن أعثر  
عليها، فلا شيء يضيع في المنزل كما يقولون. وفي هذا  
المنزل تحديداً، وخاصةً مثل هذه الأشياء.

قلتُ في القصيدة الصغيرة:

ليلاً ونهاراً ما زلتُ أتذكر

الوجه العذب

تفكرُ بي وأفكرُ بها

لكن ذلك لا يهدئ فينا لواعج الشوق

في البداية لم تستطع أوتيليا أن تنطق بحرف. صدر عنها فحيح. وقفت في الغرفة شاحبة كالشمع. اليدان ممدودتان تجاهي. نصف مُهددة، نصف متسولة. وأخيراً استطاعت أن تنطق: ترتوف<sup>(1)</sup>، كاذب. بمجرد أن نطقت بهاتين الكلمتين انحلت عقدة لسانها. وأكملت، أنت، مُراءٍ تمثل أمامنا دور المتعفف الكبير وتكتب قصائد كالتي يكتبها مراهق في التاسعة عشرة. نطقت بكلمات كهذه أو شبيهة لها. كم من مرة صرخت: أنت إنسان غير معقول! تدريجياً بدأت أتوهم أشياء أضيفها إلى كلامها. ثم قلتُ للصغير: تعال يا فالتر، اقترب مني. سألته عن الشكل الذي أراد أن يكونه. فايمر في الشتاء؟ كانت الإجابة معقولة لأن القصاصات بيضاء رغم الكتابة. ما زال لدي صمغ في الدرج. رحْتُ إذأً أُلصق معه «فايمر في

---

(1) إشارة إلى بطل مسرحية موليير الشهيرة «ترتوف أو المخادع» التي نشرت عام 1664. وتعالج المسرحية قضية النفاق واستغلال الدين للوصول إلى منافع شخصية. (م)



الشتاء». لصقنا القصاصات على نحو تبقى فيه الكتابة ظاهرة. تكوّن نص آخر. بالطبع يستطيع فالتر القراءة. في ما بعد اكتملت الكنيسة مع البيوت والسفينة. وعلى القصاصات كان مكتوباً: أتذكر ... لكن ذلك ... لواعج الشوق ... تفكر ... بي ... ما زلت ... الوجه العذب ... ليلاً ونهاراً.

صرخت أوتيليا صرختها الختامية: أنت غير معقول! ثم انصرفت بعد أن وجدتنا منمكين في اللصق المفيد. كان فالتر فخوراً بعمله، عن حق. عندما خلوت إلى نفسي كتبتُ القصيدة التي لم أعد أستطيع أن أطلق عليها تسمية «قصيدة صغيرة»، بعد أن تهكمت عليها أوتيليا بهذا الوصف. ثم رحت أقرأها بصوت شبه عال:

ليلاً ونهاراً ما زلتُ أتذكر

الوجه العذب

تفكرُ بي وأفكرُ بها

لكن ذلك لا يهدئ فينا لواعج الشوق

ما أتعسني! لماذا فقدت هذه الورقة؟ لماذا وضعتها في مكان نسيته؟ أصبَحَت تعرف كل شيء مرة أخرى. عليّ الآن أن أمثل من جديد دور الحليم المتأمل والمشارك في كل شيء بصبر. فضحتني هذه القصيدة البسيطة. أمن غير المسموح أن أكتب شيئاً كهذا؟ لا أستطيع أن أبتلع كل شيء. ولكن ...

ولكن عليّ أن أحترس احتراساً أفضل . إنني أعيش في بلد الأعداء . المستشار فون مولر هو الوحيد الذي أثرر معه في آخر المساء أحياناً، وأكاد أصف له حالتي . رغم أنه هو أيضاً معجب بي لأنني استطعت أن أتجاوز كل شيء! ينقل لي المستشار فون مولر أحياناً ما يحوم حولي من شائعات أو تكهنات . يقول إن الشائعات الأخيرة أمست باهتة . يريد أن يقول إن علينا أن نرضى بالوضع الحالي . لا أقدر يا أولريكه أن أخفي عليك ما قاله لي مؤخراً لأنه كاد يمس شغاف قلبي . كارولينا فون فولتسوغن، شقيقة أرملة شيلر وإحدى أسوأ الكارولينات، حاولت أن تطلق شائعة تقول فيها إنه إذا كان غوته يريد حقاً أن يتزوج بالشابة لِفِتسو، لكنه يعجز بسبب ممانعة أوتيليا، فهي، أي كارولينا فون فولتسوغن، مستعدة لاستقبال الشابة لِفِتسو بكل سرور في بيتها . على ما يبدو فإنها تقبل أن تغدو عندئذ مركز اهتمام العالم المتحضر .

ينبغي عليّ حقاً ألا أنسى أنني أطلت النظر كثيراً إلى الكلمات الثلاث الأخيرة في رسالتك . لقد اندمغت في روحي . إنها تضيء نهاري ويليي بمجرد أن أتوجه بفكري نحوك . من خلالك تكتسب كلمة «أتوجه» جرساً جديداً: صديقتك المخلصة أولريكه .

يمكنني أن أكتبها مئات المرات وأقرأها مئات المرات بصوت عال، وفي كل مرة على نحو مختلف . تعالي يا أولريكه اختبريني، إحصي معي، فأنت فريدة في الإحصاء . فريدة في كل شيء . صديقتك المخلصة أولريكه . إن الذين يسخرون مني

لأنني لا أستطيع سلوانك لا يعرفون عنك شيئاً. إنهم يظنون أنني فقدت الرشد بسبب فتاة مثل أي فتاة. الأمر في عيونهم لا يزيد عن كونه مسرحية كوميدية لإفلند، لأنهم لا يعرفون الكونتريس لِفِتسو. لا يعرفون ثراء إجاباتها وثناء معارضتها! عندما أفكر في أحاديثنا أدرك أنني طيلة حياتي لم أجر أحاديثاً كهذه من قبل. كنتُ أقابلُ دوماً إما بالتجريح أو بالتقديس. أنتِ يا أولريكة، أنتِ قد ولدتِ حتى أفقد نفسي في إنسان آخر، وحتى أرى كيف يعيدني هذا الإنسان سعيداً إلى نفسي. ثم يريدون مني ألا أراكِ أبداً؟ علينا ألا نقبل ذلك. ليذهب السيد دو رور إلى الجحيم ، سأختم كلامي وإلا... .

آه يا أولريكة. هل يمكن أن تعكسي لي أحد أقوالي: إن مَنْ لا يشعر باليأس عليه ألا يعتبر نفسه على قيد الحياة. والآن، قل لي العكس يا كونتريس لِفِتسو. هل هو: مَنْ لا يحيا بإمكانه أن ييأس؟ هل هذا صحيح يا كونتريس لِفِتسو؟ إلى هذا الحد وصلتُ بالأمس، في ما يتعلق باليأس. ثم لاحظت أن عليّ أن أعترف بأن يديّ ترتعشان. والعرشة تذكرني بعديم الاسم وهو يحكي عن الممثلين الأربعة الذين يرفعون أيديهم المرتعشة. ثم سمعت تلك الصرخات القصيرة الصغيرة تصدر من فمي. لم تصب العرشة يديّ فحسب، بل تملكنتني حتى الأكتاف. رفعت يديّ ووضعتهما على كتفي شتادلمان، وكأن حالتها ستتحسن هناك. كان شتادلمان قد دخل إلى الغرفة. ربما كانت صرخاتي الصغيرة القصيرة عالية هذه المرة. لم أستطع أن أترك يديّ على كتفيه. تشبثت بعنق شتادلمان ثم

ارتيميت على صدر هذا العملاق - يبلغ طوله بالتأكيد 187 سم - وانخرطت في البكاء. أملت ألا يلاحظ ذلك. قال: صاحب السعادة. ثم أعادني إلى غرفتي وأجلسني على الكرسي ذي المسند الذي أهدتني إياه إغلوشتاين. كان عليّ أن أجعل الألم ينساب، الألم الذي كان يسري من الكتفين إلى الذراعين، ومن الذراعين إلى الكتفين، ثم يصل إلى اليدين والأنامل. لم يكن سريان سائل. شيء غير مادي يسري فيّ، لكنه لا يفرز مشاعر في الجسد، أعني لا يفرز ألماً. بقي في الذراعين واليدين ثقل ساخن. لا أعلم مدة بقائه، غير أنني أشعر به، أقسم. يبقى ما قلته في الختام: صديقتك المخلصة أولريكة. أما أنا فسأصدق أوتيليا عندما وصفتني بـ«غير معقول». لذلك، عزيزتي أولريكة، أريد أن أختم رسالتي بـ صديقك غير المعقول. ولكن كيف لي أن أنهى رسالتي إليك يا حبيبتي! ليس لدي سواك. لكنك غير موجودة. غير أن هناك عهداً جديداً بيننا، عهد المرثية. هذا العهد ستلتزم به أولريكة فون ليفتسو ومعها فيلهلم فون هومبولت وكارل تسلتر ويوهان فولفغانغ فون غوته.

منذ أن تلقى يوماً رسالة من أولريكه وهو ينتظر كل يوم رسالة أخرى منها. يجب أن يخفي انتظاره ويتكتم عليه، أكثر من كل الأشياء الأخرى التي يتكتم عليها. عندما يسمع شتادلمان أو يون وهما يُحضران البريد كان يأخذ على الفور ورقة ويشرع في الكتابة حتى لا يلتفت إلى الداخل بالبريد. أو كان يشير بيده إلى مكان ينبغي وضع البريد فيه. بحر الجليد بين البشر. لحسن الحظ لا نعرف شيئاً عن بعضنا البعض. عندما وصلت الرسالة بالفعل لمح على الفور المظروف البنفسجي. كان عليه ألا يفتح الرسالة. كان يعلم أنها لا تستطيع أن تكتب ما يود هو وحده قراءته. وكان يعلم أيضاً أنها ستكتب دوماً كل ما بإمكانها أن تقوله. كل ما يعد بالسعادة الجميلة، وكل ما هو بديل للسعادة. كانت أولريكه تتجاوز دوماً الحد المرسوم لها. كلها هيام. نعم، كلها هيام. لم يكن ذنبها أنها لا تستطيع أن تكتب وتقول: غداً أجيء إليك وأرتمي في أحضانك وأهمس في أذنك بكلمات وقحة شريرة رائعة! لا توجه إلى أولريكه إذاً أي لوم! ولا تنس: صديقتك المخلصة

أولريكه . عندما تكتب امرأة شابة تعشق الماكينات شيئاً كهذا فهي تعرف مغزى ما تكتب .

رغم أنه كان يعرف تماماً أن ليس باستطاعة المرء أن يعرف مسبقاً شيئاً، وأن الواقع يفوق دوماً كل شيء، حتى تلك الأشياء التي يحدث المرء حدوثها فحسب، رغم كل ذلك فوجئ كل المفاجأة . لم يكن يتوقع أو يحدث بما تم إخطاره به . تتزين أولريكه الآن بالحلي . سلسلة ذهبية تنتهي بقطعة من الزمرد . زمرد داكن الخضرة يكرر خضرة عينيها ويمنحها درجة أغمق . هدية، لا بالمعنى الذي يستخدمه دورور، بل هدية حقيقية . هدية لم تستطع أن ترفضها، فهي ليست للأبد بل فقط على سبيل التجريب . عليها أن تتزين بالحجر الكريم، أو تحاول أن تتزين به . وعندما يأتي إلى ستراسبورغ سيسألها عن رأيها . عندئذ سري . لنتظر ونر . ماذا كان باستطاعتها أن تفعل إذا لم تكن تريد الاصطدام بحدود اللباقة؟ وهي لا تريد أن تتعدى هذه الحدود . لم يكن يستحق ذلك، هذا الموزع العاطفي للمجوهرات . على ما يبدو فإنه بالفعل يشعر بالحرج . إنه لا يريد أن يرى امرأة دون حلي، هذا هو كل شيء . بمجرد بلوغ الفتاة الثانية عشرة يجب أن تستيقظ داخلها الرغبة في اقتناء الحلي . ولكن ليس هناك قاعدة تسري على الجميع . أما إذا اقتربت الفتاة من العشرين، وما زالت الرغبة في الحلي لم تستيقظ بعد، فإن على أصدقاء الفتاة وأقاربها أن يعرفوا سبب امتناعها عن التزين . هكذا قيل . لفترة طويلة في حضور الأم والغراف . لن تنسى كيف استطاع أن يخلب لب الأم عندما

أهداها قهوة «موكا». نعم، هذه القهوة من بُن موكا الحقيقي الخالص الذي استطاع عبر علاقاته إحضاره مباشرة من قصر باشا مصر. لم تكن هذه القهوة مخلوطة أو مختلطة بشيء، بل تم انتقاؤها حبة حبة بعناية فائقة. بعد أن رشفت الأم فنجاناً من هذه القهوة كادت تسقط مغشياً عليها من فرط السرور.

عندئذ طلب موزع الحلي لقاء انفرادياً. سُمح له بذلك بناء على رغبة الأم، لا رغبته هي. ربما لأنه قال: من المفهوم أن تتأخر الرغبة الطبيعية في اقتناء الحلي إذا كانت امرأة شابة لديها قدوة - كما هو الحال بالنسبة لوالدتها - تفوق المعتاد في كل شيء، وليس فقط في ما يتعلق بالحلي. لم يتحدث بصوت عال، كما لم يكن لحوحاً. كان يتحدث بالأحرى بنبرة متأملة، ولكن دون توقف. كان واضحاً أنه لا يستطيع سوى ذلك. لا بد من أن يقول ذلك من أجلها. كان دوماً يرسل النظر إليها مُراقباً، أو بفضول وعلى ما يبدو مستعداً لاكتشاف شيء. على سبيل المثال: تأثير كلماته المستمدة من نظرات المراقبة التي يسدها إليها. لم يكن ممكناً، للأسف الشديد، أن تصد بخشونة هذه الرعاية، باستخدام كلمة «لنغير الموضوع»، مثلاً، كما كان الحال على طريق التنزه حيث تدربت عليها تدرّباً رائعاً. لم تكن قادرة على ذلك. عليها أن تعترف. لا يستحق رسول الحلي الإهانة. إنه بالفعل موهوب في اللطف والود. بإمكانه أن يُشعر المرء بأنه حسن النية تماماً. فتاة تقف على أعتاب الأنوثة الناضجة، هكذا قال، أمن المعقول ألا تتزين؟ إنه لا يعرف امرأة واحدة، من القسطنطينية حتى لندن، تسير بعنق عار وأذنين

لا تحملان شيئاً. على كل حال عليها - عندما تظهر في حفل التخرج في فيينا - أن تكون قد فكرت في إجابة. لأنها ستُسأل مئات المرات: لمَ هذا الزهد؟ إلى آخره، إلى آخره.

كم فكرت بكم، يا صاحب السعادة. كنت أصغي إليه، لكنني كنتُ لديكم فأنتم تجيدون فن إجراء الحديث إجادة عظيمة. طيلة 49 يوماً - نعم، لقد أحصت الأيام، ليسمح لها بذلك - طيلة 49 يوماً من السعادة تعلمت الكلام كما يتعلم آخرون ركوب الخيل. تعلمت لديه. وما تعلمته لديه فاق كل شيء في الجمال والأهمية. ما تعلمته لديه ملأ كيائها، بل وهزها من الأعماق وصعد بها إلى الذرى. أما في ما يخص ركوب الخيل فإن حصاني البني ينتظرني في بلدتي، في قصر ترشيبيليتس. وعليه أقفز فوق الشجيرات والخنادق، وأشعر معه بأني عاصفة من عواصف الخريف. أي أنني تعلمتُ ركوب الخيل قبل أن أرغب في تعلم القراءة بوقت طويل.

تستطيع الآن، إذاً، أن تركب الخيل وتتحدث. تشعر وكأنها حصلت على وسام. بعد أن اجتازت حاجز منتصف الليل قدم لها السيد دو رور بالفعل اسماً ثانياً، مرة أخرى اسماً ليس مسموحاً لها مرة أخرى بأن تبوح به لأحد قبل أن تحمل اسمه كاملاً أمام الجميع وفي عز النهار. عندئذ هتفت: توقف! وامتنعت عن الالتزام بعقد لم توافق على إبرامه، بل أُلقي على كاهلها دون موافقتها. بدا عليه التأثر لما قالت. ثقة مقابل ثقة، صاح، إلى آخره، إلى آخره. يا صاحب السعادة، إن هذا المسرح الذي أقامه بسبب اسمه الأول هو في الحقيقة سخي



وعديم الأهمية وما كان عليها أن تسايره في ذلك أبداً. ورغم أنها اعترضت في الوقت المناسب فإن رسول الحلبي، الذي جعل من نفسه رسولاً للحياة، قد أوقع بها في ورطة عبر ألعابه البهلوانية في ما يتعلق بالاسم الأول، وهي تريد أن تحرر نفسها منها. ولكن كيف؟ حقاً، إنها تشعر بنفسها مقيدة بتلك الثقة التي ورّطها فيها من دون أن يسألها. لا سيما أنه تحدث متأثراً عن خيبة الأمل التي أصابته والتي كادت تقضي عليه. لا يمكن أن يتحمل تجربة محبطة كهذه مرة ثانية. إن خيانة الثقة كادت أن تحطم كيانه... إلى آخره، إلى آخره. بالتأكيد يفهم صاحب السعادة الأمر أفضل منها، لأن صاحب السعادة في غاية الذكاء، ويستطيع أن يرى من بعيد كل شيء على نحو أهدأ وأوضح منها، هي التي قلبت العاصفة الدوارة كيانها. نعم، إنها تشعر بأنها مقلوبة الكيان. إذا كانت هذه ما يطلقون عليها الحياة فهي لا تعلم كيف ستشارك فيها. عليها أن تقول إن أجواء من المغامرة قد سادت، وهي - إذا كان شعورها صحيحاً - لم تكن على الدوام سخيطة. لم تتزين بالزمرد بعد أمام الملأ. نعم جربته، ولكن فقط عندما كانت وحدها. لا يمكنها أن تقول شيئاً بعد. على كل حال فإن الحجر ليس لافتاً للأنظار في ما يخص اللون والحجم والشكل. أما في التصميم - هكذا قال رسول الحلبي - فهو يشبه الزمرد الذي تتزين به دوقة دفونشاير. عندئذ اتضح لها أن الأم والغراف كليلسبرغ هما اللذان خططوا لهذا الهجوم عليها بالمجوهرات. لقد أهدى الغراف كليلسبرغ الأم لتوه عقداً يُلف أربع مرات حول العنق



إلا كلمات. الكتمان، لا شيء غير الكتمان. أنت في بلاد الأعداء. من المستبعد تماماً أن تنتج شيئاً. إنك زاهد في كل شيء، كما لم تكن قبلاً. ليس عليك سوى الزهد! ليس بصوت عال لاف بل بهدوء وبكل حكمة، كما يليق بالزاهد الكبير. أنبل واجهة ثقافية في ألمانيا. والواجهة الثقافية رقم واحد في ألمانيا، بل في أوروبا وفي العالم كله. مثال الزهد للعصور القادمة. على كل التعساء أن يرنوا إليك كما يرنو الإنسان إلى نجم: هكذا يتغلب الإنسان على ألم عظيم حتى يتلاشى الألم، حتى لا يعود يؤلم. ابتسامة، ابتسامة متحضرة تنتزعها من وجهك كي تجعله أجمل. الألم قصيدة مناسبات، ليست خفيفة وضحلة، لكنها على كل حال أكثر خفة من المرثية. المرثية تبقى في الخزانة بعيداً عن الناس، هذا ما ينبغي أن يكون. الآن، بعد أن ولى كل شيء وانقضى، الآن مسموح لك بأن تعترف بأنك شعرت بالألم. كل شيء قد انقضى إلى غير رجعة، لذلك يمكنك أن تعترف بأنك شعرت بألم عميق. المهم أن كل شيء ولى، وانقضى، انقضى، انقضى. وعليك، خصوصاً، أن تشعرها بذلك! يجب عليها أن ترى أنك لست دودة تتلوى حول نفسها. ربما تشعر بالراحة عندما ترى أن العجوز تجاوز الأزمة. كنتما معاً مسرحاً صيفياً. لقد عانى، وكان جميلاً أن يعاني. ولكنه تجاوز المحنة. لقد اعتمد الزهد طريقاً، بل وأعاد كتابة رواية «سنوات التجول» ومنحها العنوان الفرعي «الزاهدون»، حتى يرى كل قارئ كيف يمكن أن يزهد. نبيل هو الإنسان. يقدم العون للآخرين لأنه

طيب المعدن<sup>(1)</sup>. وإذا ساءت حالته يستفيد من منحة الرب له في التعبير عما يصمت عنه. عليه ألا يصمت الآن . . .

تناهى إلى سمعه صوت حوافر الخيل. هذا الصوت الجميل للحوافر المزودة بسنابك جديدة فوق الساحة ذات الأرضية القاسية. ثمانية حوافر في إيقاع هو الأكثر رزانة في العالم كله. أخذته الصوت إلى كارلسباد حيث كانوا يسكنون في «ألته فيزنشتراسه»، على بعد زهاء خمسين متراً من الجسر المار فوق نهر التيلب. عندما سمعا صوت الحوافر الهادر فوق الجسر الخشبي قالت أولريكه: الفرسان الأشباح. كانا يجلسان أمام «النعامة الذهبية» بعد هبوط المساء، ثم راحا يتطلعان إلى بزوغ القمر فوق جبل «دراي كرويتس». كان معها عند النبع الفوار. في صمت أخذنا يشاهدان الماء المتدفق إلى أعلى الذي لم يكن يشق طريقه في رتابة أو بانتظام، وإلا لكان يشبه عموداً منتصباً من الماء. بل كان يرتجف ثم يتدفق عالياً. لمدة ربع ثانية يبدو كأنه يلتقط أنفاسه ويستعيد قواه، ثم يرتجف ثانية ويتدفق إلى أعلى. عندما كان يقف مع أولريكه وكل أولئك المصطافين هناك لم يكن يعرف فيم يفكرون جميعاً عندما يتأملون هذه المعجزة المائية المتدفقة. ثم شعر بأن كل شيء يسير سيراً خاطئاً! لم لا يستطيع الإنسان، أو لم لا يُسمح له بأن يعبر عما يشعر به شعوراً واضحاً؟! شعر بإيقاع المياه في عضوه الذي كان يريد أن يبلغ تمامه. وماذا عن أولريكه وكل

---

(1) مطلع قصيدة مشهورة لغوته. (م)

الآخرين؟ عندما كانت أولريكة تلمسه لمسة عابرة على طريق العودة، كان يشعر بالسعادة الكاملة. لن يشاهد النبع الفوار مع أولريكة بعد اليوم. لن... بعد اليوم، هذه الجملة كان لها عنفوان خاص هذه المرة، عنفوان مدمر. شعر أن عليه ألا يسمح بحالة الجمود التي تريد أن تتمدد داخله. المطلوب الآن، وأكثر من أي وقت مضى، هو الكتمان. المطلوب الإخفاء. لو خرج ما يعتمل في نفسه الآن لهبّ إعصار من التعاطف والانتصار، ولغرق في بحر من التبريرات الأخلاقية الجمالية التي تدعي دوماً أنها على حق، والتي ستبدو كأنها أسف فظيع. دون وعي تناول برنامج اليوم. سيزوره اليوم المستشار فون مولر مع يوليا فون إغلوفشتاين. سيقدمان صورة مذهشة، كما كان مكتوباً. سيجيئان في الخامسة. وفي السادسة سيأتي ريمر الذي يريد أن يلقي عليه السوناتة التي يهاجم فيها أنصار النقاء اللغوي. بعد ذلك سوريه مع لينه وريبين وأديله شوبنهاور والمستشار وريمير وأوتيليا وماير والمفتش العام رور. ولكن قبل ذلك، في الخامسة أيضاً، سيأتي سيد يدعى تسوينر. كتبَ بلغة متكلفة مزخرفة أنه يريد أن يحصل على تزكية لدى ف. فون هومبولت. أما السيد تسوينر نفسه فقد زكاه المستشار فون مولر.

استبدلتُ بالماضي المستقبل. كل إنسان ما زال راشداً سيفعل الشيء نفسه. إياك أن تنطق بكلمة «راشد» بصحبة آخرين. لو ينطفئ كالضوء. لقد حلمت بكل شيء. المهم ألا تعترف في النهار بأن الحلم كان حقيقة. معها في الكنيسة في

كارلسباد حلمت أنك في كنيسة القديس يعقوب في فايمر. إنها الآن في كارلسباد. في أعلى المدينة وعلى حافة الغابة، في الطريق إلى «كوخ ديانا» حيث قضيتَ معها أربع ساعات في حديث حميمي. في الحلم صعدا الطريق المائل من دون أن يتحدثا. في الحقيقة كانت أولريكة أثناء هذا الصعود المائل قد قرأت حزن فترت على أشجارالجوز. عندما كادا يصلان إلى حافة الغابة اكتشفت هي فجأة تلك الكنيسة التي ظنها هو كنيسة القديس يعقوب. ثم دخلا الكنيسة التي أضائها آلاف الشموع على نحو احتفالي. كانت مكتظة بالمصلين، تماماً كما احتشد فيه الناس يوم دفن كريستيانه. بمجرد دخولها إلى الكنيسة راحت أولريكة تضحك، تضحك لهذا أو ذاك. وهم تجاوبوا مع ضحكتها. تعرفهم أولريكة جميعاً، وهم جميعاً يعرفونها. ثم تبادلوا القبل. هو وهي. في الحقيقة كانا قد تبادلوا القبل للمرة الأخيرة في طريق العودة على حافة الغابة. بينما كانا يتبادلان القبل في الحلم استدار وجهها من دون أن تنهي القبلة، وبذلك استطاعت أن ترسل النظر ناحية شاب، من الواضح أنه شرقي، كان قد مر بهما في طريقه إلى الباب. هناك استدار ثانية ليتبادل النظر معها قبل أن يختفي.

عندما استيقظ من ذلك الحلم، نهض على الفور. خشي من أن يعاوده حلم كهذا لو استغرق في النوم مرة أخرى. هذا العجز أمام حلم. ماذا عليه أن يفعل أثناء النهار حتى يحمي نفسه من أحلام كهذه؟ في الحقيقة كان يعرف. عليه أن يفرض رأيه على نفسه. الشيء الوحيد الذي أفاده حتى الآن هو

العمل . باستطاعته أن يكتب ما شاء . وحول ما شاء ، طالما هو يكتب فهو معصوم . هذا ما تدرب عليه . هذا ما تمرس عليه . عندما يكتب ينفصل عن هذا العالم ، ويعيش في عالمه . ولكن عندما يستولي عليه الإنهاك ، عندما يريد التوقف ، عندئذ ينقض عليه الماضي بعنف متزايد وكأنه قد التقط أنفاسه لأنه أشاح بوجهه عنه ، ثم راح يراكم من قوته إلى أن يستعيدها كاملة . تناول كتاب هوفلاند وقرأ الفقرة التي قرأها عندما كان مريضاً ووضع علامة بجانبها . ثم قرأها مرة أخرى الآن :

يحكي بورهافه عن نفسه أنه - بعد أن ظل أياماً وليالي يفكر دوماً في ذلك - سقط فجأة في حالة من الإنهاك والاسترخاء لدرجة أنه ظل راقداً وقتاً لا يُقاس في حالة من تبدل الإحساس وكأنه ميت .

لم لا يسقط - وهو الذي لا يفكر سوى في أولريكه - في تلك الحالة المبتغاة من تبدل الإحساس والموت؟ لماذا لم يفكر أبداً في أن يخلص أولريكه من موقفها بخصوص الامتناع عن الحلبي؟ لأنه يحترمها ، لأنه يكاد يقدها ولأنه يتعبد إليها . في الأمسية الأخيرة في كارلسباد أهداها ورقة الغنكو الذهبية . لم تعلقها ولا حتى في تلك الأمسية . أما هو فعلق حول عنقه ليلاً ونهاراً المفتاح الذهب الصغير الذي يعلق على قفاها . إنهما يعيشان في حالة فظيعة من اللاتوازن .

من دون أن يستقبل ذلك السيد المدعو تسوينر أمر يون

بإعطائه التزكية المطلوبة إلى هومبولت. فعل ذلك لأنه أراد أن يثار من تلك اللغة المتكلفة. بعد ذلك كاد يكون متشوقاً للقاء المستشار فون مولر ويوليا فون إغلوفشتاين. بمجرد دخول يوليا الحلوة، كما كانت تُلقب عن حق، كان غوته يتنافس مع المستشار فون مولر على كسب حظوتها. وكانت يوليا تستمتع بذلك. أما اليوم فقد دخل كل منهما بوجه متواطئ. كان المستشار يحمل لوحة ملفوفة في مفرش. من فضلك يا صاحب السعادة، اجلس وانظر بعيداً. أطاع. عندما سُمح له بالنظر إليهما كانت اللوحة معلقة على الحائط الذي تُعلق عليه دائماً الصور المخصصة للعرض. كانت صورة أولريكة فون لِفِتسو. ابتهج كلاهما بسبب حالة الدهشة التي عقدت لسانه.

قالت يوليا إنها هدية له بمناسبة عيد الميلاد. إنها هديتها. لم تكن تعرف ما إذا كانت هذه الصورة سترحب بها عائلته وتضعها تحت شجرة عيد الميلاد مع الهدايا الأخرى، ولذلك أحضرتها له الآن.

إخراج مسرحي، قال غوته لنفسه. إخراج مسرحي كأعظم ما يكون الإخراج، أو أم الشيطان. كان يعرف على الدوام أن كلمة «المصادفة» لا يستخدمها إلا الجهلة في مواقف الارتباك.

صاحب السعادة، صاحت يوليا كما تفعل أولريكة في المعتاد.

الأمر خطير. لم يكن قادراً على النهوض. عليه الآن أن يظهر رد فعل يفهمه الصديقان حسناً النية، ويستطيعان - إذا سألهما أحد - أن يحكيها. كيف لك أن تهديني هذه الصورة يا



يوليا؟ بدا السؤال ملحاً، لكنه لا يعبر عن فقدان السيطرة على الذات .

كانت يوليا تنتظر هذا السؤال . عندئذ انساب الكلام من فمها كشلال . تعرفت يوليا في دريسدن إلى الآنسة فولكرزام المتحدرة من منطقة كورلاند والتي تدرس الفن في دريسدن . بمجرد أن سمعت أن يوليا من مدينة فايمر ركضت على الفور وأحضرت «بورترية» لغوته ، وأرادت أن تعرف ما إذا كان الرسم متقناً . قلدت يوليا غوته قائلة: تطابق تام! كانت سعيدة، ثم راحت تحكي عن صديقتها أولريكة فون ليفتسو وأنها سمعت كثيراً عن غوته ومارينباد، كما أنها رسمت أولريكة أيضاً . اقتنت يوليا الرسمة ثم حولتها إلى لوحة، مستخدمة ألوان الغواش والألوان المائية والطباشير والزيت . أروع شيء هو وجه أولريكة في هذه الألوان الكثيرة! إنه يتذكر: هكذا بدت في الحلم . آه يا يوليا! الآن، قالت يوليا، تريد أن تسمع حكماً بالإعدام أو بالحياة .

قال غوته: تطابق تام .

ثم ضحك ضيفاه .

ثم قال بلهجة جادة إلى المستشار فون مولر: إنه يعرف بالتأكيد أن أوتيليا ومعها كل أفراد العائلة سيسافرون غداً إلى برلين . برلين تتوهج، قالت أوتيليا . منذ أن قالت هذه الكلمة والجميع يرددها . وكلهم يريدون قضاء أيام الأعياد في برلين، ليعيشوا وقتاً مسلياً . ولكن لا يقدر كل إنسان على ذلك . نريد، نحن الفقراء، الذين ينظرون إلى السعداء نظرة حزن، أن نتولى

أمرنا بأيدينا. هذا يعني ما يلي: أولاً سيتم شراء هذه اللوحة من الفنانة. وستدفع، سيادة المستشار، أي ثمن يُطلب. بعد ذلك ستنقل إلى غرفتي، إلى خزاناتي، وستخفي إلى الأبد. نحن لا نعرف أي شيء عن لوحة كهذه! لا ثرثرة ولا شائعات، لقد تمرنا على الزهد، ولا شيء يخرجنا عن طورنا. السيد المستشار، عزيزتي يوليا، أرى أنكما موافقان من كل قلبيكما. ثم أمر بنزع الصورة على الفور ونقلها إلى غرفته. قام شتادلمان بذلك، وبذلك أنقذ الأمسية.

عندما دخل إلى غرفته متأخراً رأى ورقة من شتادلمان الحكيم يخبره فيها في أي خزانة وضع اللوحة.

جلس على كرسي والدة إغلوفشتاين وترك يديه ترتعشان. لم تكن يدها ترتعشان أبداً في حضور الآخرين أما عندما يختلي بنفسه فكانت هذه الرعشة تكاد تسبب له الراحة. لم يكن عليه أن يفعل شيئاً، كانتا ترتعشان دون أي اجتهاد، هكذا من دون تدخل منه. راح يتفرج على يديه ثم نظر إليها متفحصاً. كان شتادلمان قد قلّم له أظافر أصابعه وضبط حوافها في مارينباد. إذا لم يستطع الماس الحقيقي التنافس مع الاصطناعي فمن المحتمل أن يستفيد جوان دو رور من علاقاته الشرقية ليصبح التاجر الأعظم للقهوة. المستقبل اسمه «موكا».

كان عليه أن ينهض أخيراً. ما كاد ينهض حتى اجتاحه غيابها، حاداً، طازجاً، مؤلماً، وكأن خبر غيابها وصله في تلك اللحظة. على الفور تحكم فيه هذا الشعور بالضيق الشامل. أثناء الرقاد تدرب طيلة دهر على أن يرى نفسه من دونها. تدرب على غيابها. غيابها إلى الأبد. وكأنه ألقى غطاءً سميكاً قاتماً على كل شيء. والآن ذهب كل هذا التمرين هباءً لأن الوضع تغير. في كل مرة تنخز الذكرى وتصيبُ رجلاً أعزل. إذاً ليبدأ كل شيء مرة ثانية. التمرين على اليأس. لديه الآن صورة أولريكه. يستطيع الآن في كل ثانية أن يذهب إليها، أن يرى وجهها المرسوم بألوان يوليا الكثيرة المتوحشة وأن يرنو إليها ويرنو ثم... ثم ماذا؟

عليه ألا يرنو إلى هذه اللوحة أبداً. كان يعلم أنه سيقول لنفسه هذه الجملة مئات المرات، ثم يعدو ويخرج اللوحة ليرنو إليها. يرنو ثم يرنو! يا لوضاعة الإخراج المسرحي! بهذه اللوحة يتكثف حضورها أكثر. هذه اللوحة تزيد كفاحه صعوبةً. عليه إذاً أن يدمرها. ولكن... عليه أن يفعل شيئاً ضد هذه

اللوحة. سار بأسرع ما يستطيع إلى المكتب. ثم كتب.

رجل عاشق.

هذا ليس وجهاً. كسر في الأنف، أرنبه الأنف، فم صغير لا يهدأ ثانية بل يرتجف ويتململ، وحشرة مجففة لا تريد أن يطعنها ذلك الفك الحاد الذي يبرز في الفراغ. وحول هذه الأعضاء يتطاير شعر قليل لا يكفي لشيء. ولا يكفي على الإطلاق لتغطية حلمتي الأذنين المكتنزتين اللتين تتوهجان مثل مصباحين أمام ملهى ليلي. العنق النحيل لا ينقذه سوى حلي ثقيل. تتحركين وكأنك لا تعرفين مركزاً تنطلقين منه. تأرجح لا يستند على شيء. الصوت حاد نافذ. وهو مثالي كي يثبت المرء أنه دوماً على حق. لا يصدر عن الفم المرتجف سوى ادعاءات بأن المرء على حق. لا ابتسامة واحدة تعبر عن خلو البال. دائماً هذه الضحكة السخيفة المسطحة. هذا بخصوص صورتك.

آه يا أولريكه، إنه يتحول بسببك إلى قزم يتمرن على القفز العالي. العداوة. بدون عداوة تجاه أولريكه لن يخلص نفسه. لا بد من استخدام العداوة كألة، كرافعة لتضخيم قوة المرء الذاتية القاصرة. ولكن كيف يمكنه أن ينمي عداوة تجاه هذه الفتاة؟ عداوة ذات مصداقية بالنسبة إليه؟ كراهية؟ استطاع طيلة حياته أن يستغني عن الكراهية. المعاناة هي الإمكانية الوحيدة كي تشعر هي المتسببة في معاناتك بالألم. ولكن ماذا تفعل إذا أدركت أنك متسبب في كل ما تعاني منه؟ إذا تحتم عليك الاعتراف بأنك تستحق ما يحدث لك من فظائع؟ إذا قلت إن ما

يحدث لك ظلم فعندئذ تستطيع أن تدافع عن نفسك . إما إذا تحتم عليك القول : أنت سبب معاناتك ، وإذا لم تستطع أن تلوم أحداً ، فعليك أن تواجه نفسك بنفسك . اشمئزاز؟ نعم ! على نحو متزايد . الاشمئزاز المتزايد تسببه له كل الملابس التي ارتداها في مارينباد وكارلسباد . كان عليه أن يفعل شيئاً منذ وقت طويل .

استدعى شتادلمان وكلفه بأن يجمع فوراً كل ما ارتداه هذا الصيف في بوهيميا وأن يضعه في صندوق . زي فرتر ، المعطف الصيفي بياقته المخملية الحمراء ، كل القمصان الكتانية والقطنية التي اشتراها هناك . الصديري الحريري الأسود والآخر الأبيض ، فانلة النوم البيضاء ، الشال القطني الأبيض ومعه الدبوس الذي يزين الصدر والجوارب الطويلة والقصيرة . لقد واصلت بيع الشعر في بوهيميا يا شتادلمان . كان عليّ آنذاك أن أفصلك . عليّ أن أفصلك الآن إذا فشلت . كل شيء في صندوق واحد ، ثم تنطلق بالعربة إلى غابة فيبشت وتواصل في اتجاه فازنري . خذ معك حطباً وورقاً . أريد نيراناً لا تبقي على شيء . شتادلمان ، هل فهمت؟

عندما سمع العملاق شتادلمان سيده يتحدث عن بيع الشعر انكمش وتضاءل . الآن استقام عوده وقال بنبرة احتفالية : نعم ، سيدي المبجل .

رأى غوته أن بإمكانه الآن الاعتماد على شتادلمان . إذا صادفني مرة أخرى مندبل أو كوفية كانت معي في الصيف فاعتبر نفسك مفصولاً ، مفهوم؟!

نعم، سيدي المبجل، قال شتادلمان ثم انصرف.

كانت أوتيليا في برلين، ولذا من الممكن أن تنجح المناورة. تنفس الصعداء. ثم عدا إلى الغرفة التي تضم الخزانة والتي يحتفظ بأوراقه داخلها. أخرج حسابات الرحلة التي دوّنها ووقع عليها يوهان فيلهلم شتادلمان. ثمة ورق في حجم رائع، عليه خط شتادلمان المنساب في جمال مثل أسلوب قيادته للعربة. ثم قرأ بيانات هذا الصيف وقد سُجلت في كلمات وأرقام. تكاليف حمام الطمي 30 كروتسر يومياً، الزيت اليومي 15، الشطائر الأربع 8، الشموع اليومية 1,40. دوّن شتادلمان كل غولدن<sup>(1)</sup> وكل كروتسر صُرف. البيرة، الغسيل، المبيت، الأوراق - هكذا كتبها شتادلمان بألف زيادة - الإكرامية والتبرعات للفقراء والحبر. صرف على وليمة البارون فون بروسيكه 3,20 غولدن. شعر بالراحة مرة أخرى لأنه كان يدفع الحساب دائماً عندما كان يتعشى في القصر إلى مائدة والد السيدة فون ليفتسو. باستطاعته الآن أن يحرق كل شيء بنفسه. كل شيء. ويحرق أيضاً كشف الحساب الذي أرسلته إدارة المنتجع بخصوص توريد 36 جرة من ماء النبع، مزودة بسدادات من الفلين، في صناديق إلى البيت. وجد نفسه يقرأ كشف الحساب هذا مرة أخرى:

ليس عليكم دفع ثمن الشحنة إلى الحوذي إلا إذا كان

---

(1) غولدن: عملة نمساوية من الذهب. (م)

التوريد خلال المدة المحددة، وبعد أن تتأكدوا من جودة البضاعة ومطابقتها للمواصفات المتفق عليها.

كلا، لن يحرق هذه الورقة. لا بد من أن تبقى شاهداً على استقامة لن تعود موجودة في المستقبل. ثم أعاد كشف الحساب إلى الدرج المخصص للأشياء التي يحتفظ بها.

ولكن، ماذا عن اللوحة؟ إذا كان جاداً فعليه أن يحرقها. غير أنه لا يستطيع أن يحرق الصورة، ليس بعد. والعلبة التي تضم قفاز يوم الثامن والعشرين من أغسطس 1823 والمفتاح الصغير الذي ما زال يعلقه في سلسلة ذهب حول عنقه . . . كل ما لا يمكن حرقه يجب دفنه. بدايةً يجب أن ينزع عنه السلسلة والمفتاح، وليلقِ بهما بعيداً.

تنفس على نحو أسهل. وكأن هذا القرار جعله أكثر قدرة على الفعل. ثم اتضح له أن كل ما قام به من استعراض للزهد والتعفف وكل هذه المسرحية السخيفة لم تكن سوى مبالغة عبثية في النظر إلى محيطه ومجتمعه.

إن أوتيليا محقة عندما سبته قائلة: «ترتوف»، وعندما ذكّرت به بما يدعو إليه في أدبه من أنه إذا زادت مرارة الكأس كان على المرء أن يتجرعها مبدياً سعادة أكبر. إنه في الحقيقة إنسان قلق، لا أخلاق له ولا شخصية، كأبشع المدمنين على الأفيون، في أقدر أحياء لندن. هكذا استطاعت أن تصرخ في وجهه، وكانت محقة.

شعر بغربة عن المجتمعات وما بها من ثرثرة كما لم يشعر

طيلة حياته . أعليه أن يستنفد أنبل طاقاته كي تتحدث الكذابة  
الأصيلة بتينا فون أرنيم أو هذه الكارولينا أو تلك الشارلوتة كما  
يحب ويريد؟ ما كان عليه أن يبعد أولريكة عنهن بل عن نفسه .  
ما كان عليه أن يهدر طاقاته في تمثيل مسرحية سخيقة عن الزهد  
والتعفف ، بل كان عليه أن يناضل ضد حضور أولريكة في  
نفسه . لقد خاض النضال . ولكن دون جدية . ليس بالجدية التي  
يتطلبها النضال قاد النضال وهو يعي أنه لا يستطيع ولا يريد أن  
يخرج منه منتصراً . في حياته الرتيبة التي يحكمها هوس الإيجابية  
لم يكن يريد أن يدخل في اختبار يعرف أنه لن ينجح فيه . يجب  
عليه أن يتجنب الحصول على درجات سيئة في امتحان الحياة .  
كلما اعتقد بأنه نجح بكل جدية في محو أولريكة من داخله كان  
يراها أمامه في الحديقة وهي تقف عند البركة وتطعم البجعة .  
وجهاها تحت القبعة المصنوعة من القش المربوطة بشريطين  
صفراوين متقاطعين . قبل ذلك كان عليه أن يحمي نفسه من  
الذكرى التي كانت تهاجمه . إنه يحمي نفسه ! نفسه ! نفسه !  
المطلوب الآن ألا يشفق على ذاته وإلا هلكت بسبب فتاة تعلم  
عك بعض الأشياء ، لكنها لا تعرف شيئاً عما يعتمل في نفسك .  
ما تشعر به الآن لا يمكن وصفه بالقوة . اعتقد أنه يستطيع أن  
يستعيد قواه . أن يشعر بالخجل ، ليس تجاه العالم أو الأخلاق أو  
العادات والتقاليد بل تجاه ذاته . إنه يجلس كالخرقة ، يسير  
كالسكران ، يتهته ، يكذب على نفسه كما لم يكذب في حياته  
على أحد وكما لن يكذب على ألد أعدائه . ولكن على نفسه  
يكذب ، على نفسه ، على نفسه ، في كل مرة يتذكر الفتاة ،



وتسيطر عليه وتفعل به ما تشاء. ليست هي بل هو الذي يجعل الجنون يزدهر وكأنه شيء جميل ورقيق ولطيف. ولكن جنونك هذا... لا تتنبأ بشيء. استجب لهذا الشعور. دعه ينمو حتى تخجل من نفسك. لا تطلب شيئاً من هذا الشعور. دعه ينمو. دع الأحاسيس التي جعلتك لا تطيق هذا العرض المسرحي المبتذل تنمو من دون شفقة. لنتظر ونر، أليس كذلك؟

كل ما له وزن يستدعي في المقابل وزناً آخر. لذلك غمره شعور يقول له إن الفترة التي أخفى فيها تبعيته لأولريكه كانت فترة هنيئة. ما زال العالم يسير سيره المعهود، أما هو فإنه يقبع في مغارة الذكريات التي يزداد ضوؤها توهجاً يوماً بعد يوم، وبها كنوز لم يمسهها أحد. عليه الآن أن يدمر الذكريات. أن يخفيها حتى عن نفسه. ولكنه أخفق في هذا.

عندئذ وصله - ويا للإخراج المسرحي البارع - مظروف بنفسجي وفي داخله بطاقة بنفسجية كذلك، وعليها: ل ت ف م ا د ا. نريد أن نحتفل برأس السنة في دريسدن. إذا كنتم تريدون مشاركتنا الاحتفال فسيساعد ذلك صديقتكم المخلصة أولريكه.

قال لنفسه: إنها إذاً مسرحية من مسرحيات إفلاند. عند الباب وقف شتادلمان وأخبره بنجاح حرق كل ما هو بوهيمي. نهض غوته وسار إليه وصافحه وضغط على يديه قائلاً: يمكنك في المستقبل أن تبيع الشعر، أينما ومتى شئت. ردّ شتادلمان: سيدي المبجل، لم أفعل ذلك إلا بعد إلحاح الناس كالمتمولين، البنات مثلاً...

خرج شتادلمان وجلس غوته شاعراً بأنه قائد عسكري في معركة. يتقدم الفرسان، فيخبرونه بهذا أو ذاك. وعليه أن يقرر وأن يصدر الأوامر بما ينبغي فعله. لكنه لم يكن قائداً عسكرياً. لو كان قائداً كان سيترك القرار للجنود ليقرروا ما يفعلونه. كان يجمع في شخصه بين هرقل وأنطينوس على نحو لا يمكن أن يكونه الكابتن الاسكتلندي. لقد تردد طويلاً للغاية، ثم بسرعة كان يفعل كل شيء على نحو خاطئ: حرق أشياء مارينباد في فيشت!

أمر نفسه بالهدنة. منذ أن وصلته بطاقة رأس السنة استطاع أن يؤدي واجبه وأن يكون حاضراً دون نفاذ صبر أو انفعالية. ترك المستشار فون مولر يقرر من يتوجب عليه استقباله، ولأي مدة وكيف. راح يمزح بمرح صاف مع أديله شوبنهاور ويوليا ولينشن فون إغلوفشتاين. أطلق على أديله صفة حبيبه وهو ما نقلته إلى الآخرين، فتحتم عليه أن يسحر لب يوليا كما لم يفعل من قبل. مع ضيوفه الرجال كان رقيقاً صبوراً. كلف يون - الذي كان إلى جانب مهماته كاتباً وسكرتيراً يتابع تغيرات الطقس بل ويسجلها أيضاً - أن يقدم له تقريراً تفصيلاً عن حالة الطقس استناداً إلى الترمومتر والبارومتر وملاحظته لحركة السحاب. قال يون إن الطقس سيكون دافئاً على نحو غير مألوف بالنسبة إلى هذا الفصل من العام. الثلج القليل الذي هطل لن يبقى منه شيء. أعلن ذلك بنبرة يشوبها الأسف لأن السيد المستشار فون غوته كان يُعتبر من المستمتعين بالطقس الشتوي القاسي. تمالك غوته نفسه. استدعى شتادلمان وأظهر

له على الفور أن حالته النفسية في أبهج حال لأنه ربما يقوم -  
 عزيزي شتادلمان - برحلة سريعة إلى دريسدن. لماذا إذاً يا  
 شتادلمان لدينا أسرع عربة في البلاد وأفضل حوزي في العالم؟  
 أجابه شتادلمان: هذا أمر يسرني يا سيدي المبجل. أصبح  
 ينطلق يومياً في رحلات صغيرة في المنطقة المحيطة به.  
 دريسدن! قبل سنوات كانت مدام دو ستايل قد ألحت عليه في  
 الدعوة المغربية كي يزورها في دريسدن. جاذبيتها لم تكن  
 كافية. كانت السيدة رائعة وتستحق الإعجاب وذكية أيضاً،  
 ولكنها كانت في عينيه طموحة أكثر من اللازم. شعر بالانجذاب  
 إليها كلما قابلها. عرفته جيداً كما لا يمكن أن تعرفه سوى  
 امرأة. كانت هي التي أعطته مفتاح ذكورته: *Il vous faut de*  
 (1) *la séduction*

لم يكن بالرجل الذي يغزو قلوب النساء بل رجل تغزوه  
 النساء. أولريكه هي الأولى التي رفضت أن تغزو قلبه. بالرغم  
 من ذلك، أو بسبب ذلك سيسافر إلى دريسدن. اه ا و (2).

في الثامن والعشرين من ديسمبر أمر بإعداد العربة للقيام  
 برحلة تنزه. لم يكن في تلك الأيام يستطيع العمل. شعر  
 بالخجل من نفسه. ولكن ذلك لم يفد بشيء. بقوة لم يعرفها  
 طيلة حياته راح يزيح كل ما يريد أن يعترض طريقه. لم يعد  
 يسمح للشكوك بأن تجد طريقها إليه. ليحدث ما يحدث! ماذا

(1) أنتم بحاجة إلى القدرة على الإغواء. (م)

(2) أي: إلى هذا الحد وصلنا. (م)

يهمه هذا السعي الأبدي إلى التقدير! لا تحتاج الحياة إلى درجات تقدير، إنها تريد أن تُعاش!

ثم حدث التالي يوم الأربعاء في الثامن والعشرين من ديسمبر: كالعادة، كلما كانا ينطلقان خارجين من المدينة كانا يمران بساحة «ماركت بلاتس» ثم يتوقفان على الجانب الأيمن من الساحة. وبعد ذلك يواصلان السير عبر «شلوس غاسه» إلى جسر «كيغل» كي يعبرا نهر الإيلم. في هذا اليوم رأى عربية تقف في الناحية الأخرى أمام محطة البريد وبجانب مطعم «ولي العهد». هذه العربية كانت تتهياً ثانيةً للانطلاق الآن. أمام المطعم وقف أربعة أشخاص، على ما يبدو في حديث مع مدير محطة البريد. كان واضحاً من شكل العربية، حتى بالنسبة له وهو القصير النظر، أنها ليست عربية عادية لنقل المسافرين. الأشخاص الأربعة مختلفو الطول. كلهم يرتدون معاطف من الفرو لكنهم لم يزرروها لأن الطقس لم يكن بارداً جداً. على الرأس شالاً خفيفاً بدلاً من قبعة سميكة من الفرو. أرادت الحالة النفسية التي وجد نفسه فيها منذ حصوله على البطاقة أن يرى في المسافرين الأربعة آل لِفِتسو. مثلما يتعرف المرء على مجموعة من الجبال ويعطيها اسماً واحداً اعتقد بأنه تعرف على العائلة المقدسة - هكذا كان يطلق على آل لِفِتسو أحياناً بمرح خالص - لا سيما بسبب الاختلاف في الطول. أمر شتادلمان بأن يستدير على الفور عند ناصية البيت التالي ثم العودة عبر «زايفن غاسه» إلى بيته في ساحة «فراونبلان»، والدخول بسرعة إلى الفناء الداخلي للبيت. قال لشتادلمان إن ما يكلفه به الآن

هو أكثر الأمور جدية على الإطلاق. عليه أن ينطلق بالعربية  
ويقترب بحسب ما تفرضه الضرورة حتى يتعرف، أو لا  
يتعرف، على المسافرين. ولكن عليه أن يحذر من أن يتعرف  
عليه أحد.

ثم راح يذرع الغرف الست جيئة وذهاباً، وبخطى أسرع  
مما أراد. لو كان يرتدي نظارة مثل كل قصار النظر لرأى ما إذا  
كان الأربعة من آل لِفْتَسُو أم لا. يجب إطلاق الرصاص عليك  
أيها القائد. لم يكد يمر أسبوع عليه منذ أن استمتع كل  
الاستمتاع بإعادة صياغة الفقرة التي يتحدث فيها عن النظارة في  
«سنوات التجول». يا لها من عقوبة! لقد جعل بطله فيلهلم  
المعادي لوضع النظارات يقول: مَنْ يَرَّ عبر نظارة يدَّع ذكاءً  
ليس فيه. ليس للنظارة تأثير أخلاقي حميد. إني أرى أكثر مما  
ينبغي. آه يا فيلهلم! راح غوته يضرب صدره بقبضته. لم يكن  
الضرب شديداً، لكنه كان سريعاً. لم يخسر المعركة بعد. إذا  
كان الأشخاص هم آل لِفْتَسُو فلن تمر العائلة بفأيمر من دون أن  
تزوره. أم أنها تأخرت ويجب أن تواصل السفر؟ هل ينتظرها  
شخص ما في دريسدن؟ صه! لا تنطق بحرف الآن! صب لنفسه  
كأساً من نبيذ البورت وتجرعها دفعة واحدة، ثم كأساً أخرى  
وثالثة. عاد تنفسه إلى طبيعته. لم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً  
غير أن يتحسس طريقه في أنحاء الغرفة ويفكر في درسدن /  
رأس السنة / أولريكه / رأس السنة / دريسدن. أخذ قلبه يقرع  
جدران صدره كالسجين الذي يضرب بيديه باب الزنزانة حتى  
يطلقوا سراحه لأنه حُبس ظلماً. يريد القلب أن يظل يخفق حتى

ينفجر لأنه يشعر بالخيانة. لا يستطيع أن يقدم له شيئاً. كان قد تعجب من أن أولريكه أرسلت له هذه البطاقة من الأساس. نعم، لقد اتفقا على صيغة «ل ت ف م ا د ا»، لكن الدعوة رسمية. ليس هذا أسلوب أولريكه. إنها الأم أرادت أن تحصل عليه كرمز للنصر في حفلتها وحفلة كليلسبرغ الراقصة. لكي تضم الحفلة شخصاً مشهوراً. ليكن، المهم أن يرى أولريكه . . .

دخل شتادلمان مشرق الوجه بالفرح الخالص. نعم، سيدي المبجل، نعم! إنها عائلة لِفْتَسُو. رأيتها دون أن تراني. عائلة لِفْتَسُو بأفرادها الأربعة.

شكراً يا شتادلمان، قال القائد، ثم أمره بالانصراف. بإيماءة عسكرية ضم شتادلمان كعبه واستدار خارجاً. كان على غوته أن يشرب كأساً أخرى من نبيذ البورت، ثم كأساً أخرى. لا يمكن أن يتحمل ذلك. بعد ساعتين كان قد أفرغ زجاجتين من نبيذ البورت. لم يعد يستطيع السير إلا بالكاد، لكنه كان يستطيع الجلوس والتفكير. كان يشعر بالسعادة لأنه الآن القائد العسكري. ما فعلته كان سلوكاً جباناً. الجبن تجاه الصديق. لقد تسلل آل لِفْتَسُو كاللصوص. إنهن ينتظرن مجيئه يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر لكي يزيد من شهرة العائلة. ولكن لا أحد ينتظره اليوم. اليوم كنّ . . . أياً كان ما فعلته اليوم. لا شيء يربطهن به. لا شيء بعد اليوم. لا شيء إلى الأبد. شعر الآن بالسعادة لأنه حاول أن يستجيب لشعور حاول أن يتكون داخله في الأيام الأخيرة: الخجل. لم يعد يشك في هذا

الشعور. شعر بالخجل من نفسه. كان الشعور حاداً وقويماً بحيث لم يبق شعور آخر داخله. لم يصبح متأكداً من الشعور بالخجل إلا الآن بعد هذه الخبرة التي مر بها لتوه. خجله قال له: لقد ابتعدت عن كل ذلك. لم يعد يستطيع أن يصب اللعنات على حكم بطل روايته المسبق حول النظارات. لو كنت تضع نظارة لتعرفت على العائلة، ولتحتّم عليها أن تأتي إليك. ولكنها لم تكن تريد ذلك مطلقاً. لقد كتب يوماً - لم يعد يتذكر أين - أن الحيوان يعرف قدراته لأنه لا يشعر إلا بما تتيحه الطبيعة. وما أكثر ما تتيحه الطبيعة. الآن كان باستطاعته أن يكمل الجملة ويقول: وهي تعوق حدوث المستحيل. تمت إعاقة المستحيل. هل شعر الآن بالخفة؟ الخفة التي لم يشعر بها في حياته أبداً. إنها تدعى بلادة المشاعر. نعم، لم يعرفها يوماً. لم يمر بها. لم يكن يستطيع أن يطلق على هذا الشعور غير ذلك. لقد تحرر. لا شكوك بعد الآن، فقد تبلدت مشاعره. نعم تبلدت مشاعره ولم يعد يعرف الحب. هذا يُفسح مكاناً لم يكن موجوداً من قبل أبداً، سواء كان هذا فراغاً أو عدم إحساس يفوق كل إحساس. على كل، لقد تحرر، تخلص من العبء. نعم، هذه هي الحرية. أن تكون بلا مشاعر حب، بلا بهجة، بلا حياة، وبلا ألم. لن يستطيع أحد أن يعذبه بعد اليوم ولا حتى نفسه. نالت الخليقة خلاصها. ما لم يسمعه موسى بسبب الإنهاك بعدما ارتقى قمة الجبل التي تلقى فوقها الوصايا، الوصية الأولى هي السهوة المأسوية التي لا يمكن تصحيحها الآن بعدما وصل إلى سيناء الخاصة به، منهكاً

كذلك، ولكنه ليس ثقيل السمع. إنه مرهف السمع كما لم يكن في حياته. الآن سمع الوصية وفهمها: لا تحب.

استلقى فوق الفراش. لا أفكار بعد الآن يتحتم عليه أن يصددها من دون أمل في النجاح. لم يعد يشعر إلا بنفسه. لا شيء سواه. وكأنه يملأ العالم. العالم كله هو. مفعماً بالخفة. مفعماً بالثقل الرباني. ثقل الخفة. أخيراً. التوازن المفقود؟ أهذا هو؟ هكذا فكر. ثم استغرق في النوم. نام من دون انقطاع حتى ظهيرة اليوم التالي.

عندما استيقظ وجد نفسه ممسكاً بعضوه في يده، منتصباً. عندئذ عرف بمن كان يحلم. اهاو.



## الخبر الأخير

عن الثاني عشر من نوفمبر 1899 قالت السيدة ماري شيفر التي قامت على خدمة الأنسة النبيلة فون لِفْتسو لمدة ستة عشر عاماً:

عندما ذهبَت أولريكة فون لِفْتسو في العشية إلى فراشها كانت حبات من العرق البارد تغطي وجهها. شعرت بدنو أجلها فأمرت بإحضار صينية فضية وحرقت رزمة من الرسائل لم يكن أحد على وجه البسيطة يعلم عن محتواها شيئاً ثم وضع الرماد في كبسولة فضية وإحكام إغلاقها. أبدت أولريكة رغبتها في أن يوضع هذا التذكار الثمين في تابوتها بعد الوفاة. فعلتُ ما أمرت به. وفي الرابعة فجراً استيقظتُ على سعال، ثم في السادسة أسلمت الروح في وداعة.

وفق ما كتبه ابنة أختها الكبرى ضمت تلك الرزمة رسائل غوته .



## مارتن فالزر

يطلق على مارتن فالزر «بلزاك بحيرة بودن»، فهناك ولد الروائي الكبير ومازال يعيش.  
نال أهم الجوائز الأدبية في ألمانيا: جائزة هرمان هسه، جائزة شيلر، جائزة بوشنر، وجائزة السلام المرموقة.  
«أبطال» رواياته هم غالباً من الفاشلين الذين يشعرون بعقدة النقص، ويشعرون بالخواء الداخلي. أطلق عليه النقاد لقب «مؤرخ الحياة اليومية». ومن رواياته التي تؤكد صحة هذا الوصف: «زيجات في فيلبسبورغ» (١٩٥٧) و«الجواد الهارب» (١٩٧٨) و«النبع الفوار» (١٩٩٨). ورواية «رجل عاشق» التي صدرت هذا العام وهو في عمر الواحد والثمانين، وهي آخر ما كتبه فالزر.

### سمير جريس

ولد في القاهرة. درس الألمانية وآدابها. ترجم عدداً من أعمال الأدب الألماني المعاصر، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك و«الكونتراباص» لباتريك زوسكيند. نال الجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.



أربعة وخمسون عاماً تفصل بين غوته وعشقه الأخير:  
أولريكه فون ليفتسو. أهو حب مستحيل؟ هل أمسى أمير  
الشعراء عجزاً متصانياً يلهث وراء المتع واللذات ويعبث مع  
الفتيات؟ أهي نهاية بائسة لرجل عظيم؟

يتساءل فالزر على لسان غوته: ولكن هل للعشق عمر؟ ويرد  
قائلاً: حبي لا يعرف أي فوق السبعين. أنا أيضاً لا أعرف. ما  
الفردوس؟ إنه لقاء عاشقين. وما الجحيم؟ إنه غياب أحدهما.

\*\*\*

إن عذوبة السرد تفتن القارئ ... ببراعته اللغوية يتفوق  
فالزر في هذه الرواية على نفسه، بل وعلى بعض الأعمال  
الشهيرة في الأدب الألماني التي اتخذت من غوته موضوعاً لها  
... إنه يتفوق أيضاً على توماس مان في روايته «لوته في فايمر».  
صحيفة «زود ديوتشه»

نظرة نارية تُشعل جمر العشق من الجملة الأولى: «قبل أن  
يراهما كانت قدرأته» ...

ما كتبه فون هومبولت عن غوته ... ينطبق أيضاً على رواية  
فالزر: «لقد خطّ أجهل ما كتب، لا، بل ربما فاق ذلك، لأنه جمع  
بين طزاجة الخيال الذي لا يتوافر بسهولة، وبين الكمال الفني  
الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بعد تجربة طويلة».  
«فرانكفورتر ألجماينه»

استطاع مارتن فالزر في «رجل عاشق» أن يمسك بلغة  
عصر غوته دون أن تبدو كتابته متقدمة. هذا إنجاز ربما لم يكن  
القارئ يتوقعه من الروائي.

«ليتراتور أنتساينغر»

أولاد



ISBN 978-9953-87-532-4



9 789953 875323

الدار العربية للعلوم  
Arab Scientific Publishers  
www.aosp.com.sa www.aosp.com.lb

EAST WEST PUBLISHING  
شرق غرب للنشر